أدهَشَني الألم

دور الألـم والـمـوت في الحياة المسيحيَّة

WWW.CHRISTIANLIB.COM

أر. سي. سبرول

أدهَشَني الألم

دور الألم والموت في الحياة المسيحيَّة

أر. سي. سبرول

المؤمنين الآخرين. وقد سرَّني خبر إعادة نشر هذا الكتاب، وتأكَّدت عند قراءتي لمسودته لماذا نحن لا نحزن كالباقين الذين لا رجاء لهم".

—د. جيمس لينش الابن

طبيب استشاري بقسم أمراض الدم والأمراض السرطانيَّة

كلية الطب بجامعة فلوريدا في مدينة جينزفيل بولاية فلوريدا.

"في كتاب '**أدهَشَني الألم**'، يلتقي 'جون كالفن' مع 'فلورنس نايتنجيل'. وهذا عمل نادر يجمع بين اللاهوتي والراعي. وهو كتاب يتناول الألم بصورة مباشرة وصريحة؛ ويعلِّم، ويشرح، ويواجه، ويُعزِّي. نصيحتي لك أن تبتاع منه نسخًا كثيرة، لأنك قد تحتاج أن تقدِّمه لشخص متألِّم في العالم المحيط بك".

—جون بي. سارتل الأب

كبير رعاة كنيسة Tates Creek المشيخيَّة

بمدينة لِكسنجتون، في ولاية كنتاكي.

توصيات

"حقًّا إنها لهدية رائعة للكنيسة أن يتناول لاهوتي ضليع، اكتسب أفكاره ومفاهيمه من سنوات من الخبرات الشخصيَّة والدراسات الكتابيَّة، موضوعًا شائكًا كموضوع الألم. في هذا الكتاب ستجد حكمة المنظور الكتابي ممتزجة بالرجاء الأبدي للإنجيل، يقودانك معًا إلى مزيدٍ من الراحة في مخلِّصك، ولا سيما في أوقات الضيق. وإنني ممتنٌّ لأجل صدور الطبعة الجديدة من هذا الكتاب".

—بول ديفيد تريب

رئيس "خدمات بول تريب"

وراعي الكنيسة المشيخيَّة العاشرة، في سنتر سيتي،

بمدينة فيلادلفيا في ولاية بنسلفانيا

وأستاذ مادة الحياة الرعوية والرعاية، بكلية Redeemer

Seminary للَّاهوت في مدينة دالاس، بولاية تكساس.

"كطبيبٍ متخصِّصٍ في الأمراض السرطانية، نلتُ شرف الاعتناء بأناسٍ في أثناء 'سيرهم في وادي ظل الموت'. في مثل هذه الأوقات، يجد المؤمنون أنفسهم أمام أكثر الأسئلة إزعاجًا في حياة الإنسان، تلك التي يُثيرها الألم والموت. وفي كتاب **'أدهَشَني الألم'**، يقدِّم لنا آر. سي. سبرول في إيجاز وبتَفَهُّم ثلاث حقائق أرى أنها الحقائق المحورية التي يلزم استيعابها حتى يمكننا الثبات عبر الألم والموت. أولًا، حتمية الموت أو الألم، وأنهما دعوة. ثانيًا، مقاصد الله الخلاصيَّة والسياديَّة من الألم. وأخيرًا، يقينية الحياة الأبديَّة في شركة كاملة مع الله ومع

المؤمنين الآخرين. وقد سرَّني خبر إعادة نشر هذا الكتاب، وتأكَّدت عند قراءتي لمسودته لماذا نحن لا نحزن كالباقين الذين لا رجاء لهم".

—د. جيمس لينش الابن

طبيب استشاري بقسم أمراض الدم والأمراض السرطانيَّة

كلية الطب بجامعة فلوريدا في مدينة جينزفيل بولاية فلوريدا.

"في كتاب '**أدهَشَني الألم**'، يلتقي 'جون كالفن' مع 'فلورنس نايتنجيل'. وهذا عمل نادر يجمع بين اللاهوتي والراعي. وهو كتاب يتناول الألم بصورة مباشرة وصريحة؛ ويعلِّم، ويشرح، ويواجه، ويُعزِّي. نصيحتي لك أن تبتاع منه نسخًا كثيرة، لأنك قد تحتاج أن تقدِّمه لشخص متألِّم في العالم المحيط بك".

—جون بي. سارتل الأب

كبير رعاة كنيسة Tates Creek المشيخيَّة

بمدينة لِكسنجتون، في ولاية كنتاكي.

إلى

أليسا إرين ديك،

التي ماتت وهي جنين

إلى أن نلتقي في السماء

© 2009 by R.C. Sproul.

Published by Reformation Trust Publishing (a division of Ligonier Ministries), under the title *Surprised by Suffering: The Role of Pain and Death in the Christian Life.* Translated by permission. All rights reserved.
ISBN: 978-1-56769-184-9

اسم الكتاب: أدهَشَني الألم: دور الألم والموت في الحياة المسيحيَّة
المؤلف: أر. سي. سبرول
© ٢٠٢١ خدمات ليجونير
الناشر: خدمة «الحق يحرركم»
مراجعة الترجمة: إليزابيث فايز
المشرف العام على الترجمة: الدكتور القس/ شريف جندي
المطبعة: ST. MARK PRINTING HOUSE +20223374128 +201223172090
رقم الإيداع: ٢٠٢١/٥٠٤٦
الترقيم الدولي: 978-977-90-8591-3

جميع حقوق النشر والطبع محفوظة. يُمنع إعادة طبع أي جزء من هذا الكتاب دون إذن خطي مسبق من الناشر، كما يُمنع تخزينه بأي شكل يسمح باسترجاعه وإعادة استعماله. ويُمنع نقله بأي شكل من الأشكال وبأيَّة وسيلة، سواء كانت إلكترونيَّة أو آليَّة بالاستنساخ الفوتوغرافي أو بالتسجيل الصوتي وخلافه. ويُستثنى من هذا حصريًّا الاقتباسات القصيرة الموضوعة بين هلالين مع ذكر مصدر الاقتباس بالتوثيق العلمي.

اقتباسات النصوص الكتابيَّة مأخوذة من ترجمة البستاني - ڤاندايك، إلا إذا أُشير إلى غير ذلك.

إلى

أليسا إرين ديك،

التي ماتت وهي جنين

إلى أن نلتقي في السماء

المحتويات

تمهيد

الجزء الأول: نحو الموت

الفصل الأول: الألم والحيرة واليأس ١١

الفصل الثاني: السير في درب الآلام ٢٥

الفصل الثالث: دراسة حالة عن الألم ٣٩

الفصل الرابع: هناك قصدٌ من الألم ٥٥

الفصل الخامس: الدعوة الأخيرة ٦٧

الفصل السادس: الموت في الإيمان ٨١

الجزء الثاني: ما بعد الموت

الفصل السابع: تكهُّنات بشأن الحياة ما بعد الموت ٩٩

الفصل الثامن: يسوع والحياة ما بعد الموت ١١٩

الفصل التاسع: الموت هو ربح ١٤٣

الفصل العاشر: رؤيا لما هو عتيد أن يكون ١٥٩

الخاتمة ١٨٣

مُلحق: أسئلة وأجوبة ١٨٥

تمهيد

يتمتَّع أولئك الذين يعيشون في الدول الغربية ببركات لم تكن الأجيال السابقة لتصدِّق قط أنها ممكنة، إذ يَنعَم غالبيتنا بصحة جيدة، وبالأمان، وبنمط حياة مُريح. فإننا لا نواجه يوميًا مخاطر تهدِّد حياتنا أو حتى شعورنا بالراحة والسعادة.

لكن، تميل هذه البركات إلى أن تثير بداخلنا شعورًا كاذبًا بالحصانة. فحين نبتعد عن المشقات لفترة طويلة، ينشأ بداخلنا توقُّع بأننا دائمًا ما سنفلت منها. ومن ثَمَّ، إذا جاء علينا ألم من أيِّ شكلٍ أو نوع، سواء كان مرضًا، أو إصابة، أو حزنًا، أو فقدانًا، أو اضطهادًا، أو فشلًا، يُصيبنا هذا بالدهشة. ومن هنا جاء عنوان هذا الكتاب.

غرضي من تأليف هذا الكتاب هو ألا تندهش أو تُفاجَأ حين يأتي الألم على حياتك. أريدك أن تدرك أن الألم ليس أمرًا استثنائيًا على الإطلاق، وهو أيضًا أمرٌ غير عشوائي. فهو مُرسَلٌ من أبينا السماوي، المُحب وكليِّ السيادة، لتحقيق خيرنا الأعظم. في حقيقة الأمر، أريدك أن تدرك أن الألم دعوة من الله.

صدر هذا الكتاب للمرة الأولى في عام ١٩٨٨. وقد أضيف إلى هذه الطبعة الجديدة فصلٌ عن سيادة الله وعن علاقتها بالألم (الفصل الرابع)، فضلًا عن قائمتين جديدتين من الشواهد الكتابيَّة والموضوعات.

صلاتي أن يستخدم الله كتاب "أدهَشَني الألم" كي يهيئك لأي وادٍ ربما يدعوك الراعي الصالح إلى السير فيه، عالمًا أنه هو بذاته سيرافقك بداخله.

—أر. سي. سبرول

ليك ماري، ولاية فلوريدا

يونيو ٢٠٠٩

الجزء الأول

نحو الموت

الفصل الأول

الألم والحيرة واليأس

المسيحيُّون الحقيقيُّون هم مَن لديهم إيمان بالمسيح. نطمح جميعًا إلى أن يكون إيماننا قويًّا وثابتًا. لكن الواقع هو أن الإيمان ليس بالشيء الثابت، فهو يتأرجح بين لحظات من البهجة الفائقة وأوقات من الضيق التي تدفعنا إلى حافة اليأس. وحين يضيء الشك أضواء الخطر أمام أعيننا، يهدِّد سلامنا. ولهذا، من النادر أن نجد قديسًا يتمتع بالسكينة والسلام طوال الوقت.

يُمثِّل الألم واحدًا من أبرز التحدِّيات لإيمان أيِّ مؤمن. فحين يضرب الألم، أو الحزن، أو الاضطهاد، أو أيُّ شكل آخر من أشكال الألم، ضربته، يأخذنا على حين غرة، فنرتبك ونتحيَّر، وتغمرنا الأسئلة. وبمقدور الألم أن يستنزف إيماننا، ويجهده إلى أبعد الحدود.

كتب بولس كلمات مؤثِّرة ومحرِّكة للمشاعر عن صراعاته الشخصيَّة في أوقات الضيق، قائلًا: «مُكْتَئِبِينَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، لَكِنْ غَيْرَ مُتَضَايِقِينَ. مُتَحَيِّرِينَ، لَكِنْ غَيْرَ يَائِسِينَ. مُضْطَهَدِينَ، لَكِنْ غَيْرَ مَتْرُوكِينَ. مَطْرُوحِينَ، لَكِنْ غَيْرَ هَالِكِينَ. حَامِلِينَ فِي الْجَسَدِ كُلَّ حِينٍ إِمَاتَةَ الرَّبِّ يَسُوعَ، لِكَيْ تُظْهَرَ حَيَاةُ يَسُوعَ أَيْضًا فِي جَسَدِنَا» (٢ كورنثوس ٤: ٨-١٠).

يقول الرسول إنه كان «مُكتئبًا في كل شيء (أو مضغوطًا عليه من كلِّ جانب)، لكن غير متضايق (أو غير محطَّم)». فهو لم يحاول إخفاء ألمه وراء قناع من التقوى المُصطَنَعة. ليس المسيحي شخصًا رواقيًّا متحجِّر المشاعر.[1] كما أنه لا يعيش في عالم من محض الخيال ينكر حقيقة الألم. فقد أقرَّ بولس بكلِّ صراحة بالضغوط التي كان يمرُّ بها.

نعلم جميعًا معنى أن تحيط بنا الضغوط من كلِّ جانب. فإننا نستخدم كلمة **ضغوط** كثيرًا لوصف أوقات التوتر التي نمر بها في حياتنا. فقد تتراكم مشكلات في العمل، وفي علاقاتنا الزوجية، وعلاقاتنا مع الآخرين، وتهاجم أرواحنا. وإن أضفنا إلى هذه الضغوط اليومية حادثة وفاة مأساوية لأحد أحبائنا، أو ضيقًا ناجمًا عن مرض طويل الأمد، نشعر حينئذٍ أكثر فأكثر بمعنى أن تحيط بنا الضغوط من كلِّ جانب («مُكْتَئِبِينَ فِي كُلِّ شَيْءٍ»).

يشبه الشعور بالضغط من كلِّ جانب حالة سيارات قديمة نُقِلت إلى مستودعات الخردة، حتى توضع في آلة ضغط المعادن. فأن نكون مضغوطين من كلِّ جانب (أو «مُكْتَئِبِينَ فِي كُلِّ شَيْءٍ») يعني أن نشعر بوزن ثقيل يهدِّد بسحقنا.

حين نختبر كسرة قلب قاسية، ربما نقول إننا محطَّمون! لكن

[1] المترجم: الرواقي هو شخصٌ ينتمي إلى المذهب الفلسفي الذي أسَّسه زينون، والذي يقول إن الفضيلة الكبرى والحكمة هي أن يتحرَّر الإنسان من العواطف والمشاعر ولا يأبه بالمؤثِّراتِ الحِسِّيَّة.

هـذه حتـمًا صيغـة مبالغـة. فقـد نشـعر بأننـا محطَّمـون، بـل وقـد نقـترب مـن أن نُحطَّـم؛ لكـن، أدلى الرسـول بتصريـح جـريء، ألا وهـو أننـا في حقيقـة الأمـر لا نُحطَّـم («غَـيْرَ مُتَضَايِقِـينَ»).

نتحـدَّث أحيانًـا عـن «القشـة التـي قصمـت ظهـر البعـير». سـمعتُ هـذا التعبـير قبـلًا في أثنـاء حضـوري تجمُّـعWeight Watchers.[٢] وفي الاجتـماع التعريفـي الأول، تسـلَّم كلُّ مشـارك منـا عـدة أشـياء، منهـا دليـل غـذائي، وجـدول يومـي لتدويـن مقـدار اسـتهلاك الطعـام، وكُتيِّـب للتمرينـات، وقصبـة للـشرب. وقـرب ختـام الاجتـماع، وبعـد انتهـاء التنبيهـات المتعلقـة بالبرنامـج، طرحـت المدرِّبـة هـذا السـؤال: «مـا هـو الـشيء الـذي دفعـك إلى اتخـاذ قـرار الانضـمام إلى Weight Watchers؟» تطـوَّع العديـد مـن أعضـاء المجموعـة بالإجابـة، وكان لـدى كلُّ واحـد سـبب يختلـف عـن الآخـر. بعضهـم شـاهد نفسـه في صـور فوتوغرافيَّـة التُقِطـت مؤخـرًا، ولم يحتمـل المنظـر؛ وبعضهـم اضطـر لـشراء ملابـس أكـبر مـن قياسـه المعتـاد؛ وآخـرون طلـب منهـم أطباؤهـم خسـارة بعـض الـوزن. عقـب هـذه المناقشـة، رفعـت المدربـة قصبـة الـشرب عاليًـا، وقالـت: «هـذه القصبـة تُمثِّـل سـبب اتخاذكـم القـرار بالانضـمام إلى هـذا البرنامـج. اصطحبوهـا معكـم إلى المنـزل، وضعوهـا في مـكان ظاهـر، أو ألصقوهـا عـلى الـبراد. وحـين تخـور رغبتكـم في فقـدان الـوزن، انظـروا إليهـا، ودعوهـا تُذَكِّركـم بالسـبب الـذي أتى بكـم إلى هنـا».

أشـك أن جمـلًا قـد انقصـم ظهـره قبـلًا مـن جـراء قشـة. يعـود أصـل هـذه الصـورة البلاغيـة إلى ثقافـة الـشرق الأوسـط، حيـث كانـت الجـمال تُسـتخدَم كوسـيلة لنقـل البضائـع والأحـمال. كان الجمـل يحمـل القـش أو التـبن الناتـج عـن الحصـاد. قطعًـا، هنـاك حـد لـوزن القـش الـذي

[٢] ورش عمل ولقاءات تتعلق بشؤون الحفاظ على الوزن وتناوُل الطعام الصحي، وما إلى ذلك.

يستطيع الجمل حَمله. فلكل جمل حدٌّ لا يمكن تعديه وإلا سقط وانهار. وربما تُمثِّل قشة واحدة الفرق بين الحمل الذي يُمكن احتماله وذاك الذي يقصم الظهر.

لستُ أعلم قدر القش الذي يستطيع الجمل حَمله، وكذلك، لستُ أعلم مدى ثقل الحمل الذي يمكنني حمله. لكن، نميل جميعًا إلى افتراض أننا نستطيع حمل قدر أقل بكثير مما يمكننا حمله بالفعل.

«حِمْلِي خَفِيفٌ»

في بعض الفترات من حياتي، تفوَّهتُ بصلوات حمقاء. فحين كنت أشعر بالضغوط تحيط بي من كلِّ جانب، كنتُ أصرخ إلى الله قائلًا: «يكفي هذا القدر، يا رب. لن أستطيع مواجهة نكسة أخرى. قشة أخرى وينتهي أمري». ويبدو أنني كلما صليتُ هكذا، كان الله يضع فوق كاهلي حِملًا جديدًا. بدا الأمر كما لو أنه يُجيب على صلاتي قائلًا: «لستَ أنت من سيُعرِّفني القدر الذي تستطيع احتماله».

يعرف الله حدود قدراتنا أكثر كثيراً مما نعرفها نحن. فمن ناحية، نحن أشبه كثيراً بالجمال. فحين تَثقُل أحمال الجمل، لا يطلب من سيده ألا يضع المزيد، بل فقط ترتعش ركبتاه قليلًا، ويئن تحت وطأة الثقل، لكنه مع ذلك يتمكَّن من حمل المزيد دون أن ينقصم ظهره. لم يَعِدنا الله بألا يضع فوقنا حملًا أكثر مما نريد أن نحمل، بل وعدنا بألا يضع فوق كاهلنا حملًا يفوق ما **نستطيع** أن نحتمل.

لاحظ معي في النص أعلاه أن بولس لم يقل «مُكتئبين **بعض الشيء**»، بل «مُكْتَئِبِينَ **فِي كُلِّ شَيْءٍ**». للوهلة الأولى، تبدو هذه الكلمات وكأنها في تناقُض مباشر مع وعود المسيح. فقد قال يسوع: «تَعَالَوْا إِلَيَّ يا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الْأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ. اِحْمِلُوا نِيرِي

عَلَيْكُمْ وَتَعَلَّمُوا مِنِّي، لِأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ الْقَلْبِ، فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنُفُوسِكُمْ. لِأَنَّ نِيرِي هَيِّنٌ وَحِمْلِي خَفِيفٌ» (متى ١١: ٢٨-٣٠).

لا يبدو لي دائمًا أن الحِمل الذي يضعه علينا المسيح خفيفٌ. يكاد يُخيَّل لي من هذه الكلمات أن يسوع يحاول اجتذابنا إليه بكلمات خادعة. ليس هذا صحيحًا، فإن كلامه هو حق. فهو **حقًّا** يُريح ثقيلي الأحمال. لكن اللفظان **هَيِّنٌ**، **وَخَفِيفٌ** هما نسبيَّان. تُقارَن كلمة «**هَيِّنٌ**» بمقياس من الصعوبة، في حين تُقارَن كلمة «**خَفِيفٌ**» بمقياس من الثقل. يعني ذلك أن ما يَصعُب حمله دون المسيح، يصير معه هيِّنًا إلى حد كبير؛ وأن الثقل الذي يستحيل أن نحمله بمفردنا، يصير بمساندته أخفَّ بكثير.

فإن وجود المسيح معنا، ومساندته لنا في أوقات المعاناة هو بالتحديد ما يُمكِّننا من الثبات تحت الضغوط. فبفضل المسيح، استطاع بولس أن يقول في نبرة من الغلبة إنه على الرغم من شعوره بالضغط الشديد، لم يتحطَّم. ربما نشعر وكأننا سيارات خردة داخل آلة ضغط المعادن، لكن، يُمثِّل المسيح درعًا يمنع الضغط الواقع علينا من أن يحطِّمنا تمامًا.

فإن تألَّمنا دون المسيح، نخاطر بالتعرُّض للسحق التام. كثيرًا ما تساءلتُ كيف يتمكَّن البشر من مواجهة ضيقات الحياة دون القوة الكامنة في المسيح. فإن وجوده معنا ومساندته لنا أمران حيويان وأساسيَّان، حتى أنني لا أندهش باتهام غير المؤمنين للمسيحيِّين الحقيقيِّين بأنهم يستعملون الدين كعُكَّاز. نتذكَّر جميعًا اتهام كارل ماركس بأن «الدين هو أفيون الشعوب»، حيث استخدم تشبيه الأفيون بالذات لأنه مخدر يُستخدَم في تسكين الألم، وإخفاء آثاره. قال آخرون أيضًا إن الدين هو المهدئ الذي يتناوله الضعفاء في أوقات الشِّدة.

خضعتُ، منذ عدة سنوات، لجراحة في ركبتي. وفي أثناء فترة التعافي، كنت أستخدم عكازين، لأنني كنت بحاجة إليهما. كذلك، حين دخلتُ قبل بضعة سنوات إلى المستشفى للخضوع لجراحة أخرى، أُعطيتُ عقب الجراحة أدوية مُسكِّنة للألم، كنت أتناولها كل أربع ساعات. أتذكر جيدًا أنني كنتُ أراقب عقارب الساعة، منتظرًا في تلهُّف انتهاء الساعات الأربعة، حتى أضغط على زر استدعاء الممرضة كي تعطيني الجرعة التالية من الدواء. كنت ممتنًّا بشدة لأجل هذه الأدوية المسكنة، بقدر امتناني لأجل عكازي.

لكنني مُمتن أكثر كثيرًا للمسيح. فإن طلبي مساعدته في وقت الضيق ليس بالأمر المخجل. فهو يُسَرُّ بأن يعتني بنا في وقت ألمنا. ليست رحمة الله للمنكوبين والذين هم في ضيق بالأمر المخجل. فهو يترأف كأب على بنيه، ويتحرك كي يعزِّيهم في ألمهم. ليس التألُّم دون تعزية الله بالشيء الصالح، وكذلك، ليس الاتكال على تعزية الله بالشيء الطالح. وهذا هو نقيض كلام كارل ماركس.

أدهَشَني الألم

أضاف بولس: «مُتَحَيِّرِينَ، لَكِنْ غَيْرَ يَائِسِينَ». عادةً ما يكون الألم مصحوبًا بالحيرة. فحين يضربنا مرض أو حُزن، يصيبنا هذا عادةً بالارتباك والتشويش. والسؤال الأول الذي نطرحه هو: «لماذا؟» وأيضًا: «كيف يسمح الله بحدوث هذا لي؟»

أتذكر جيدًا قصة أب ثائر، كان يشعر بالحزن الشديد على وفاة ابنه، فذهب لمقابلة راعي كنيسته. وفي خضم غضبه المرتبك والمُشوَّش سأل: «أين كان الله حين مات ابني؟» حينئذٍ أجابه الراعي بهدوء: «في الموضع نفسه الذي كان فيه حين مات ابنه».

هناك عنصر من المفاجأة متصلٌ بالألم. فإننا نتعلَّم منذ وقت

مبكِّر من حياتنا أن الألم جزء من الحياة، لكن، عادةً ما تكون عملية التعلُّم هذه تدريجية. أستمتع كثيرًا بأسلوب تعامُل حفيدي، ذي الأعوام الثلاثة، مع الألم. فحين يؤلمه شيء، يقول: «بابا، بابا، لديَّ آه»، مستخدمًا كلمة «آه» كاسمٍ. وإذا كانت هذه «آه» طفيفة، تتولَّى أمرها قبلة صغيرة؛ أما إذا كانت أشد وطأة، يطلب «ضمادة لاصقة».

غالبية أمراض وكدمات الطفولة تكون بسيطة. فحين يُصاب طفلٌ بفيروس معوي، لا ينتابه القلق عادةً حيال مرض السرطان. فهو يتعلَّم بالخبرة أن اضطرابات أمراض الطفولة سرعان ما تمضي. لكننا، كبالغين، نتقدَّم إلى مستوى أبعد من المرض والألم. ومع أننا مررنا بمراحل من الإعداد، لكننا لا نكون مستعدين البتَّة حين نُصاب بمرض أشد وطأة.

أتذكَّر المرة الأولى التي دخلت فيها ابنتي إلى المستشفى. كانت في السادسة من عمرها، وكان لا بد أن تخضع لجراحة لاستئصال اللوزتين. وبصفتنا والديها، قمنا بجميع الخطوات اللازمة لإعدادها وحمايتها مما هو آتٍ. فقد قرأنا لها كتبًا للأطفال عن الذهاب إلى المستشفى، وأكَّدنا لها أنها ستتمكن، بعد الجراحة، من تناول مُثلَّجاتها المفضَّلة.

كانت الرحلة إلى المستشفى بمثابة مغامرة. وكان قسم الأطفال في المستشفى مزيَّنًا بألوان برَّاقة. وقد قامت الممرضات بتسلية ابنتنا وشركائها في الغرفة بلعب الأطفال. أدَّى ذلك إلى ارتفاع معنوياتها، وبلغ خوفها أدنى درجاته.

ثم أُخِذت الفتيات إلى غرفة العمليات، وانتظرنا عودتهن من غرفة الإفاقة. لن أنسى أبدًا نظرة ابنتي إليَّ عقب إفاقتها. كان منظرها يُرثَى له. فقد كانت هناك دماء جافة متخثِّرة على حافة شفتيها، وكان وجهها شاحبًا. لكن الشيء الأكثر إيلامًا من هذا هو نظرتها إليَّ المليئة بالخوف، والصدمة، والشعور بالخيانة. فقد كانت

في ذلك الوقت تقاسي مستوى جديدًا من الألم. بدا الأمر كما لو أنها تقول لي: «كيف أمكنك فعل هذا بي؟ كنت تعرف أن الأمر سيكون هكذا، لكنك كذبت عليَّ». كانت المثلَّجات في تلك اللحظة هي آخر اهتماماتها. فقد أدهشها ألمها، لأنه لم يكن كما توقعته.

أنا على يقين من أنَّ الأسئلة عينها التي ساورت ابنتي بشأني هي التي تسارونا بشأن أبينا السماوي حين نُصعَق بألم مفاجئ. فنظير ابنتي، عادةً ما تصيبنا الدهشة لأن الله سمح بأن تأتي علينا محنة قاسية. لا تنبع هذه الدهشة ممَّا يقودنا الله إلى أن نؤمن به، بل ممَّا نسمعه من المعلِّمين المضلِّلين. فإن ذلك الواعظ المتحمس الذي يَعِدنا بحياة خالية من الألم قد استمدَّ رسالته من مصدر آخر غير الكتاب المقدس.

ففي حقيقة الأمر، يحثُّنا الكتاب المقدس على ألا نعتبر تألُّمنا شيئًا غريبًا أو غير معتاد. فقد كتب بطرس: «أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، لاَ تَسْتَغْرِبُوا الْبَلْوَى الْمُحْرِقَةَ الَّتِي بَيْنَكُمْ حَادِثَةٌ، لِأَجْلِ امْتِحَانِكُمْ، كَأَنَّهُ أَصَابَكُمْ أَمْرٌ غَرِيبٌ، بَلْ كَمَا اشْتَرَكْتُمْ فِي آلاَمِ الْمَسِيحِ، افْرَحُوا لِكَيْ تَفْرَحُوا فِي اسْتِعْلاَنِ مَجْدِهِ أَيْضًا مُبْتَهِجِينَ» (١ بطرس ٤: ١٢-١٣). تُردِّد هذه الكلمات صدى تصريح بولس عن تكميل «نَقَائِصَ شَدَائِدِ الْمَسِيحِ» (كولوسي ١: ٢٤)، ذلك التصريح الغريب الذي سنتناوله بمزيد من التفصيل والتمعُّن في الفصل التالي.

ثم أضاف بطرس هذه الكلمات: «فَلاَ يَتَأَلَّمْ أَحَدُكُمْ كَقَاتِلٍ، أَوْ سَارِقٍ، أَوْ فَاعِلِ شَرٍّ، أَوْ مُتَدَاخِلٍ فِي أُمُورِ غَيْرِهِ. وَلَكِنْ إِنْ كَانَ كَمَسِيحِيٍّ، فَلاَ يَخْجَلْ، بَلْ يُمَجِّدُ اللهَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ» (١ بطرس ٤: ١٥-١٦). قد يحزن المجرم أو يتضايق حين يتألم بسبب جريمته، لكن، ما من سبب يدعوه إلى أن يتحيَّر. فليس بالأمر المفاجئ أو المثير للدهشة

أن يكون العقاب عاقبة حتميَّة للجريمة. بل إن هذا النوع من الألم عادةً ما يكون مصحوبًا بالخزي.

لكن، لا يحمل التألُّم كمسيحي أيَّ نوع من الخزي. فقد ختم بطرس حديثه قائلًا: «فَإِذًا، الَّذِينَ يَتَأَلَّمُونَ بِحَسَبِ مَشِيئَةِ اللهِ، فَلْيَسْتَوْدِعُوا أَنْفُسَهُمْ، كَمَا لِخَالِقٍ أَمِينٍ، فِي عَمَلِ الْخَيْرِ» (١ بطرس ٤: ١٩). بدَّد بطرس هنا أيَّ شك يراودنا في كون الألم هو من الأساس مشيئة الله أم لا، إذ تحدث عن الذين يتألمون «بِحَسَبِ مَشِيئَةِ اللهِ». يعني هذا النص إذن أن الألم هو في حد ذاته جزء من مشيئة الله السياديَّة.

وفي أوائل هذه الرسالة، تحدَّث بطرس عن ثمار آلامنا، قائلًا:

> الَّذِي بِهِ تَبْتَهِجُونَ، مَعَ أَنَّكُمُ الآنَ-إِنْ كَانَ يَجِبُ-تُحْزَنُونَ يَسِيراً بِتَجَارِبَ مُتَنَوِّعَةٍ، كَيْ تَكُونَ تَزْكِيَةُ إِيمَانِكُمْ، وَهِيَ أَثْمَنُ مِنَ الذَّهَبِ الْفَانِي، مَعَ أَنَّهُ يُمْتَحَنُ بِالنَّارِ، تُوجَدُ لِلْمَدْحِ وَالْكَرَامَةِ وَالْمَجْدِ عِنْدَ اسْتِعْلَانِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي وَإِنْ لَمْ تَرَوْهُ تُحِبُّونَهُ. ذَلِكَ وَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَرَوْنَهُ الآنَ لَكِنْ تُؤْمِنُونَ بِهِ، فَتَبْتَهِجُونَ بِفَرَحٍ لَا يُنْطَقُ بِهِ وَمَجِيدٍ، نَائِلِينَ غَايَةَ إِيمَانِكُمْ خَلَاصَ النُّفُوسِ. (١ بطرس ١: ٦-٩)

يوضِّح لنا هذا النص كيف يمكن أن نتحيَّر، لكن لا نيأس. فهناك غرضٌ لألمنا، لأنه يساعدنا على بلوغ غاية إيماننا، التي هي خلاص نفوسنا. فإن الألم بوتقة. وكما يُصفَّى الذهب بالنار، ويُنقَّى من النفايات والشوائب، هكذا إيماننا أيضًا يُمتحَن بالنار. الذهب يفنى، لكن أرواحنا لن تفنى. وحين نختبر الألم والحزن لفترة من الوقت، وندخل في هذه النيران، حينئذٍ تهاجمنا الحيرة.

لكن للنار وجه آخر فحين تحترق النفايات، تتنقَّى أصالة إيماننا لأجل خلاص نفوسنا.

اليأس والرغبة في الموت

حين ننظر إلى الألم على أنه بلا مغزى - أي بلا هدف - حينئذٍ نُجرَّب باليأس. تتمكَّن المرأة التي تعاني من مخاض الولادة من اجتياز هذا الألم لأنها تعلم أن النتيجة النهائية ستكون حياة جديدة. في المقابل، لا يتحلَّى جميع الذين يعانون من أمراض في مراحلها الأخيرة بهذا الرجاء عينه في ناتج نهائي جيد. فإذا كان الموت هو النهاية، سيقودنا الألم المؤدي إليه حتمًا إلى يأس تام.

لكن، تقول رسالة المسيح إن الموت لا يؤدي إلى موت بل إلى حياة. ومن ثَمَّ، ينطبق تشبيه الولادة على الموت أيضًا. وفي حقيقة الأمر، استُخدِم هذا التشبيه بالفعل لوصف آلام المسيح، وآلام الخليقة ككلٍّ. كتب إشعياء: «مِنْ تَعَبِ [جاءت الكلمة هنا بمعنى «أوجاع المخاض»] نَفْسِهِ يَرَى وَيَشْبَعُ» (إشعياء ٥٣: ١١). كما قال بولس: «فَإِنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الْخَلِيقَةِ تَئِنُّ وَتَتَمَخَّضُ مَعًا إِلَى الآنَ. وَلَيْسَ هَكَذَا فَقَطْ، بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ لَنَا بَاكُورَةُ الرُّوحِ، نَحْنُ أَنْفُسُنَا أَيْضًا نَئِنُّ فِي أَنْفُسِنَا، مُتَوَقِّعِينَ التَّبَنِّيَ فِدَاءَ أَجْسَادِنَا» (رومية ٨: ٢٢-٢٣).

ربما نتحيَّر، لكن ينبغي ألا نيأس. من شأن معاناتنا للألم في حد ذاتها أن تدفعنا إلى اليأس، لو لم نكن على قناعة ويقين بالفداء الذي ينتظرنا.

لكن، حتى ذلك الفداء نفسه لا يكفي دائمًا لمنعنا من الاقتراب إلى حافة اليأس. يُظهِر الكتاب المقدس مرارًا صراعات أعظم القديسين مع مشكلة اليأس. فقد لعنت أكثر من شخصيَّة كتابيَّة يوم مولدها، وتوسَّلت طالبة الموت لنفسها.

واجه موسى ظلمة النفس الحالكة وكآبتها، حين صرخ إلى الله قائلًا: «فَإِنْ كُنْتَ تَفْعَلُ بِي هَكَذَا، فَاقْتُلْنِي قَتْلًا إِنْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ، فَلَا أَرَى بَلِيَّتِي» (العدد ١١: ١٥). كذلك، لعن أيوب يوم مولده قائلًا: «لِمَ لَمْ أَمُتْ مِنَ الرَّحِمِ؟ عِنْدَمَا خَرَجْتُ مِنَ الْبَطْنِ، لِمَ لَمْ أُسْلِمِ الرُّوحَ؟ لِمَاذَا أَعَانَتْنِي الرُّكَبُ، وَلِمَ الثُّدِيُّ حَتَّى أَرْضَعَ؟ لِأَنِّي قَدْ كُنْتُ الْآنَ مُضْطَجِعًا سَاكِنًا. حِينَئِذٍ كُنْتُ نِمْتُ مُسْتَرِيحًا» (أيوب ٣: ١١-١٣). عبَّر إرميا أيضًا عن هذه المشاعر نفسها حين قال: «مَلْعُونٌ الْيَوْمُ الَّذِي وُلِدْتُ فِيهِ! الْيَوْمُ الَّذِي وَلَدَتْنِي فِيهِ أُمِّي لَا يَكُنْ مُبَارَكًا! مَلْعُونٌ الْإِنْسَانُ الَّذِي بَشَّرَ أَبِي قَائِلًا: «قَدْ وُلِدَ لَكَ ابْنٌ» مُفَرِّحًا إِيَّاهُ فَرَحًا ... لِمَاذَا خَرَجْتُ مِنَ الرَّحِمِ، لِأَرَى تَعَبًا وَحُزْنًا فَتَفْنَى بِالْخِزْيِ أَيَّامِي؟» (إرميا ٢٠: ١٤-١٥، ١٨).

وحين يطول أمد الألم، نُدفع إلى أسافل أعماق اليأس. قال الفيلسوف الدنماركي سورين كيركجارد (Soren Kierkegaard) ذات مرة إنه من أسوأ الأشياء التي قد يواجهها المرء هي أن يرغب في الموت ولا يُسمَح له. وقد التقيتُ شخصيًا بأُناسٍ يعانون من هذه الحالة. كما قال لي الكثير من كبار السن: «أتمنى أن يأخذني الرب. لماذا يُطيل في عمري؟»

الموت في كرامة

تَكمُن الرغبة الشديدة في التحرُّر من الألم وراء قضية القتل الرحيم، حيث يُقال إننا نبدي رحمة وإنسانية تجاه الحيوانات أكثر من البشر. فنحن نطلق الرصاص على الخيول، وننهي حياة الكلاب، لكننا نُطيل حياة البشر لأطول فترة مُمكنة.

عبر التاريخ، اتَّبعت كلٌّ من الكنيسة ومهنة الطب (تقيُّدًا بقَسَم أبقراط) المبدأ القائل إننا ينبغي أن نفعل كل ما في استطاعتنا للحفاظ

على حياة الإنسان. لكن، مع ظهور التقنيات الحديثة، صار من الممكن إبقاء البشر على قيد الحياة، من الناحية التقنية، مع غياب أيِّ أمل محتمَل في تعافيهم. وعليه، فقد أثارت التكنولوجيا الحديثة العديد من المعضلات الأخلاقية من جهة مسألة الموت والاحتضار.

يتحتم علينا أن نقول إن الله لا يصرِّح لنا بالانتحار. فالانتحار، في معناه الكامل، مرتبطٌ بالاستسلام لليأس. (هذا لا يعني أن الانتحار هو الخطية التي لا تُغتَفَر. ينتحر الناس لأسباب شتَّى، وفي ظروف متنوِّعة. لسنا نعرف بالحقيقة الحالة العقلية التي يكون عليها مَن يُقدِمون على هذا الفعل. ومن ثَمَّ، فإننا نترك مسألة تقرير مصير ضحايا الانتحار لرحمة الله). فبغض النظر عن مدى تعقيدات الألم، نحن نعلم أننا لم نُعطَ الانتحار كخيارٍ.

وفي ذلك الجدل الدائر حول موضوع القتل الرحيم، تُجرَى تفرقة بين القتل الرحيم **الإيجابي**، والقتل الرحيم **السلبي**. يتعلَّق القتل الرحيم الإيجابي باتخاذ خطوات مباشرة لقتل شخص متألم، منها إجراءات من قبيل الحقن بمادة قاتلة. وببساطة، ينطوي القتل الرحيم السلبي على إيقاف عمل الأجهزة غير الطبيعية التي تحافظ على استمرار عمل وظائف الجسم. يُعرَف القتل الرحيم السلبي أحيانًا باسم «سحب القابس»، أو «السماح للطبيعة أن تأخذ مجراها». وهنا تحتل مسألة الموت في كرامة الأهميَّة القُصوى.

طُلب مني، ذات مرة، إلقاء كلمة في تجمُّع من ثمانمائة طبيب بشأن قضية «سحب القابس». كان هؤلاء الأطباء على دراية تامة بحلول تلك المشكلات من قبيل: «كيف ينبغي سحب القابس؟» و«مَن هو الذي ينبغي أن يسحبه؟» و«متى ينبغي سحبه؟»

حين نضع في اعتبارنا الوسائل المختلفة التي يمكن بها الإبقاء، على

الحياة، عن طريق عوامل خارجيَّة، يتضح لنا أن هناك طرقًا كثيرة يمكن بها «سحب القابس». فمن الممكن إزالة الأنابيب الوريدية، تاركين الشخص محرومًا من الغذاء حتى الموت. كما يمكن إطفاء أجهزة التنفس الاصطناعي. كذلك، يمكن وقف الأدوية. وحين تُتَّخذ هذه الخطوات، سرعان ما يصير الحد الفاصل بين ما يسمَّى بالقتل الرحيم الإيجابي والقتل الرحيم السلبي غير واضح المعالم. كذلك، لا يوجد فرق واضح دائمًا بين الوسائل **الطبيعيَّة وغير الطبيعيَّة** للإبقاء على الحياة. فإن الوسائل التي كانت بالأمس غير طبيعيَّة أصبحت اليوم طبيعيَّة وعادية.

تتعقد المشكلة أكثر فأكثر حين نسأل «مَن» ينبغي أن يتخذ هذا القرار. قطعًا، لا يرغب الطبيب في أن يلعب دور الله. وربما تتحطَّم العائلة من جراء شعورها بالذنب المُلازم لاتخاذها هذا القرار. وما من راعي كنيسة يرى نفسه أهلًا لتولِّي هذه المهمة. وكم من المُخيف ترك المسألة في يد رجال القانون. ومع ذلك، ينبغي أن تُتَّخذ يوميًّا قرارات بشأن هذه المسائل في المستشفيات في كلِّ أرجاء العالم. وعدم اتخاذ قرار هو في حد ذاته قرار.

ليست لديَّ كافة الحلول لهذه المعضلة، لكنني مُتيقن من أمرين: الأول هو أنه ينبغي اتخاذ قرار في هذا الشأن في ضوء المبدأ العام المتعلِّق بقدسية حياة الإنسان. علينا أن نبذل قصارى جهدنا لضمان الحفاظ على حياة الإنسان. وإن أخطأنا، فمن الأفضل أن نخطئ لصالح الحياة، بدلًا من أن ننقص من قدرها بأية وسيلة كانت. الأمر الثاني هو أن القرار لا بد أن يتضمن ثلاثة أطراف، على الأقل، وربما أربعة، وهم: الأطباء، والعائلة، ورجال الدين، وإن أمكن، المريض نفسه.

تُمثِّل هذه القضيَّة جزءًا من الحيرة المُصاحبة للألم. لكن، ينبغي، ألا تُتخذ هذه القرارات من منظور يائس، مهما كان الثمن.

وعلينا، طوال الوقت، أن نضع غاية الخلاص في اعتبارنا، لئلا يبتلع اليأس رجاءنا.

وكما ذكرتُ أعلاه، الوسيلة الوحيدة لتجنُّب اليأس هي أن نضع إيماننا في الرب يسوع المسيح من جهة الخلاص الذي يقدِّمه الله. أجمل داود الأمر بقوله: «لَوْلَا أَنَّنِي آمَنْتُ بِأَنْ أَرَى جُودَ الرَّبِّ فِي أَرْضِ الْأَحْيَاءِ [لكان اليأس قد تملَّك مني]» (مزمور ٢٧: ١٣). كذلك، كتب الرسول بولس في الرسالة عينها التي قال فيها «مُتَحَيِّرِينَ، لَكِنْ غَيْرَ يَائِسِينَ» هذه الكلمات:

> فَإِنَّنَا لَا نُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ مِنْ جِهَةِ ضِيقَتِنَا الَّتِي أَصَابَتْنَا فِي أَسِيَّا، أَنَّنَا تَثَقَّلْنَا جِدًّا فَوْقَ الطَّاقَةِ، حَتَّى أَيِسْنَا مِنَ الْحَيَاةِ أَيْضًا، لَكِنْ كَانَ لَنَا فِي أَنْفُسِنَا حُكْمُ الْمَوْتِ، لِكَيْ لَا نَكُونَ مُتَّكِلِينَ عَلَى أَنْفُسِنَا بَلْ عَلَى اللهِ الَّذِي يُقِيمُ الْأَمْوَاتَ، الَّذِي نَجَّانَا مِنْ مَوْتٍ مِثْلِ هَذَا، وَهُوَ يُنَجِّي. الَّذِي لَنَا رَجَاءٌ فِيهِ أَنَّهُ سَيُنَجِّي أَيْضًا فِيمَا بَعْدُ. (٢ كورنثوس ١: ٨-١٠)

دخل بولس في حالة من اليأس، لكن، كان يأسه هذا محدودًا، وليس كاملًا. فقد أصابه اليأس من حياته الأرضيَّة، وكان على يقين بأنه سيموت، لكنه لم ييأس من نجاته من الموت في النهاية. فقد كان يعلم جيدًا وعد المسيح بالغلبة على الموت.

الفصل الثاني

السير في درب الآلام

«وَابْتَدَأَ يَحْزَنُ وَيَكْتَئِبُ»
متى ٢٦: ٣٧

غمر الحزن والاكتئاب أعماق روح يسوع حينما ابتدأ يصلِّي في بستان جثسيماني. كانت هذه لحظة من الكرب والعذاب الشديد بالنسبة له. فقد كان يقترب من ذروة آلامه العظيمة، التي كانت تُمثِّل لُبَّ تكليفه الإلهي، أو دعوته. لم يَدعُ الله أحدًا قط إلى أن يقاسي آلامًا أشد من تلك التي دعا ابنه الوحيد إليها.

كان مخلِّصنا مخلِّصًا متألمًا. فقد تقدَّمنا إلى أرض الضيق والموت المجهولة، وذهب إلى حيث لا يمكن لأيِّ إنسان آخر أن يذهب. فقد أعطاه الآب كأسًا ليشربها لن تمسَّ شفاهنا البتَّة. فهو لن يطلب

منا أن نقاسي شيئًا شبيهًا بذلك الاكتئاب الذي أخذه المسيح على عاتقه. فسيظل أيُّ مكان يدعونا الله أن نذهب إليه، وأي ألم يدعونا أن نقاسيه ونحتمله، أهون كثيرًا ممَّا اجتاز فيه يسوع.

كان يسوع على وعيٍ بمهمته منذ بداية خدمته. فقد كان يعلم أنه تحت حُكم الموت، وأن «مرضه» كان مُميتًا. وفوق الصليب، لم يضربه الآب بمرض مُميت واحد، بل بجميع الأمراض المُميتة الموجودة. لا يعني هذا بالتأكيد أن يسوع استلم تقرير فحص أنسجة إيجابيًّا، أو أن طبيبًا ما شخَّص إصابته بمرحلة متقدِّمة من مرض البرص. بل قد توجَّه يسوع صوب موته دون أيِّ دليل ظاهري على إصابته بأيِّ مرض معروف. إلا أن الآلام المتراكمة لجميع الأمراض قد وُضِعت عليه. فقد حمل في جسده خراب كلِّ شر، وكلِّ مرض، وكلِّ ألم عرفه الجنس البشري.

تألم يسوع آلامًا شديدة لأن الشرَّ في العالم كان قد وصل إلى حدٍّ كبير جدًا. وقد وُضِعت عليه عاقبة كلِّ خطية ارتكبها كلُّ واحد من شعبه. وكانت دعوته تقتضي أن يحمل هذا العبء المخيف، ومهمته تستلزم أن يحمل هذا الألم والمرض. تفوق شدة هذا الهول إدراكنا، لكن يسوع كان يدركه جيدًا لأنه كان ينبغي أن يحمله.

قاسى يسوع الآلام حتى يفتدي شعبه. لكن، لا يُعفَى أولئك الذين افتداهم من كلِّ ألم وشقاء. بل، كما سنرى لاحقًا، نحن، شعبه، مدعوون إلى الاشتراك في آلامه.

عار مسيحٍ مُتألِّم

لم تكن فكرة مجيء ابن الله في الجسد وتألُّمه واردة لدى كثيرين من معاصريه. فإن الخبر المخزي للعهد الجديد هو أن الله تجسَّد، وأن كلمة الله الأزلي صار جسدًا، وكان جسده هذا عرضة لأيِّ عذاب مادي.

تبنَّى اليونانيون مفهومًا روحانيًّا وساميًا للغاية عن الله، لدرجة أنهم لم يفسحوا في أذهانهم ولو مجالًا صغيرًا لمفهوم التجسُّد. فبحسب وجهة نظرهم، يستحيل أن تكون لله أدنى صلة بأي ألم مادي، لأن الله ببساطة لا يمكن أن يكون له دخل بأي شيء مادي.

أما اليهود، فقد قبلوا فكرة ظهور الله في هيئة بشريَّة، لكن، كان تعرُّض الله الإنسان للألم أمرًا يفوق إدراكهم.

كانت لحظة أروع إقرار إيمان نطق به بُطرس في قيصرية فيلبس متبوعة بواحدٍ من أعنف التوبيخات التي سمعها يومًا من يسوع. بدأ كلُّ هذا حين أجاب بطرس على سؤال يسوع لهم «وَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟» (متى ١٦: ١٥) قائلًا: «أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ!» (متى ١٦: ١٦).

وبسبب هذا الجواب، طُوِّب بطرس من يسوع، حين قال له: «طُوبَى لَكَ يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا، إِنَّ لَحْمًا وَدَمًا لَمْ يُعْلِنْ لَكَ، لَكِنَّ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. وَأَنَا أَقُولُ لَكَ أَيْضًا: أَنْتَ بُطْرُسُ، وَعَلَى هَذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي، وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا» (متى ١٦: ١٧-١٨). أيَّ ثناء يمكن لإنسان أن يتلقَّاه أسمى من ذلك التطويب الصادر من فم المسيح نفسه؟

لكن، بعد بضع لحظات، تلقَّى هذا الرجل نفسه توبيخًا لاذعًا وقاسيًا من يسوع، إذ قال له: «اذْهَبْ عَنِّي يَا شَيْطَانُ! أَنْتَ مَعْثَرَةٌ لِي، لِأَنَّكَ لَا تَهْتَمُّ بِمَا لِلهِ لَكِنْ بِمَا لِلنَّاسِ» (متى ١٦: ٢٣).

لم توجَّه هذه الكلمات إلى الشيطانَ، بل إلى بطرس. انقلب الحوار هنا سريعًا. ففي لحظة، طوَّب يسوع بطرس، ثم في اللحظة التالية دعاه «شيطان». كيف يمكننا تفسير هذا التحوُّل المُفاجئ في النبرة والألفاظ؟ لم يكن يسوع يميل إلى القسوة غير المُبرَّرة في تعامله مع

الناس، كما لم يكن له وجهان، يمتدح بالواحد، ثم يلعن بالآخر.

ينبغي أن نفهم هذا التحوُّل في مجرى الحديث في ضوء المُدة الفاصلة بين الثناء والتوبيخ. احتوت هذه المدة الفاصلة على حديثٍ دار بين بطرس ويسوع يخص ألمه: «مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ ابْتَدَأَ يَسُوعُ يُظْهِرُ لِتَلَامِيذِهِ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَذْهَبَ إِلَى أُورُشَلِيمَ وَيَتَأَلَّمَ كَثِيراً مِنَ الشُّيُوخِ وَرُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةِ، وَيُقْتَلَ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَقُومَ» (متى ١٦: ٢١).

من الملاحَظ هنا أن يسوع كان يوضح أنه **ينبغي** أن يتألم ويموت. فلم تكن رحلته إلى أورشليم اختيارية، بل كان ينتظره مصير ينبغي أن يتمِّمه، أي كان لديه موعد في الجُلجُثة ينبغي أن يذهب إليه. وتعود جذور هذه «الحتمية» إلى دعوته. فقد دُعي يسوع كي يؤدِّي مهمة، وكانت مهمته تقتضي أن يتألم ويموت.

وكانت هذه الفكرة بالتحديد هي التي عارضها بطرس: «فَأَخَذَهُ بُطْرُسُ إِلَيْهِ وَابْتَدَأَ يَنْتَهِرُهُ قَائِلًا: «حَاشَاكَ يَا رَبُّ! لَا يَكُونُ لَكَ هَذَا!»» (متى ١٦: ٢٢).

على الأقل، تحلَّى بطرس باللطف الذي جعله ينتهر سيده سرًّا. فهو لم يتفاخر بوقاحته علانية. لكن، أدرج الروح القدس وقاحته التي لا توصف هذه في السجل العلني للكتاب المقدس.

بهذه الكلمات، طالب بطرس يسوع بأن ينأى بنفسه عن الألم والموت. فقد أراد مخلِّصًا لا تشوبه شائبة الألم. وأراد أن يأتي الملكوت على طريقة إبليس، لا على طريقة الله. كانت طريقة الله هي الصليب، أي درب الآلام. وقد ميَّز يسوع في كلام بطرس ذلك العرض المغري نفسه الذي كان الشيطان قد قدَّمه له في البرية.

تجادل اللاهوتيون معًا حول ذلك الوقت من حياة يسوع الذي فيه صار على وعي بأنه ينبغي أن يتألم ويموت. لكن، يوضح الكتاب

المقدس جيدًا أن مفهوم المسيَّا المتألم قد صيغ قبل حديث قيصرية فيلبس بمدة طويلة. فقد تنبأ تكوين ٣: ١٥ عن هذا المفهوم، قائلًا: «وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ». هذا هو «الإنجيل الأول»، أي التلميح الأول إلى الإنجيل العتيد أن يأتي. ولاحقًا، استفاض إشعياء كثيرًا في شرح هذا المفهوم من خلال شخصيَّة «العبد المتألم».

علاوة على ذلك، تنبَّأ سمعان، الشيخ المبجَّل، عن آلام يسوع إلى مريم بينما كانوا في الهيكل، قائلًا: «هَا إِنَّ هَذَا قَدْ وُضِعَ لِسُقُوطِ وَقِيَامِ كَثِيرِينَ فِي إِسْرَائِيلَ، وَلِعَلَامَةٍ تُقَاوَمُ. وَأَنْتِ أَيْضًا يَجُوزُ فِي نَفْسِكِ سَيْفٌ، لِتُعْلَنَ أَفْكَارٌ مِنْ قُلُوبٍ كَثِيرَةٍ» (لوقا ٢: ٣٤-٣٥). ويوضح هذا أن أم يسوع قد سمعت بالفعل نبوة عن سيف يجوز في نفسها في الأسابيع الأولى من حياة يسوع.

وحين بلغ يسوع الثانية عشر من عمره، أعلن أنه كان **ينبغي** أن يكون فيما لأبيه (لوقا ٢: ٤٩). فقد كان، في ذلك الوقت، على وعي بوجود **حتمية**، أي بأن هناك واجبًا عليه أن يؤديه. لكن، يظل إدراك يسوع للفحوى الكاملة لذلك الواجب في مثل هذا العمر المبكِّر أمرًا خاضعًا للتكهُّنات. لكن، من المؤكَّد أنه عند وصوله إلى بستان جثسيماني، كان مدركًا للأمر تمامًا.

في البستان، دخل يسوع في حالة من الحزن الشديد، وقال لتلاميذه: «نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدًّا حَتَّى الْمَوْتِ. اُمْكُثُوا هَهُنَا وَاسْهَرُوا مَعِي» (متى ٢٦: ٣٨).

يخبرنا الكتاب المقدس بأنه عقب نطق يسوع بهذه الكلمات، تقدَّم مسافة أبعد داخل بستان الزيتون، وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي قَائِلًا: «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هَذِهِ الْكَأْسُ، وَلَكِنْ

لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ» (متى ٢٦: ٣٩). ويضيف لوقا إلى هذا الحدث هذه الكلمات: «وَإِذْ كَانَ فِي جِهَادٍ كَانَ يُصَلِّي بِأَشَدِّ لَجَاجَةٍ، وَصَارَ عَرَقُهُ كَقَطَرَاتِ دَمٍ نَازِلَةٍ عَلَى الْأَرْضِ» (لوقا ٢٢: ٤٤).

قبول «لا» باعتبارها مشيئة الله

يُدهشني كثيرًا أنه على الرغم من وضوح النص الكتابي، يتجاسر أحدهم مفترضًا أنه من الخطأ أن يصلِّي المتألم جسديًّا أو نفسيًّا طالبًا النجاة مستخدمًا مفردات من قبيل «إِنْ شِئْتَ ...» أو «إن كانت هذه مشيئتك ...». وفي المقابل، يقال لنا إنه حين تأتي المحنة، تكون مشيئة الله دائمًا هي شفاؤنا، وإن الله ليست له أي يد في آلامنا، وإن كل ما ينبغي أن نفعله هو أن نمتلك الاستجابة التي نريدها بالإيمان. فإننا نُحَث على امتلاك استجابة الله بنعم قبل حتى أن ينطق بها.

دعونا ننبذ هذه التحريفات للإيمان الكتابي! فهي نابعة من عقل المُجَرِّب، الذي يريد أن يغوينا باستبدال الإيمان بالسحر. لا يمكن لأيٍّ قدر من الكلام الديني أن يحوِّل مثل هذا الضلال إلى تعليم صحيح. فعلينا أن نقبل حقيقة أن الله أحيانًا ما يقول «لا». فهو يدعونا في بعض الأحيان إلى أن نتألم ونموت، حتى وإن أردنا الحصول على النقيض.

لم يصلِّ أحدٌ قط بهذا القدر من الصدق والإخلاص الذي صلَّى به المسيح في بستان جثسيماني. مَن ذا الذي يمكنه أن يتَّهم يسوع بالإخفاق في أن يصلِّي بإيمان؟ فقد قدَّم التماسه أمام الآب مصبوغًا بعرق كقطرات دم، قائلًا: «أَجِزْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسَ». كانت هذه الصلاة مباشرة وواضحة؛ فقد كان يسوع يصرخ طالبًا النجاة، وطالبًا أن تُرفَع عنه الكأس المرة المروِّعة، التي كانت كل خليَّة في ناسوته تنكمش منها. فقد توسَّل إلى الآب حتى يعفيه من واجبه.

لكن، كان جواب الله هو «لا». فقد كان درب الآلام هو خطة الآب، ومشيئته. لم يكن الصليب فكرة إبليس، ولم تكن آلام المسيح نتاج تخطيط بشري عارض، أو نتاج التدبير اللحظي لقيافا، أو هيرودس، أو بيلاطس. بل إن الإله القادر على كل شيء هو من أعدَّ الكأس ليسوع، وأعطاها له، وقرَّبها إلى فمه كي يشربها.

أرفق يسوع صلاته بالكلمات «إِنْ شِئْتَ ...». فهو لم يقل: «أطلب وأمتلك»، لكنه كان يعرف أباه بدرجة تكفي كي يفهم أنه ربما لا يشاء أن يُجيز عنه الكأس. ومن ثَمَّ، لم تنتهِ القصة هكذا: «ثم ندم الآب عن الشر الذي كان قد خطط له، وأجاز الكأس عن يسوع، فعاش يسوع في سعادة دائمة». تقترب هذه الكلمات من حافة التجديف. فإن الإنجيل ليس قصة خياليَّة. لم يكن من شأن الآب أن يدخل في مفاوضات على هذه الكأس، بل قد دُعي يسوع إلى أن يتجرَّعها حتى الثمالة. وهو قَبِل ذلك قائلًا: «وَلَكِنْ لِتَكُنْ لَا إِرَادَتِي بَلْ إِرَادَتُكَ» (لوقا ٢٢: ٤٢).

مثَّلت كلمة «وَلَكِنْ» هنا أسمى صلاة إيمان. ليست صلاة الإيمان هي أن نُكلِّف الله بتنفيذ طلبٍ ما؛ كما أنها ليست التسليم باستجابة الله للطلبة؛ بل صلاة الإيمان الحقَّة هي التي تتبع نموذج صلاة يسوع. فهي تُنطَق دومًا بروحٍ من الخضوع. علينا، في جميع صلواتنا، أن ندع الله يكون هو الله. لا أحد يمكنه أن يأمر الآب بما ينبغي أن يفعله، ولا حتى الابن نفسه. على الصلوات أن تكون دائمًا طلبات تقدَّم في اتضاع وخضوع لمشيئة الآب.

إن صلاة الإيمان هي صلاة ثقة. فإن جوهر الإيمان هو الثقة، أي أن نثق في أن الله يعلم ما هو الأفضل لنا. تشمل روح الثقة أيضًا استعدادًا لتنفيذ ما يريد منا الآب أن نفعله. وقد جسَّد المسيح هذا النوع من الثقة في بستان جثسيماني.

ومع أن النص لم يفصح عن ذلك بصراحة، لكن من الواضح أن يسوع غادر البستان وقد حصل على استجابة الآب لالتماسه. لم يجعله هذا يلقي السباب أو يمتلئ بالمرارة؛ فقد كان طعامه أن يعمل مشيئة الآب. فما أن قال الآب «لا»، صار الأمر محسومًا، وأعدَّ يسوع نفسه للصليب.

فداء بواسطة الآلام

نرى، في حياة المسيح وآلامه، بأشد وضوح أن الألم هو السبيل الذي اختاره الله كي يجلب الفداء إلى عالم ساقط. عُرِف يسوع بأنه «رَجُلُ أَوْجَاعٍ وَمُخْتَبِرُ الْحَزَنِ» (إشعياء ٥٣: ٣)؛ وقد حاكت حياته وخدمته مهمة عبد الرب المتألم، الذي تحدث عنه إشعياء النبي، بحذافيرها. نقرأ في سفر أعمال الرسل هذه القصة المُذهلة:

ثُمَّ إِنَّ مَلَاكَ الرَّبِّ كَلَّمَ فِيلُبُّسَ قَائِلًا: «قُمْ وَاذْهَبْ نَحْوَ الْجَنُوبِ، عَلَى الطَّرِيقِ الْمُنْحَدِرَةِ مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى غَزَّةَ الَّتِي هِيَ بَرِّيَّةٌ». فَقَامَ وَذَهَبَ. وَإِذَا رَجُلٌ حَبَشِيٌّ خَصِيٌّ، وَزِيرٌ لِكَنْدَاكَةَ مَلِكَةِ الْحَبَشَةِ، كَانَ عَلَى جَمِيعِ خَزَائِنِهَا. فَهَذَا كَانَ قَدْ جَاءَ إِلَى أُورُشَلِيمَ لِيَسْجُدَ. وَكَانَ رَاجِعًا وَجَالِسًا عَلَى مَرْكَبَتِهِ وَهُوَ يَقْرَأُ النَّبِيَّ إِشَعْيَاءَ. فَقَالَ الرُّوحُ لِفِيلُبُّسَ: «تَقَدَّمْ وَرَافِقْ هَذِهِ الْمَرْكَبَةَ».

فَبَادَرَ إِلَيْهِ فِيلُبُّسُ، وَسَمِعَهُ يَقْرَأُ النَّبِيَّ إِشَعْيَاءَ، فَقَالَ: «أَلَعَلَّكَ تَفْهَمُ مَا أَنْتَ تَقْرَأُ؟».
فَقَالَ: «كَيْفَ يُمْكِنُنِي إِنْ لَمْ يُرْشِدْنِي أَحَدٌ؟». وَطَلَبَ إِلَى فِيلُبُّسَ أَنْ يَصْعَدَ وَيَجْلِسَ مَعَهُ. وَأَمَّا فَصْلُ الْكِتَابِ الَّذِي كَانَ يَقْرَأُهُ فَكَانَ هَذَا:

«مِثْلَ شَاةٍ سِيقَ إِلَى الذَّبْحِ،
وَمِثْلَ خَرُوفٍ صَامِتٍ أَمَامَ الَّذِي يَجُزُّهُ
هَكَذَا لَمْ يَفْتَحْ فَاهُ.
فِي تَوَاضُعِهِ انْتُزِعَ قَضَاؤُهُ،
وَجِيلُهُ مَنْ يُخْبِرُ بِهِ؟
لِأَنَّ حَيَاتَهُ تُنْتَزَعُ مِنَ الْأَرْضِ».

فَأَجَابَ الْخَصِيُّ فِيلُبُّسَ وَقَالَ: «أَطْلُبُ إِلَيْكَ: عَنْ مَنْ يَقُولُ النَّبِيُّ هَذَا؟ عَنْ نَفْسِهِ أَمْ عَنْ وَاحِدٍ آخَرَ؟». فَفَتَحَ فِيلُبُّسُ فَاهُ وابْتَدَأَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ فَبَشَّرَهُ بِيَسُوعَ. (أعمال الرسل ٨: ٢٦-٣٥)

طرح الخصي الحبشي على فيلبس سؤالًا محوريًا. فقد كان يقرأ من الأصحاح الثالث والخمسين من سفر إشعياء، وكان متحيِّرًا. فسأله: «عَنْ مَنْ يَقُولُ النَّبِيُّ هَذَا؟ عَنْ نَفْسِهِ أَمْ عَنْ وَاحِدٍ آخَرَ؟» فقد أراد أن يعرف هوية عبد الرب المتألم.

وكان جواب فيلبس على هذا السؤال محدَّدًا، إذ قال للحبشي إن إشعياء كان يتكلَّم عن يسوع.

ربما تبدو حقيقة أن العهد الجديد يُعَرِّف العبد الإسرائيلي المتألم بأنه يسوع واضحة وبديهيَّة بالنسبة لك لدرجة تدفعك إلى التساؤل عن سبب تخصيصي وقتًا من الأساس لتوضيحها. لكن، يُمثِّل هذا الأمر، في الواقع، أهمية شديدة، وذلك، أولًا، لأن فهمنا عن يسوع متصل بهذه المسألة. فلا أظن أنه من قبيل المبالغة أن نصرِّح بأن الصورة التي رسمها العهد الجديد ليسوع تثبت أو تنهار بناءً على

هـذه الفكـرة. لكـن السـبب الآخـر أيضًـا هـو أن السـؤال الموجـع المتعلـق بمعنـى آلامنـا متصـل أيضًـا بهـذه المسـألة.

ظهـر، في العـصر الحديـث، نـوعٌ مـن الدراسـات الكتابيَّـة يعتـبر أن جميـع إشـارات يسـوع إلى نبـوات إشـعياء عـن العبـد المتـألم هـي مـن اختـلاق كُتَّـاب العهـد الجديـد. باختصـار، زعمـت هـذه الدراسـات أن كُتَّـاب الأسـفار الكتابيَّـة «زيَّفـوا» تاريـخ يسـوع. تقـول هـذه النظريـة إنـه بعـد اجتيـاز يسـوع في آلامـه، اضطـر قـادة الكنيسـة الأولى أن يبتدعـوا تفسـيرًا لجميـع هـذه الآلام؛ ومـن ثَـمَّ، أنشـأوا هـذه الصلـة بـين العبـد المتـألم الـذي تنبَّـأ عنـه إشـعياء ويسـوع، ثـم وضعـوا عـلى لسـان يسـوع كلـمات لم يتفـوَّه بهـا قـط.

لـدى هـؤلاء النقَّـاد دوافـع ومخطَّطـات شـخصيَّة وخفيَّـة يريـدون تحقيقهـا مـن خـلال هجومهـم عـلى المنظـور الكتـابي بشـأن المسـيح. لكـن هجومهـم هـذا يرتـد عـلى رأسـهم، ومنطقهـم نفسـه يدحضهـم. فـإن أوضـح مـا نعرفـه عـن يسـوع، تلـك الشـخصيَّة التاريخيَّـة، هـو أنـه تـألم ومـات بصفتـه عبـد اللـه.

دوَّن إنجيـل لوقـا الكلـمات التاليـة عـلى لسـان يسـوع: «لِأَنِّي أَقُـولُ لَكُـمْ: إِنَّـهُ يَنْبَغِـي أَنْ يَتِـمَّ فِيَّ أَيْضًـا هَـذَا الْمَكْتُـوبُ: وَأُحْـصِيَ مَـعَ أَثَمَـةٍ. لِأَنَّ مَـا هُـوَ مِـنْ جِهَتِـي لَـهُ انْقِضَـاءٌ» (لوقـا ٢٢: ٣٧).

اقتبـس يسـوع هنـا بشـكل مبـاشر مـن الأصحـاح الثالـث والخمسـين مـن سـفر إشـعياء، معرِّفًـا نفسـه بأنـه عبـد اللـه المتـألم. فقـد دُعيـت أمـة إسرائيـل إلى أن تكـون عبـدًا متألمًـا، لكـن، تجسَّـدت تلـك الدعـوة وتبلـورت بعـد هـذا في رجـل واحـد، كان ممثِّلًا عـن إسرائيـل. وقـد كانـت إجابـة فيلبـس واضحـة: هـذا الرجـل هـو يسـوع.

الاشتراك في آلامه

تألم يسوع من أجلنا؛ إلا أننا مدعوون أيضًا إلى الاشتراك في آلامه. فمع أنه هو التتميم الفريد لنبوة إشعياء، لكن، يظل هناك تطبيق لهذه الدعوة علينا. فقد أُعطينا واجب وامتياز الاشتراك في آلام المسيح.

نجد إشارة غامضة إلى هذه الفكرة في كتابات الرسول بولس: «الَّذِي الْآنَ أَفْرَحُ فِي آلاَمِي لِأَجْلِكُمْ، وَأُكَمِّلُ نَقَائِصَ شَدَائِدِ الْمَسِيحِ فِي جِسْمِي لِأَجْلِ جَسَدِهِ، الَّذِي هُوَ الْكَنِيسَةُ» (كولوسي ١: ٢٤). أعلن بولس في هذه الآية أنه كان فرحًا في آلامه. قطعًا، لم يكن يقصد بهذا أنه كان يتلذَّذ بالألم والشدائد، بل كان سبب فرحه يكمن في معنى آلامه. فقد قال إنه بهذا أَكْمَلَ «نَقَائِصَ شَدَائِدِ الْمَسِيحِ».

بالنظرة السطحية لهذه الكلمات، نجد تفسير بولس للأمر صاعقًا. فماذا قد يكون ناقصًا في شدائد المسيح؟ هل لم يكمل المسيح سوى نصف عمله الفدائي، تاركًا لبولس مهمة إكماله؟ وهل كان يسوع يبالغ حين صرخ من فوق الصليب قائلًا «قد أُكمِل»؟ ما الذي كان ناقصًا بالتحديد في آلام المسيح؟

من حيث قيمة آلام يسوع، يُعَد من قبيل التجديف أن نفترض وجود أيِّ نقصان فيها. فإن استحقاق ذبيحته الكفاريَّة غير محدود. وما من شيء يمكن إضافته إلى طاعته الكاملة لجعلها أكثر كمالاً. لا شيء يمكن أن يكون أكثر كمالاً من الكمال. فلا يمكن إضافة شيء إلى الكمال المُطلق.

فإن استحقاق آلام يسوع كافٍ للتكفير عن كلِّ خطية ارتُكبت يومًا أو سوف تُرتَكَب. فإن الموت الذي ماته مرة واحدة لا يحتاج إلى تكرار (عبرانيين ١٠: ١٠). تكرَّر تقديم ذبائح العهد القديم تحديدًا لأنها كانت ظلالًا غير كاملة للحقيقة الكاملة العتيدة أن تأتي (عبرانيين ١٠: ١).

لم يكن من قبيل المصادفة أن لجأت الكنيسة الكاثوليكيَّة إلى كلمات بولس الواردة في كولوسي ١: ٢٤ لدعم مفهومها عن كنز الاستحقاقات، الذي بموجبه، وبحسب اعتقادهم، تضاف استحقاقات القديسين إلى استحقاق المسيح لستر نقائص الخطاة. كان هذا التعليم هو بؤرة هبوب إعصار الإصلاح البروتستانتي، إذ كان حجب كفاية آلام المسيح، وكمالها، يكمن في لُبِّ اعتراضات مارتن لوثر.

ومع أننا نرفض بشدة التفسير الكاثوليكي لهذا النص، لكن يبقى هذا السؤال قائمًا: إن كانت آلام بولس لم تضف أي استحقاق كان ناقصًا في آلام المسيح، فماذا أضافت إذن؟

تكمن إجابة هذا السؤال الصعب في التعليم الأوسع للعهد الجديد بشأن دعوة المؤمن إلى الاشتراك في عار المسيح. ترمز معموديتنا إلى دفننا مع المسيح؛ وقد أشار بولس مرارًا إلى أنه ما لم نكن على استعداد للاشتراك في عار يسوع، لن يتسنَّى لنا الاشتراك في مجده (انظر ٢ تيموثاوس ٢: ١١-١٢).

فرح بولس لأن آلامه كانت لأجل منفعة الكنيسة. فقد دُعيت الكنيسة إلى التمثُّل بالمسيح، والسير في درب الآلام. وكانت الصورة المفضَّلة لدى بولس عن الكنيسة هي صورة جسد الإنسان، ولهذا هي تسمَّى جسد المسيح. فمن ناحية، يليق بنا أن نطلق على الكنيسة لقب «التجسُّد المستمر». فبالحقيقة، الكنيسة هي الجسد السري للمسيح على الأرض.

وقد وحَّد المسيح نفسه بكنيسته بشدة لدرجة أنه حين دعا بولس أولًا وهو في طريقه إلى دمشق، قال له: «شَاوُلُ، شَاوُلُ! لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟» (أعمال الرسل ٩: ٤). لم يكن شاول يضطهد يسوع حرفيًّا، إذ كان يسوع قد صعد إلى السماء بالفعل، بعيدًا عن منال اعتداءاته.

لكـن، كان شـغل شـاول الشـاغل هـو اضطهـاد المسـيحيين. فقـد شـعر يسـوع بتلاحـم شـديد مـع كنيسـته لدرجـة أنـه اعتـبر أي هجـومٍ عـلى جسـده، أي الكنيسـة، هجومًـا شـخصيًّا عليـه هـو نفسـه.

ليسـت الكنيسـة هـي المسـيح. فالمسـيح كامـل، بينـما هـي ليسـت كاملـة. والمسـيح هـو الفـادي، بينـما هـي جماعـة المفديـين. ومـع ذلـك، تنتمـي الكنيسـة إلى المسـيح، الـذي افتداهـا. فهـي عـروس المسـيح، والمسـيح سـاكنٌ فيهـا.

في ضـوء هـذا التلاحـم، تشـترك الكنيسـة في آلام المسـيح. لكـنَّ هـذا الاشـتراك لا يضيـف شـيئًا إلى اسـتحقاقات المسـيح. ربمـا تعـود آلام المؤمنين بالمنفعـة عـلى أنـاس آخريـن، لكنهـا أبعـد مـا يكـون عـن أن تكـون آلامًـا كفاريَّـة. لا يمكننـي التكفـير عـن خطايـا شـخص آخـر، أو حتـى عـن خطايـاي الشـخصيَّة. لكـن ربمـا تعـود آلامـي بمنفعـة كبـيرة عـلى الآخريـن، إذ ربمـا تشـهد عـن ذاك الـذي كانـت آلامـه كفاريَّـة **بالحقيقـة**.

تُعـد كلمـة «شـاهد» في العهـد الجديـد - *martus* - المصـدر الـذي جـاءت منـه الكلمـة الإنجليزيـة *martyr*، أي «شـهيد». فقـد دُعِـي الذيـن تألمـوا وماتـوا لأجـل قضيـة المسـيح شـهداء لأنهـم شـهدوا بآلامهـم عـن المسـيح.

إذن، الـشيء الناقـص في شـدائد المسـيح هـو الآلام المسـتمرة التـي دعـا اللـه شـعبه إلى أن يقاسـوها ويحتملوهـا. فاللـه يدعـو أناسًـا مـن كل جيـلٍ وعـصرٍ إلى الألم. مـرة أخـرى، لا يكمـل هـذا الألم أي نقـص في اسـتحقاقات المسـيح، لكنـه يتمِّـم المصـير الـذي تعـيَّن لنـا، بـأن نكـون شـهودًا لعبـد اللـه المتـألم الكامـل.

مـا معنـى ذلـك عمليًّـا؟ قـاسى والـدي سلسـلة مـن حـوادث النزيـف في المـخ تسـبَّبت لـه في آلام مبرحـة، وفي النهايـة وضعـت حـدًا لحياتـه.

أنـا عـلى يقـين بأنـه حتـمًا سـأل اللـه في خضـم آلامـه قائـلًا: «لمـاذا؟» فبحسـب الظاهـر، بـدت آلامـه دون جـدوى. فقـد بـدا كـما لـو أنـه يتـألم دون أيِّ سـبب وجيـه.

ينبغـي أن أتوخَّـى الحـذر الشـديد هنـا. فإننـي لسـتُ أرى بـأيِّ حـال مـن الأحـوال أن آلام والـدي كانـت تكفـيرًا عـن خطايـاي. كـما لسـتُ أظـن أننـي أسـتطيع قـراءة أفـكار اللـه، ومعرفـة السـبب الأسـاسي وراء آلام والـدي. لكـن هـذا هـو كلُّ مـا أعرفـه: أن آلام والـدي كان لهـا تأثـير عميـق وشـديد عـلى حيـاتي. فقـد اقتـادني مـوت والدي إلى المسـيح. لسـتُ أقصـد بذلـك أن السـبب الأسـاسي مـن وراء دعـوة أبي إلى أن يتـألم ويمـوت هـو أن أصـير مؤمنًـا. فإننـي أجهـل قصـد اللـه السـيادي مـن هـذا. لكـن مـا أعلمـه هـو أن اللـه **استخدم** هـذا الألم لأجـل خـلاصي. فقـد دفعتنـي معانـاة والـدي نحـو أحضـان المخَلِّـص المتـألم.

نحـن أتبـاع المسـيح. فإننـا نتبعـه إلى بسـتان جثسـيماني، وإلى داخـل دار الولايـة، وعـبر درب الآلام. كـما أننـا نتبعـه حتـى المـوت. لكـن، يعلـن الإنجيـل أيضًـا أننـا سـنتبعه عـبر أبـواب السـماء. فلأننـا نتألَّـم معـه، سـنقوم أيضًـا معـه. وإن كنـا نتـألم معـه، ونقـاسي الـذل والعـار، فسـنتمجد أيضًـا معـه.

فبسـبب المسـيح، ليسـت آلامنـا دون جـدوى، لكنهـا جـزء مـن الخطـة الكاملـة التـي رسـمها اللـه، الـذي اختـار أن يفتـدي العـالم بواسـطة درب الألم.

الفصل الثالث

دراسة حالة عن الألم

في إحدى الشركات العملاقة، شعر المدير التنفيذي لشؤون العمليات بالغيرة الشديدة من أحد مديري الفروع بالشركة، لأنه كان يتمتع بعلاقة شخصيَّة وثيقة مع رئيس مجلس الإدارة، فقدم شكوى ضده إلى رئيس مجلس الإدارة.

وفي هذه الشكوى، قدم الاقتراح التالي: «أقترح تسريح جو هوكينز من العمل».

فسأله رئيس مجلس الإدارة: «لماذا؟ هذا الرجل واحد من أكثر المديرين إنتاجية في العمل، وأعتقد أنه يبذل جهدًا فائقًا. فضلًا عن ذلك، هو مِن أكثر موظفينا ولاءً».

حينئذٍ، ردَّ المدير التنفيذي في تهكُّم شديد قائلًا: «أكثرهم ولاءً؟ أتظنه مخلصًا بالفعل؟ السبب الوحيد وراء هذا الولاء هو أنك تدفع له راتبًا ضخمًا، وتغدق عليه بمزايا لا يأخذها آخرون. علاوة على

ذلك، أنت قد جعلته منيعًا. فالكل يعرف أنه الموظف المفضَّل لديك. تُرى كيف سيكون وفاؤه إن ضغطتَ عليه. اقتطع من راتبه، وانتقص من مزاياه، وسترى هل سيستمر على وفائه هذا أم لا».

انزعج رئيس مجلس الإدارة من هذا الاقتراح، لكنه قبل التحدي قائلًا: «حسنًا، لنرَ ما سيحدث. اذهب واقتطع من راتبه، ومارس عليه بعض الضغوط. وأعتقد أنك سترى أنه سيظل ثابتًا على وفائه».

حينئذٍ، أطلق المدير التنفيذي ضحكة ساخرة وقال: «فقط أطلق لي العنان، وستكتشف أنه يخونك أنت وشركتك من أول لحظة».

ثم غادر المدير التنفيذي غرفة مجلس الإدارة، ورسم خطة لسحق وتحطيم «جو». أولًا، اقتطع راتبه إلى النصف، وألغى تأمينه الصحي. ثم توجَّه إلى بعض زملائه في العمل، وضمَّهم إلى مؤامرته. وقد تحمَّسوا للمشاركة فيها، ورسموا، في سرور، خططًا لبعض الأعمال التخريبية في المصنع، لتحطيم سمعة «جو» الإنتاجية. ثم قاموا سرًّا أيضًا بتزوير بعض التقارير، وتعطيل بعض ماكينات المصنع. وفجأة حُوصر مصنع «جو» بشكاوى من العملاء بشأن رداءة الجودة.

اشتدت الضغوط على «جو»، لكنه تعامل معها ببراعة، وبذل جهدًا شاقًا لصدِّ هذا الهجوم الغريب من المشكلات. لكن، لم يؤدِّ ذلك سوى إلى إضرام مزيد من نيران ضغينة أعدائه له، فبدأوا يمارسون المزيد من الضغط عليه. بدأت «حوادث» تقع داخل المصنع. بل وبدأ هؤلاء المتآمرون يتسبَّبون في مضايقات لأفراد عائلة «جو». وزادت إصابة «جو» بمرض مفاجئ من سوء الأحوال. فقد دفع المدير التنفيذي رشوة لطبيب فاسد حتى يضع نوعًا ضارًا من البكتريا في طعام «جو».

بدأ عالم «جو» ينهار. فقد أنهكه المرض تدريجيًّا. وإلى جانب

انهيار إنتاجية مصنعه، بدأ نجمه في الأفول.

وحين زاره بعضٌ من أقرب أصدقائه، وجَّهوا له انتقادًا قاسيًا قائلين: «ما خطبك يا هوكينز؟ لقد انخفض مستوى أدائك. لا عجب أنهم اقتطعوا راتبك».

وبدأ أصدقاء «جو» يعتقدون أن رأيهم السابق فيه لم يكن في محلِّه، مفترضين أنه حتمًا قد ارتكب خطأ فادحًا حتى تتخذ حياته هذا المنعطف الفجائي والعنيف نحو الأسوأ. بل وقد جاءه واحدٌ من هؤلاء الأصدقاء حاملًا مشورة «روحيَّة»، قائلًا له: «يا جو، أريد أن أقول لك شيئًا في المحبة. لا بد أن الأزمات التي تمر بها هي من الله. أعتقد أن الأمر برمته هو عقابٌ ما على خطية تحتفظ بها في حياتك دون توبة. ربما إن تُبتَ، تبدأ الأحوال في التحسُّن».

حينئذٍ أجابه «جو»: «ربما أنت مُحق. لكنني لستُ أتذكر أنني فعلتُ شيئًا أستحق عليه كلَّ هذا. لكنني بكل تأكيد سأفحص نفسي من جهة هذا الأمر».

«لكن، ألا يخبرك اقتطاع رئيس مجلس الإدارة راتبك إلى النصف بأيِّ شيء؟»

أجابه «جو»: «حسنًا، يحق لرئيس مجلس الإدارة أن يفعل هذا. وهو لطالما كان منصفًا معي. أنا على يقين من أنه يعرف تمامًا ماذا يفعل. حتمًا لديه سبب وجيه دعاه إلى هذا التصرف».

عندئذٍ، أدلت زوجة «جو» أيضًا بدلوها. ففي إحدى الليالي قالت له: «أعتقد أن الوقت قد حان كي تستقيل من عملك. فإن حالتك الصحية تخور، والشركة تعاملك كما لو أنك نكرة. أهذا هو الشكر الذي تحصل عليه بعد كل تلك السنوات من الخدمة المُخلِصة؟ لنغادر هذا المكان، ونفتح صفحة جديدة في مكان آخر.

سيكون من الجنون أن تستمر في العمل لدى شركة كهذه».

حينئذٍ أجابها «جو»: «لا يا عزيزتي، لا أستطيع المغادرة».

سألته زوجته: «ولماذا؟»

«أنا مدين لرئيس مجلس الإدارة بالبقاء».

«هل فقدتَ عقلك؟ لستَ مدينًا له بشيء. فقد أعطيته أفضل أعوام حياتك، وهذا هو ما حصلتَ عليه في المقابل. بل إنه هو المدين لك! لستَ مدينًا له بشيء. لمَ لا تواجه الأمر؟ هذا الرجل شريرٌ بقدر الشرِّ الذي فعله بك».

حينئذٍ قاطعها «جو» في غضب قائلًا: «كلَّا! لا يمكنني أن أصدِّق أنه قد يعاملني بهذا الظلم عمدًا».

«إذن، حريٌّ بك أن تتحدث إليه وجهًا لوجه. أتحرَّق شوقًا لسماع ردِّه عليك حين تواجهه».

عندئذٍ وعدها «جو» قائلًا: «حسنًا حسنًا، سأتحدث إليه».

وفي اليوم التالي، طلب «جو» تحديد موعد له لمقابلة رئيس مجلس الإدارة. وعندما دخل إلى غرفة المكتب الأنيقة، رحَّب به رئيس مجلس الإدارة في ودٍّ قائلًا: «مرحبًا بك يا جو، كيف يمكنني مساعدتك؟»

دخل «جو» في صلب الموضوع دون مقدِّمات، ناطقًا بشكواه وسط عاصفة من الغضب، قائلًا: «ما الذي يحدث؟ لقد اقتطعتَ راتبي إلى النصف، ووقفت متفرجًا بينما تخرِّب حفنة من اللصوص مصنعي، بل وقد ألغيت مزايا تأميني الصحي. ما الخطأ الذي ارتكبتُه حتى أستحق منك مثل هذه المعاملة؟ لقد كنتُ وفيًا لك وللشركة طيلة تلك الأعوام، وها أنت الآن تعاملني هكذا! مَن تظن نفسك بأية حال؟»

وبعدما أنصت رئيس مجلس الإدارة في صبر إلى خطبة «جو» اللاذعة، أجابه قائلًا: «دعني أطرح عليك بضعة أسئلة يا جو. هل أنت مالك هذه الشركة؟»

أجابه «جو»: «كلا يا سيدي».

«هل بنيتَ هذا المكان من العدم؟ وخاطرت فيه برأس مالك؟ وهل أنت مَن يدفع الرواتب مرتين شهريًا؟ هل أنت رئيس مجلس الإدارة؟»

وكان «جو» يهز رأسه بالنفي ردًّا على جميع هذه الأسئلة.

«أخبرني يا جو، من تظن نفسك حتى تأتي كي تملي عليَّ الطريقة التي أدير بها شركتي؟ لقد أعطيتُك كلَّ ما وعدتك به، بل وأكثر. انظر جيدًا إلى عقدك؛ هل ينص على أن تحصل على كل المكافآت التي أعطيتها لك على مدار الأعوام الماضية؟»

ومرة أخرى، كان على «جو» أن يجيب في صدق قائلًا: «كلا، يا سيدي، لقد تعاملتَ معي حقًّا بلطف مفرط».

«تقول الآن إنني تعاملتُ معك بلطف مفرط. هل تظن إذن أنني تغيرت؟ وهل تظن أنني غافل عما كان يحدث في الآونة الأخيرة؟ أنا على دراية تامة بما يحدث في مصنعك. وقد كنتُ أتابع الأمر عن كثب. ولا شيء يفوتني».

«جو، سأطلب منك أن تفعل شيئًا من أجلي. لقد وضعتَ ثقتك فيَّ في الماضي، ثق بي الآن أيضًا. وأنا أضمن لك أنني سأُصلِح كل شيء. لديَّ خطة. والذين تآمروا عليك سينالون جزاءهم الذي يستحقونه تمامًا. أتظن حقًّا أنني قد أتركهم يفلتون بفعلتهم هذه؟»

عندئذٍ شعر «جو» بمدى بشاعة ما فعله، وحاول في تلعثُم تقديم اعتذار، قائلًا: «أعتذر لك، لم يكن من حقي أن آتي إلى هنا

وأُلقي بكلِّ هذه الاتهامات في وجهك. لقد شكوتُ مرة، ولن أزيد. لن تخرج كلمة اعتراض أخرى من فمي. افعل ما يحسن في عينيك، فأنا أثق بك».

حينئذٍ ابتسم الرئيس، واتصل بسكرتيرته الخاصة على الهاتف الداخلي قائلًا: «أستاذة فرانكلين، أبلغي المدير التنفيذي لشؤون العمليات أن يحضر إلى مكتبي في الحال».

«وأنت يا جو، لا تغادر. لديَّ بعض الكلمات الأخيرة التي أود أن أقولها لك. أولًا، أريدك أن تعلم أنه بمجرد دخول المدير التنفيذي إلى هنا، سأسلِّمه أوراق تسريحه من العمل. وبدءًا من الغد، ستصير أنت المدير التنفيذي الجديد. وستحصل على ضعف راتبك السابق قبل اقتطاعه. وسأعيد لك كافة مزايا الرعاية الصحية. بل وقد عينتُ لك طبيبًا متخصصًا يستطيع معالجة مرضك».

«يا جو، لقد كنتَ وفيًا لي أكثر من أي موظف آخر. وقد احتملتَ الكثير دون أن تسبِّني في غيبتي. والآن، حان وقت ردِّ اعتبارك».

حينئذٍ هتف «جو» قائلًا: «كنت أعلم ذلك. صحيح أنه قد انتابتني فترات من الشك، لكنني كنتُ أعلم في أعماقي أنك ستصلح كلَّ شيء. الآن أشعر حقًّا بالخجل الشديد من كلِّ الاتهامات التي قذفتك بها. هل يمكن أن تسامحني يومًا ما؟»

«لا تقلق حيال هذا يا جو. فإن الغفران هو أحد الأشياء التي أجيدها. فإنني متخصِّص غفران».

هل الخطية والألم متصلان؟

على الأرجح، أنت قد استطعت عند هذه المرحلة أن تعرف أن هذه القصة هي قصة أيوب، الشخصيَّة الكتابيَّة، لكن مصاغة بألفاظ عصرية. فإن قصة أيوب هي دراسة حالة عن الألم البشري. وهي

تروي أحداث حياة رجلٍ بارٍّ قاسى بؤسًا شديدًا في هذا العالم. وقد ضاعف عدم مراعاة أصدقائه لما كان يمر به من بؤسه هذا. فقد افترضوا فكرة يرفضها الكتاب المقدس، ألا وهي أن درجة آلام أيوب تتناسب طرديًا مع قدر خطاياه. وبهذا، افترضوا وجود صلة في حياتنا بين الألم والإثم. وبما أن آلام أيوب كانت شديدة، فمن المؤكد أن هذه كانت علامة على أن خطاياه كانت جسيمة بالقدر نفسه.

لا يقبل الله هذه المعادلة. نتذكَّر جميعًا السؤال الذي طُرِح على يسوع بشأن الرجل المولود أعمى: «وَفِيمَا هُوَ مُجْتَازٌ رَأَى إِنْسَانًا أَعْمَى مُنْذُ وِلاَدَتِهِ، فَسَأَلَهُ تَلاَمِيذُهُ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، مَنْ أَخْطَأَ: هَذَا أَمْ أَبَوَاهُ حَتَّى وُلِدَ أَعْمَى؟». أَجَابَ يَسُوعُ: لاَ هَذَا أَخْطَأَ وَلاَ أَبَوَاهُ، لَكِنْ لِتَظْهَرَ أَعْمَالُ اللهِ فِيهِ» (يوحنا ٩: ١-٣).

في علم المنطق، هناك مغالطة غير رسميَّة تُدعَى مغالطة «المأزق المُفتعَل»، وتسمَّى أحيانًا «مغالطة إما هذا أو ذاك». يحدث هذا الخطأ الفكري حين تُعرَض مشكلة ما وكأن ليس لها سوى تفسيران محتملان فقط لا غير، بينما في واقع الأمر هناك ثلاثة تفسيرات محتمَلة لها، أو أكثر.

تنتمي بعض القضايا، في حقيقة الأمر، إلى فئة «إما هذا أو ذاك». على سبيل المثال: إما أنه يوجد إله أو لا يوجد، وما من خيار ثالث. لكن، لا تعني إمكانية اختزال **بعض** القضايا إلى بديلين فحسب أن هذا ينطبق على **جميع** القضايا. وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه التلاميذ حين سألوا يسوع عن المولود أعمى.

فحين فحص التلاميذ مأزق الرجل الأعمى، افترضوا وجود تفسيرين محتملين، لا ثالث لهما. إما أن هذا العمى كان نتاج خطية الرجل نفسه، أو نتاج خطية أبويه.

لم يكن تفكيرهم هذا سليمًا، لكنه لم يكن دون أساس. فقد كانوا محقِّين في افتراض واحد فحسب. كان هؤلاء على دراية بالكتاب المقدس كافية كي يدركوا وجود صلة ما بين الألم والخطية. كانوا يعرفون أن الألم والموت قد دخلا إلى العالم بسبب الخطية، التي قبل دخولها كان العالم خاليًا من أيٍّ منهما.

فإن الموت شيءٌ مخالفٌ للطبيعة. ربما يكون أمرًا طبيعيًّا بالنسبة للإنسان الساقط، لكنه لم يكن كذلك للإنسان حين خُلِق أولًا. لم يُخلَق الإنسان ليموت. صحيح أنه خُلق بإمكانية الموت، لكن ليس بحتمية الموت. فقد دخل الموت كعاقبة للخطية. ولو لم تكن هناك خطية، لما كان للموت أيُّ وجود. لكن، حين دخلت الخطية، دخلت لعنة السقوط. ومن ثَمَّ، ينبع كلُّ ألم وموت من الخطية.

كذلك، كان التلاميذ محقِّين جزئيًا في فكرة أخرى. فقد كانوا يعرفون أنه في بعض الأحيان تكون هناك صلة مباشرة بين خطية أحدهم وآلامه. على سبيل المثال، ضرب الله مريم بالبرص كدينونة على الخطية التي ارتكبتها في حق موسى (العدد ١٢: ٩-١٠).

لكن، كان خطأ التلاميذ يَكمُن في افتراضهم وجود صلة مباشرة، وعلاقة ثابتة، دائمًا بين خطية الإنسان وآلامه. فإننا نجد في هذا العالم البعض يتألمون بقدر أقل مما تستحقه خطاياهم، في حين يقاسي آخرون قدرًا أشد من الألم. يتجلَّى هذا التفاوت في صرخة دواد حين قال: «حَتَّى مَتَى الْخُطَاةُ يَا رَبُّ، حَتَّى مَتَى الْخُطَاةُ يَشْمَتُونَ؟» (مزمور ٩٤: ٣).

وفي بعض الأحيان، نتألم على يد آخرين دون ذنب. وفي هذه الحالة، نكون ضحايا للظلم. لكن هذا الظلم لا يقع إلا على المستوى الأفقي. فما من إنسان يعاني ظلمًا على المستوى الرأسي، أي ما من إنسان

يعاني ظلمًا في علاقته بالله. فطالما نحن حاملون لإثم الخطية، ليس من حقنا أن نعترض على الله، أو نصفه بالظلم لأنه سمح بأن نتألم.

إن تعرضتُ لآلام على يد أحدهم ظُلمًا، فلي كامل الحق في أن أتضرَّع إلى الله حتى يدافع عني، ويرد لي اعتباري، مثلما فعل أيوب. لكن، في الآن ذاته، ينبغي ألا أتذمَّر على الله، أو أقول إنه مخطئ بسماحه بوقوع هذا الألم عليَّ. فربما كنتُ بريئًا في علاقتي بالآخرين، لكن، فيما يتعلَّق بعلاقتي بالله، أنا لستُ ضحية بريئة. فإن طلبي بأن يجري الله عدله من جهة تعاملاتي مع البشر يختلف تمام الاختلاف عن مطالبتي إيَّاه بتحقيق العدل في علاقتي معه. فما من طلبة يمكن تقديمها إلى الله أخطر من أن يطالبه خاطئٌ بتحقيق العدل. فربما كان أسوأ ما يمكن أن أحصل عليه من الله هو العدل التام.

«قصد الله به خيرًا»

بغض النظر عن جميع هذه الاعتبارات، تظل حقيقة وقوع التلاميذ في مغالطة «المأزق المفتعل» قائمة. فقد حصروا سبب عمى الرجل في تفسيرين مُحتمَلين لا غير (إما خطية الرجل أو خطية أبويه)، في حين أنهم أخفقوا في وضع تفسير واحد آخر على الأقل في اعتبارهم.

نقض يسوع هذا المأزق المفتعل بقوله: «لَا هَذَا أَخْطَأَ وَلَا أَبَوَاهُ». لم تكن خطية هذا الرجل هي السبب في ولادته أعمى، كما لم يكن السبب في ذلك هو خطية أبويه. لكن، أعلن يسوع أن هذا الرجل وُلِد أعمى «لِتَظْهَرَ أَعْمَالُ اللهِ فِيهِ». فقد أصيب المولود أعمى بالعمى لأجل مجد الله.

يعلِّمنا هذا الحق الصادم درسًا شديد الأهمية. فهو بمثابة تحذير لنا من القفز إلى استنتاجات بشأن «سبب» تألُّمنا.

استخدم الله عمى هذا الإنسان من أجل مجده الأعظم. وفي هذه الحالة، صار «شرُّ» المرض والألم نافعًا لله. فقد غلبه الله، وحقق خطته المجيدة بواسطته.

يُذكِّرنا هذا بالألم الشديد الذي قاساه يوسف على يد أخوته. ولكن، بسبب غدرهم به، تحققت خطة الله لكلِّ التاريخ. ففي لحظة تصالح يوسف مع إخوته، هتف قائلًا: «أَنْتُمْ قَصَدْتُمْ لِي شَرًّا، أَمَّا اللهُ فَقَصَدَ بِهِ خَيْرًا، لِكَيْ يَفْعَلَ كَمَا الْيَوْمَ، لِيُحْيِيَ شَعْبًا كَثِيرًا» (تكوين ٥٠: ٢٠).

فقد عمل الله من خلال الشر حتى يُجري خلاصًا. لكن، لم ينتقص ذلك في الآن ذاته من شرِّ إخوة يوسف. وعلى هذا المنوال ذاته، كانت خيانة يهوذا ليسوع عملًا شريرًا، إذ جلبت عليه آلامًا ظلمًا، مثلما كان يوسف ضحية ظلم إخوته. لكن، فوق كلِّ هذا الظلم، والوجع، والألم كان يقف إله مسيطر، منفذًا خطة خلاصه **فوق** الشر، **وعلى الرغم** منه، بل وأيضًا **من خلاله**.

الثقة بغض النظر عن أي شيء

يتجلَّى جواب يسوع لتلاميذه بشأن المولود أعمى بوضوح في سفر أيوب. فربما لو كان التلاميذ قد درسوا جيدًا هذا السفر الموجود في العهد القديم، لما وقعوا في مغالطة «إما هذا أو ذاك». فقد اقترفوا الخطأ ذاته الذي اقترفه أصدقاء أيوب.

أبدى أيوب اعتراضه على كلام أصدقائه، وأجابهم في حِدَّة: «قَدْ سَمِعْتُ كَثِيرًا مِثْلَ هَذَا. مُعَزُّونَ مُتْعِبُونَ كُلُّكُمْ! هَلْ مِنْ نِهَايَةٍ لِكَلَامٍ فَارِغٍ؟ أَوْ مَاذَا يُهَيِّجُكَ حَتَّى تُجَاوِبَ؟ أَنَا أَيْضًا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَكَلَّمَ مِثْلَكُمْ، لَوْ كَانَتْ أَنْفُسُكُمْ مَكَانَ نَفْسِي، وَأَنْ أَسْرُدَ عَلَيْكُمْ أَقْوَالًا وَأُنْغِضَ رَأْسِي إِلَيْكُمْ. بَلْ كُنْتُ أُشَدِّدُكُمْ بِفَمِي، وَتَعْزِيَةُ شَفَتَيَّ تُمْسِكُكُمْ» (أيوب ١٦: ٢-٥).

لننظر أيضًا إلى تلك المشورة التي تلقَّاها أيوب من زوجته:

فَأَخَذَ لِنَفْسِهِ شَقَفَةً لِيَحْتَكَّ بِهَا وَهُوَ جَالِسٌ فِي وَسْطِ الرَّمَادِ. فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: «أَنْتَ مُتَمَسِّكٌ بَعْدُ بِكَمَالِكَ؟ بَارِكِ اللهَ وَمُتْ!».
فَقَالَ لَهَا: «تَتَكَلَّمِينَ كَلَامًا كَإِحْدَى الْجَاهِلَاتِ! أَالْخَيْرَ نَقْبَلُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَالشَّرَّ لَا نَقْبَلُ؟».
فِي كُلِّ هَذَا لَمْ يُخْطِئْ أَيُّوبُ بِشَفَتَيْهِ. (أيوب ٢: ٨-١٠)

من أصعب التحديات التي يمكن للإنسان أن يواجهها في خضم آلامه هو تلقيه نصائح حسنة النية من آخرين بالاستسلام وبيع القضية. عادةً ما تأتينا هذه النصائح من محبِّينا، ومن أقرب الأقربين. فقد حاول أقرب أصدقاء يسوع إثناءه عن الذهاب إلى أورشليم، كما رأينا في توبيخ يسوع لبطرس في الفصل السابق.

قالت زوجة أيوب: «بَارِكِ [العن] اللهَ وَمُتْ!»، حاثة إياه على المساومة في استقامته حتى يخفف من وطأة ألمه. فقد كانت نيَّتها حسنة، إذ شعرت بكل تأكيد بالشفقة على زوجها. وقد حثته على اختيار الطريق السهل، لكن لم تساهم كلماتها إلا في زيادة كآبته وإحباطه. لم يفهم أيوب لماذا دعاه الله إلى أن يتألَّم، لكن كلَّ ما فهمه هو أنه قد دعاه إلى ذلك. وقد كان من الصعب عليه أن يظلَّ أمينًا تجاه دعوته هذه دون محاولة أحبائه إثناءه عن ذلك.

كنتُ في زيارة ذات مرة إلى كنيسة ضخمة في جنوب كاليفورنيا، واصطحبوني هناك في جولة عبر المنطقة. وفي أثناء هذه الجولة، وصلنا إلى تمثالٍ من الحجر نحته نحَّات اسكندنافي. وحين وقفتُ أمام هذه التحفة الفنية العظيمة، غلبتني مشاعري. كان هذا التمثال لأيوب،

وكان جسده متلويًا في ألم وكرب شديد، وذكَّرتني تفاصيل عضلاته بتمثالٍ آخر لمايكل أنجلو.

وبينما كنت أحدِّق في هذا التمثال، تذكَّرت تقنية فنيَّة تقوم على مبدأ «اللحظة المثاليَّة» الذي أشار إليه الفيلسوف يوهان هِردر (Johann Herder). فإن أعمال الرسامين والنحاتين ليست عبارة عن أفلام مصوَّرة متحركة، بل هي أشياء ثابتة، واقفة عند لحظة واحدة من الزمن. ولهذا، يهدف الفنان إلى إظهار جوهر العمل الفني الذي يقوم به عن طريق التركيز على لحظة واحدة مثاليَّة أو محمَّلة بالمعاني يمكنها أن تعبِّر عن القصة الأكبر. فلهذا كان رامبرانت يرسم مسودَّات لعشرات المشاهد من حياة شخصيات الكتاب المقدس قبل أن يقرِّر ما هي الصورة التي سيختارها للوحته. ولهذا السبب عينه نحت مايكل أنجلو تمثالًا لداود وهو ممسك بحجرٍ. ولهذا السبب أيضًا ظهرت منحوتة «المفكِّر» التي نحتها رودين (Rodin) في وضع الاستغراق في التفكير العميق. وكذلك، لهذا السبب عينه نرى في تمثال «بيتتا» جسد المسيح محمولًا بين ذراعي أمه.

استطاع ذلك النحات الذي صمَّم تمثال أيوب الذي رأيته في حديقة تلك الكنيسة أن يلتقط اللحظة المثالية لأيوب، أي لحظة وصوله إلى حضيض ألمه. وعلى قاعدة التمثال، نُقِشت هذه الكلمات: «هُوَذَا يَقْتُلُنِي. لَا أَنْتَظِرُ شَيْئًا» [«هَلْ سَيَقْتُلُنِي اللهُ؟ حَتَّى لَوْ فَعَلَ، فَرَجَائِي فِيهِ» (الترجمة العربية المبسَّطة)] (أيوب ١٣: ١٥).

وحين قرأتُ هذه الكلمات، تسمَّرتُ في مكاني، وبكيتُ في صمت. فما من كلمات جاءت على لسان رجل زائل تضاهي في قوتها وسموِّها كلمات الشهادة هذه التي خرجت من شفتي أيوب.

الله ذاته هو الجواب على سؤال «لماذا؟»

صحيح أنَّ ثقة أيوب تذبذبت، لكنها لم تتبدَّد تمامًا. فقد ناح، وبكى، واعترض، وتساءل، بل ولعن اليوم الذي وُلِدَ فيه؛ لكنه تشبَّث بقوة برجائه الوحيد، ألا وهو ثقته بالله. فقد بدا، في بعض الأحيان، وكأن يده ستفلت، وكأنه يكاد يسقط عن الحافة، لكنه ظلَّ مع هذا متشبِّثًا. فقد لعن نفسه، وانتهر زوجته، لكنه لم يلعن الله قط.

صرخ أيوب إلى الله طالبًا إجابات عن أسئلته. فقد أراد أن يعرف لماذا دُعِي إلى أن يقاسي كلَّ هذا القدر من الألم. وأخيرًا، أجابه الله من العاصفة. لكن، لم يكن الجواب كما توقَّعه أيوب. فقد رفض الله أن يعطي أيوب تفسيرًا تفصيليًّا لأسباب محنته، أو أن يبوح له بسرِّ مشورته.

ففي النهاية، كان الجواب الوحيد الذي قدَّمه الله لأيوب هو إعلانٌ عن ذاته. فقد بدا كما لو أن الله يقول له: «يا أيوب، أنا هو الجواب الذي تطلبه». لم يُطلَب من أيوب أن يضع ثقته في خطة ما، بل في شخصٍ، أي في إلهٍ كليِّ السيادة، وحكيمٍ، وصالحٍ. بدا كما لو أن الله يقول لأيوب: «أريدك أن تتعلَّم جيدًا مَن أنا. وحين تعرفني، ستعرف القدر الذي يكفيك للتعامُل مع أيِّ شيء آخر».

طلب الله من أيوب أن يمارس إيمانًا مُطلقًا. ليس الإيمان المُطلق هو ثقة عمياء، لكنه ثقة تتمتَّع ببصيرة ورؤية، تستقبل نورها من معرفتها بالله.

فلو لم يكن الله قد أعلن شيئًا عن ذاته، ثم طالبنا بأن نضع ثقتنا فيه في وسط هذه الظُلمة، فإنه بهذا يطالبنا بثقة عمياء، أي بأن نقفز قفزة إيمان في الظلام إلى هاوية الظلمة الرهيبة.

لكن، لا يطالبنا الله البتَّة بمثل هذه القفزات الحمقاء، ولا يدعونا

البتَّة إلى القفز في الظلام. بل على النقيض، هو يدعونا إلى أن نترك الظُلمة، وندخل إلى النور، الذي هو نور وجهه، والضوء الساطع لشخصه، الذي ليس فيه ظل دوران. فحين ننغمس في البهاء المتألِّق لمجد شخص الله، لن تكون ثقتنا حينئذٍ عمياء.

حين قال أيوب «هَلْ سَيَقْتُلُنِي اللهُ؟ حَتَّى لَوْ فَعَلَ، فَرَجَائِي فِيهِ»، كشف لنا أنه على الرغم من محدودية معرفته بالله، لكنها مع ذلك كانت معرفة عميقة. فقد عرف عن شخص الله وطبيعته ما يكفي كي يعرف أن الله كان (وسيظل دائمًا) جديرًا بالثقة، أي يستحق الوثوق به.

يستحق الله أن نثق به. وكلما ازداد إدراكنا لكمالاته، ازداد إدراكنا لمدى كونه جديرًا بالثقة. ولهذا السبب تنتقل رحلة المؤمن في هذه الحياة من إيمان إلى إيمان، ومن قوة إلى قوة، ومن نعمة إلى نعمة. أي أنها تتحرك صوب قِمَّة. ومن قبيل المفارقة أن هذا التقدُّم يتحقق من خلال الألم والضيق. ولهذا السبب استطاع بولس أن يكتب هذه الكلمات: «بَلْ نَفْتَخِرُ أَيْضًا فِي الضِّيقَاتِ، عَالِمِينَ أَنَّ الضِّيقَ يُنْشِئُ صَبْرًا، وَالصَّبْرُ تَزْكِيَةً، وَالتَّزْكِيَةُ رَجَاءً، وَالرَّجَاءُ لَا يُخْزِي، لِأَنَّ مَحَبَّةَ اللهِ قَدِ انْسَكَبَتْ فِي قُلُوبِنَا بِالرُّوحِ الْقُدُسِ الْمُعْطَى لَنَا» (رومية ٥: ٣-٥).

يخبرنا هذا النص بأن «الرَّجَاءُ لَا يُخْزِي»؛ وتخبرنا ترجمات أخرى بأن الرجاء «لا يسبِّب خيبة الأمل».

فإن الرجاء الأعمى حتمًا يصيبنا بخيبة الأمل، نظير الثقة العمياء، لأنه يتلمَّس طريقه في الظلام بلا هدف، ويتعثَّر بعقبات غير منظورة. فإن خيبة الأمل تحدث حين نضع كلَّ رجائنا في هدف واحد، لكن هذا الهدف لا يتحقق.

إن الرجاء الأعمى يمكن أن يُخزي. فإننا حين نتجرأ ونخاطر بأنفسنا دون أن يكون لجرأتنا هذه ما يؤيِّدها أو يزكيها، تكون النتيجة عارًا وخزيًا. لكن الرجاء المستند على المسيح لن يؤدِّي إلى خجل أو خزي. بل سيكون الخزي من نصيب أولئك الذين وضعوا رجاءهم في أيِّ شيء آخر. فالرجاء الذي يُخزي هو الرجاء الذي لا يتمتَّع بالقوة للتغلُّب على الألم.

إن وضعتُ رجائي في أيِّ شيء أو أيِّ شخص آخر غير ذاك الذي لديه كلُّ السلطان على الألم، وفي النهاية أيضًا على الموت، فإنني محكوم عليَّ بخيبة الأمل التامة. سيدفعني ألمي إلى اليأس، وستُتلَف أيَّة فضائل أتحلَّى بها.

لكنَّ الرجاء في المسيح هو الذي يمكِّننا من المثابرة في أوقات الضيق والمحن. فإن لنا مرساة لنفوسنا مثبَّتة في ذاك الذي دخل كسابقٍ لأجلنا، وغلب.

الفصل الرابع

هناك قصدٌ من الألم

يسبح تيار لاهوتي خفي تحت سطح سفر الجامعة، ومرة تلو الأخرى، نجده يظهر على السطح. فإننا نراه في تصريح سليمان بأن «لِكُلِّ شَيْءٍ زَمَانٌ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ تَحْتَ السَّمَاوَاتِ وَقْتٌ: لِلْوِلَادَةِ وَقْتٌ وَلِلْمَوْتِ وَقْتٌ...» (الجامعة ٣: ١-٢)، لكنه يظهر في مواضع أخرى أيضًا. يقول سليمان: «قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ كُلَّ مَا يَعْمَلُهُ اللهُ أَنَّهُ يَكُونُ إِلَى الْأَبَدِ. لَا شَيْءَ يُزَادُ عَلَيْهِ، وَلَا شَيْءَ يُنْقَصُ مِنْهُ» (٣: ١٤)؛ «أُنْظُرْ عَمَلَ اللهِ: لِأَنَّهُ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى تَقْوِيمِ مَا قَدْ عَوَّجَهُ؟» (٧: ١٣)، «لِأَنَّ هَذَا كُلَّهُ جَعَلْتُهُ فِي قَلْبِي، وَامْتَحَنْتُ هَذَا كُلَّهُ: أَنَّ الصِّدِّيقِينَ وَالْحُكَمَاءَ وَأَعْمَالَهُمْ فِي يَدِ اللهِ» (٩: ١). هذا التيار اللاهوتي الخفي، الذي نجده ليس فقط في سفر الجامعة، بل في العهد القديم بأكمله، بل وفي كل الكتاب المقدس أيضًا، هو ببساطة كالتالي: إن الله يُعَيِّن كلَّ شيء وفقًا لمقاصده. بعبارة أخرى، إن الله متحكِّم في كلِّ شيء.

لم ألتقِ في حياتي بأيٍّ مؤمن أمكنه أن ينظر في عينيَّ ويقول إنه لا يؤمن بسيادة الله. لدينا جميعًا إدراك فطري بأنه إن كان الله بالفعل هو الله، فهو حتمًا سيكون متحكِّمًا في كلِّ شيء. فمن المستحيل أن يكون الله بلا سيادة. وأي تصوُّر عن إلهٍ بلا سيادة هو ببساطة تصوُّر عن وثن، وليس عن إلهٍ. لذا، من السهل أن يقول المؤمن: «أؤمن بسيادة الله». فإننا نجزم جميعنا بذلك ظاهريًا.

لكن، على الرغم من ذلك، تُعَد سيادة الله من أصعب العقائد من حيث القدرة على التعايش معها، والسماح لها بأن تتخلَّل نسيج حياتنا اليومية، بحيث نعيش حياتنا مصدِّقين بالفعل أن الله متحكِّم بالحقيقة في كلِّ شيء، وراسخين على ثقتنا فيه، حتى وإن بدت الحياة خارجة عن نطاق السيطرة.

وإن جزءًا كبيرًا من الصعوبة التي نواجهها في قبول هذه العقيدة قبولًا حقيقيًّا نابعٌ من وجود الألم في حياتنا. فربما نقول إننا نؤمن بسيادة الله على كلِّ شيء، لكن، حين نواجه أحداثًا مزعجة في حياتنا، وحين تحدث لنا أمور سيئة، وتصيبنا مآسٍ، نبدأ في التشكك، سواء في سيادة الله، أو في صلاحه. وحينئذٍ نسأل أنفسنا: «كيف أمكن لإله صالح ومتحكِّم في كلِّ شيء أن يسمح بحدوث هذا؟ ألم تكن لديه القدرة أن يمنع ذلك؟ ألا يحبني بما يكفي ليبعد عني هذا الألم؟» وتهدف الكثير من النُظُم اللاهوتية المنتشرة في بلادنا إلى تلافي تلك المشكلة، عن طريق السعي إلى إعفاء الله من أية مسؤولية تجاه مآسي حياة البشر، مسلِّمة زمام السلطة المُطلقة إلى قلب الإنسان.

رأينا بالفعل ممَّا سبق أن آلامنا تُمثِّل جزءًا من خطة الله الكاملة، وأن الله يستطيع أن يستخدم الشرَّ لتتميم هذه الخطة. وتدل حقيقة وجود خطة لدى الله على وجود غرض وقصد. كما

تدل حقيقة سيادة الله على كلِّ شيء على أنه يتمم ذلك القصد أو الغرض حتى وإن سمح بأن يصيبنا الألم. وكما في حالة أيوب، ربما لا يكشف الله عن قصده هذا، لكن، تظل هناك أسباب وجيهة تدعونا إلى الثقة فيه.

حكمة سُليمان

يقدم لنا الأصحاح السابع من سفر الجامعة بعض الأفكار المثيرة للاهتمام في هذا الموضوع. تبدو مقدِّمة هذا الأصحاح شبيهة بمقطع من مقاطع سفر الأمثال، إذ تحتوي على سلسلة من أقوال الحكمة. يبدأ الأصحاح بهذه الكلمات: «اَلصِّيتُ خَيْرٌ مِنَ الدُّهْنِ الطَّيِّبِ» (آية ١). اعتاد كُتَّاب أدب الحكمة في العالم القديم تشبيه الفضائل أو أية أمور معنوية أخرى بأشياء ملموسة، أو مقارنتها بها. في هذه الآية، نجد مقارنة بين الصيت الحسن والدُهن الطيب. ربما نعجز عن تخيُّل معنى الدُهن «الطَّيِّبِ»، أو «الثمين»، لأن الأدهان اليوم بخسة الثمن للغاية، ويمكننا الحصول عليها من أية صيدلية في الشارع. لكن في العالم القديم، كان العثور على دهن أو طيب يخفف الألم أمرًا صعبًا للغاية؛ ولهذا، كان الدهن يُعتَبَر شيئًا ثمينًا جدًا. لكن، يقول سليمان إن اَلصِّيتُ خَيْرٌ مِنَ الدُّهْنِ الطَّيِّبِ، أي أنه ثمين جدًا.

ثم يستطرد سليمان قائلًا: «وَيَوْمُ الْمَمَاتِ خَيْرٌ مِنْ يَوْمِ الْوِلَادَةِ». يمكن فهم هذه الآية إما من منظور تشاؤمي أو من منظور سامٍ. ففي العهد القديم، نقرأ كثيرًا عن أناسٍ وصلوا إلى حافة اليأس، ولعنوا يوم ولادتهم. وقد ذكرنا، في الفصل الأول من هذا الكتاب، بعض التصريحات التي جاءت على فم أيوب، وموسى، وإرميا. فحين ينظر المرء إلى الحياة من منظور هذا العالم، يسأم من العيش.

هـل تتذكَّـر أغنيـة «Old Man River» («النهـر العجـوز»)؟[٣] فـإن كلماتهـا تقـول: «لكننـا نحمِّـل تلـك البارجـة، ونرفـع الصناديـق؛ وإن شربـتَ قليـل خمـرٍ، تجـد نفسـك في الحبـس». ثـم يقـول القـرار: «لكـن ذلـك النهـر العجـوز، لا يتوقـف عـن الجريـان». هـذا تعبـير تشـاؤمي معـاصر، بلـغ ذروتـه في البيـت الـذي يقـول: «سـئمتُ الحيـاة، لكـن يرعبنـي المـوت». يصـف ذلـك الشـعور حالـة الكثيريـن في هـذا العـالم.

يؤكِّـد سـفر الجامعـة أن يـوم مـمات المـرء خـير مـن يـوم ولادتـه. قـد يكـون هـذا صحيحًـا مـن وجهـة نظـر المُتشـائم، الـذي يتـوق إلى إنهـاء كلِّ شيء، فقـط إن كان هـذا يعنـي أنـه سـيذهب إلى غياهـب النسـيان، وإلى الفنـاء، وليـس إلى عقوبـة أبديَّـة.

كذلـك، هـذا الشـعور صحيـح مـن منظـور الشـخص المتفائـل، أي مـن منظـور المؤمـن. فـإن يـوم الـولادة هـو يـوم جميـل بالنسـبة لـه، لكـن يـوم المـمات هـو أعظـم يـوم عـلى الإطـلاق يمكـن أن يـأتي عليـه في هـذا العـالم، لأنـه فيـه سـيذهب إلى موطنـه، ويجتـاز العتبـة، داخـلًا إلى بيـت الآب. هـذا هـو يـوم النـصرة التامـة للمؤمـن في هـذا العـالم. ومـع ذلـك، نحـن نخـشى هـذا اليـوم، ونحـاول تأجيلـه بقـدر اسـتطاعتنا، لأننـا لسـنا نؤمـن حقًّـا بـأن يـوم مماتنـا خـير مـن يـوم ولادتنـا.

في الآيـات ٢-٤ مـن الأصحـاح السـابع مـن سـفر الجامعـة، قـدَّم لنـا سـليمان مقارنـة عجيبـة، قائـلًا: «اَلذَّهَـابُ إِلَى بَيْـتِ النَّـوْحِ خَـيْرٌ مِـنَ الذَّهَـابِ إِلَى بَيْـتِ الْوَلِيمَـةِ، لِأَنَّ ذَاكَ نِهَايَـةُ كُلِّ إِنْسَـانٍ، وَالْحَـيُّ يَضَعُـهُ فِي قَلْبِـهِ. اَلْحُـزْنُ خَـيْرٌ مِـنَ الضَّحِـكِ، لِأَنَّـهُ بِكَآبَـةِ الْوَجْـهِ يُصْلَـحُ الْقَلْـبُ. قَلْـبُ الْحُكَـمَاءِ فِي بَيْـتِ النَّـوْحِ، وَقَلْـبُ الْجُهَّـالِ فِي بَيْـتِ الْفَـرَحِ».

---

[٣] المترجم: كُتِبت هـذه الأغنيـة للتعبير عـن صراعـات ومشـقات الأمريكيِّين مـن أصـل أفريقـي مـع نهـر المسيسـبي (النهـر القديـم) الـذي لا يعـاني مـن شيء مثلـما يعـاني السـود العاملـون عـلى السـفن فوقـه. فهـو لا يتأثـر بـشيء بينـما هـم يقاسـون القمـع والتمييـز العنـصري.

يُعَد هيرمان ميلفيل (Herman Melville) واحدًا من أكثر الكُتَّاب المفضلين لديَّ. وفي رأيي، كانت روايته بعنوان «Moby Dick» هي أعظم رواية كتبها أمريكيٌّ على الإطلاق. فهي رواية لاهوتية عميقة تحوي صورًا مذهلة. لكن بالإضافة إلى هذه الرواية، كتب ميلفيل كتابين أصغر حجمًا يُمثِّلان أهمية إلى حدٍّ ما. أحد هذين الكتابين هو رواية بعنوان «Billy Budd»، التي تحوَّلت إلى فيلم هوليودي. وكان الكتاب الآخر بعنوان «Redburn»، والذي يتناول قصة صراع أحدهم للوصول إلى الحقيقة. وفي هذا الكتاب الثاني، أدلت واحدة من شخصيات ميلفيل الملاحظة التالية: «لن نصير ما تتوق المسيحيَّة إلى أن تصيِّرنا عليه إلى أن ندرك أن حزنًا واحدًا يفوق عشرة آلاف فرحًا».

ما الذي كان ميلفيل يحاول أن يقوله هنا؟ كان ميلفيل يقصد المعنى ذاته الذي قرأناه في سفر الجامعة، حيث يقول سليمان إن «اَلذَّهَابُ إِلَى بَيْتِ النَّوْحِ خَيْرٌ مِنَ الذَّهَابِ إِلَى بَيْتِ الْوَلِيمَةِ». هذا النوع من التفرقة شائعٌ في أدب الحكمة. فهو الفرق بين الحكيم والجاهل. فربما نذهب إلى بيت الفرح، أي إلى حفلٍ ما، حيث نستمتع، ونسترخي، ونقضي وقتًا ممتعًا، ونتسلَّى. فإن الحفلات لا تتسم بالجدية، ولا يلزم أن نكون أناسًا مفكِّرين أو تأمليين حتى نستمتع فيها. قطعًا، يوجد وقت للضحك، ووقت للرقص، ووقت للاحتفال. لكن ما هو القدر الذي نتعلَّمه في هذه الأجواء؟ لا تُجدي أوقات المرح شيئًا لخير نفوسنا.

لكن، حين نذهب إلى بين النوح، نذهب إلى بيئة يمكن لقلوبنا أن تتسلَّح فيها بحكمة سامية وفائقة. هناك قول بليغ يقول: «يطرحنا الله أحيانًا على ظهورنا حتى يتيح لنا فرصة النظر إلى الأعلى». يبدو

لنا أحيانًا أنه فقط حين يجتاح الألم، أو الوجع، أو الحزن حياتنا، حينئذٍ نبدأ في التحلِّي بالرصانة والتعقُّل، وأن نوجِّه أفكارنا بشكل كبير نحو أمور الله. وعادةً ما يدفعنا بيت النوح إلى ذلك.

قطعًا، ذهب يسوع كثيرًا إلى بيت النوح. فقد وُصِف بأنه «رَجُلُ أَوْجَاعٍ وَمُخْتَبِرُ الْحَزَنِ» (إشعياء ٥٣: ٣). إلا أنه تحدَّث أيضًا عن فرحه (يوحنا ١٥: ١١). فإن المؤمن يستطيع، في خضم الألم، اختبار الفرح، الذي يسمو فوق آلام اللحظة الحاضرة. لكننا في حقيقة الأمر نعجز عن إدراك أسس ذلك الفرح في بيت الفرح، بل فقط نستطيع أن نكتشفها في بيت النوح. ففي وسط النوح، نتعلم كيف نتأمل في صلاح الله. وفي وسط النوح، نكتشف سلام الله الذي يفوق كلَّ عقل.

تابع سليمان حديثه قائلًا: «اَلْحُزْنُ خَيْرٌ مِنَ الضَّحِكِ». لم يكن سليمان يقصد بهذا أن الحزن شيء جيد وأن الضحك شيء سيئ، بل كانت المقارنة هنا بين ما هو جيِّد، وما هو أفضل منه. فعلى المدى البعيد، يُعَد الحزن أفضل من الضحك. لماذا؟ يجيبنا سُليمان قائلًا: «لِأَنَّهُ بِكَآبَةِ الْوَجْهِ يُصْلَحُ الْقَلْبُ. قَلْبُ الْحُكَمَاءِ فِي بَيْتِ النَّوْحِ، وَقَلْبُ الْجُهَّالِ فِي بَيْتِ الْفَرَحِ».

ثم حين نصل إلى الآية ١٣ من الأصحاح السابع من سفر الجامعة، نجد منظورًا مختلفًا، حيث يقول سليمان: «اُنْظُرْ عَمَلَ اللهِ». يحثُّنا سليمان هنا ليس فقط على أن ننظر إلى عمل الله، بل على أن نتأمَّله بعناية. فإننا نلاحظ عمل يدي الله في كلِّ مكان من حولنا؛ لكن، يلزم ألا نكتفي بمجرد النظر، بل علينا أن نتأمل في هذا العمل، ونقيِّمه، ونسعى إلى فهم معناه، ونبلغ قدرًا من الإدراك له. ينبغي أن نلاحظ عمل الله حتى نصل إلى فهم أفضل لطبيعة الله. فعلينا أن نتعلَّم كيف نفكر بطريقة لاهوتيَّة.

جاء التصريح التالي لسليمان في صورة سؤال نابع من تأمُّله الشخصي في عمل الله: «لِأَنَّهُ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى تَقْوِيمِ مَا قَدْ عَوَّجَهُ؟» ربما تكون هذه هي أكثر آية أستشهد بها في كلِّ الكتاب المقدس. وإنني عادةً ما أستخدمها في ملعب الجولف، بينما ألعب مع أشخاص يخفقون في ضرب الكرة بشكل مستقيم. فهم يطلبون مني، بصفتي خادمًا وقسًّا، أن أصلي لأجلهم، قائلين: «ألا تستطيع أن تفعل شيئًا حيال ذلك؟ أعجز عن ضرب الكرة بصورة صحيحة. هلا ساعدتَني أرجوك؟» وحينئذٍ أجيبهم: «يقول الكتاب المقدس ‹ما عوَّجه الله، لا أحد يقدر على تقويمه›». هذا استخدام طريف للآية، لكن الحق الذي يعلنه سليمان هنا هو بالتأكيد حقٌّ عميقٌ للغاية. فهو يتحدث هنا عن قوة الله وسلطانه، أي عن سيادته.

عناية الله

ثم قال سليمان في الآية ١٤: «فِي يَوْمِ الْخَيْرِ كُنْ بِخَيْرٍ، وَفِي يَوْمِ الشَّرِّ اعْتَبِرْ. إِنَّ اللهَ جَعَلَ هَذَا مَعَ ذَاكَ». ربما كانت الفكرة التي تعبِّر عنها هذه الآية هي أعظم حقيقة مَنسيَّة في العالم المسيحي. تشير هذه الكلمات إلى سيادة الله. ولم تكن الدعوة الموجودة هنا إلى التأمل في عمل الله هي فقط دعوة إلى فحص الخليقة، بل أيضًا إلى فحص عمل الله في التاريخ. فهي دعوة إلى التأمل في عناية الله، لأنه هو المصدر سواء لكلِّ ما هو مُفرح، أو لكلِّ ما هو مُحزن.

نميل أحيانًا إلى أن نقول: «إن ثقتي في الله تتقوَّى وتزداد حين تحدث لي أشياء جيدة أو مُبهجة. فعندئذٍ، يرغب لساني في الانطلاق شكرًا وحمدًا لله لأجل هذا الأمر الرائع». بعبارة أخرى، نحن نميل إلى رؤية عناية الله في حياتنا حين نصلِّي بصدق من أجل شيء ما، فيستجيب الله لصلاتنا. لكن، ماذا يحدث عندما نريد شيئًا في

استماتة، ونصلي لأجله بكلِّ قوتنا، لكن يقابَل طلبنا بالرفض من الله؟ عندئذٍ، يساورنا الشك في وجود إله من الأساس. فإن رفض الله يُعَد أمرًا سلبيًّا، في حين تعزِّز استجابته إيماننا.

لكن، يقول سليمان هنا إنك إذا أردتَ أن تكون حكيمًا، فعليك أن تنتبه جيدًا إلى كلا الأمرين، لأن يد الله تظل متحكِّمة في حالة الرفض كما في حالة القبول أيضًا. يُظهِر الله عنايته في وقت الألم كما في وقت الخير والرخاء أيضًا. فإن سلطانه السيادي يتجلَّى في كليهما.

في أعقاب الاعتداء الإرهابي الذي وقع على مبنى التجارة العالمي ومبنى وزارة الدفاع (البنتاجون) في الحادي عشر من سبتمبر من عام ٢٠٠١، استُخدِمت العديد من الكلمات لوصف ما حدث، من قبيل **كارثة**، و**فاجعة**. لكن، ربما كانت الكلمة الأكثر شيوعًا من غيرها هي كلمة «**مأساة**». وعادةً ما صاحبت هذه الكلمة صفة تصف هذا الاعتداء بأنه «مأساة **بلا مغزى**».

لو أتيح لي متَّسع من الوقت كي أخوض في تحليلٍ علمي ودقيق لهاتين الكلمتين معًا، لاستطعتُ إثبات أن عبارة «مأساة بلا مغزى» تنطوي على تناقض لفظي. فكي نُعرِّف شيئًا ما بأنه «مأساوي»، يتحتَّم أن يكون لدينا مقياسٌ معيَّنٌ للخير. فإن كلمة «مأساة» تفترض مسبقًا وجود قصد وترتيب من نوعٍ ما في هذا العالم. لكن، إن أمكن أن تحدث أشياء دون مغزى أو غرض، فلا يمكن إذن أن تسمَّى هذه بأنها مأساة، أو حتى بأنها بركة. فحينئذٍ، يصير كل شيء ببساطة عبارة عن أحداث دون مغزى أو غرض.

يُمثِّل تعبير «مأساة بلا مغزى» فلسفة حياتيَّة متعارضة تمامًا مع الفكر المسيحي، لأنه يفترض إمكانية حدوث شيء ما بلا قصد أو غرض. لكن، إن كان الله بالفعل هو الله، وإن كان هو إله عناية، وإن

كان متحكِّمًا بسيادته في كلِّ شيء، ففي النهاية، ما من شيء يحدث قط دون مغزى أو غرض.

وإن السؤال الذي يؤرِّقنا من جهة اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر هو: «لماذا حدث ذلك؟» يطرح المؤمنون هذا السؤال بأسلوب مختلف اختلافًا طفيفًا، قائلين: «لماذا **سمح** الله بحدوث ذلك؟» وهم يصيغون السؤال بهذه الطريقة لأنهم لا يقبلون إمكانية وقوع أحداث عبثية دون مغزى، ولأنه في لُبِّ الفلسفة الحياتيَّة المسيحيَّة يَكمُن يقين بأن وراء كل ما يحدث في التاريخ قصدٌ في فكر الإله القادر على كل شيء. ليس الله إلهًا فوضويًّا أو عشوائيًّا، بل لكل شيء قصد وغرض، بما في ذلك تلك الأحداث التي نصفها بأنها مآسٍ.

في الأيام التي تلت اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر، جاءت بعض التعليقات على فم بعض الوعَّاظ المعروفين، ولا سيما جيري فولويل (Jerry Falwell)، بشأن الأسباب المحتمَلة التي لأجلها سمح الله بوقوع هذه الاعتداءات. فقد قال إن هذه المأساة هي دينونة من الله على أمريكا لأجل انحلالها الأخلاقي، وسماحها بالإجهاض، وتدميرها لكيان الأسرة والعائلة، ومواقفها تجاه قضايا أخلاقية أخرى كانت سائدة في ذلك الوقت. أثار ذلك التصريح عاصفة من الجدل، بل وانتقده أيضًا مؤمنون بكلِّ قوة. وفي النهاية، تراجع فولويل علانية عن تصريحه. ليس من الحكمة دائمًا القفز إلى استنتاجات بشأن «أسباب» آلامنا.

والآن إن سألني أحدهم: «لماذا سمح الله بحدوث ذلك؟» ستكون إجابتي الصادقة الوحيدة هي: «لا أعلم». فإنني أعجز عن قراءة أفكار الله؛ ولستُ أدري إن كان هذا فعل دينونة بالحقيقة أم لا. لكن من ناحية أخرى، لا يمكنني أن أجد داخل الفلسفة الحياتية المسيحيَّة

ما قد يستبعد احتماليَّة أن يكون هذا فعل دينونة من الله. فإن الكتاب المقدس يوضح جيدًا أن الله كان يوقع من آن لآخر محنًا وبلايا على أممٍ معيَّنة، كفعل دينونة عليهم. لكن، يستحيل أن نعرف ما إن كانت اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر على وجه الخصوص هي، في حقيقة الأمر، فعل دينونة من الله أم لا، لأن الله لم يخبرنا بذلك. لكن، إذا سألتني هل كان لله دخلٌ في هذا الأمر أم لا، سأجيبك بنعم، لأنني مؤمنٌ تمامًا بالعقيدة المسيحيَّة للعناية الإلهيَّة. فإنني على قناعة بأن الله كان متداخلًا في هذا الحادث، وأنه وقع حسب قصده. لكن، ليست لدى أدنى فكرة عن الماهية المحدَّدة لهذا القصد.

لكنَّ الناتج النهائي الذي ينبغي أن يصل إليه كل مَن يؤمن بإله العناية هو أنه، في النهاية، لا توجد مآسٍ بلا مغزى. فقد وعد الله بأن كلَّ الأشياء التي تحدث - أي كل وجع، أو ألم، أو مأساة - وقتية، وأنه يعمل داخل هذه الأحداث، ومن خلالها، لأجل خير الذين يحبونه (رومية ٨: ٢٨). ولهذا السبب قال الرسول بولس إن الأوجاع، والآلام، والضيقات التي نقاسيها في العالم الحاضر غير جديرة تمامًا أن تقارَن بالمجد والنعيم الذي ذخره الله لأجل شعبه (رومية ٨: ١٨).

فوائد التأمُّل في عمل الله

يبدو لنا في بعض الأحيان أن الأجيال السابقة من المؤمنين كانت لديهم نظرة أسمى منا عن الله. ربما يكمن سبب ذلك في أنهم كانوا أكثر اختبارًا منا للألم، والاضطهاد، والموت، وأكثر تآلفًا معه. فبسبب كل ما مرُّوا به، أُجبِروا، في خضم محنهم وضيقاتهم، على التأمل في يد الله وعنايته.

خلاصة الأمر هي أن يد الله متداخلة في المحن والضيقات. فإن سيادته تتجلَّى بوضوح في الجانب المظلم من الحياة. نجد هذا بكثرة

في الكتاب المقدس حتى أنني متعجب من أننا نجد صعوبة كبيرة في فهمنا له. لكن، أعتقد أن سبب ذلك هو أننا نغلق أذهاننا عن التفكير في هذه الأمور. فلماذا نذهب إلى بيت الفرح من الأساس؟ لا يعد الحفل، بالنسبة للكثيرين منا، مجرد فرصة لقضاء وقت ممتع، لكنه فرصة للهروب من التفكير، ومن التأمُّل في «ظروف حياتنا». فإننا نبحث عن مهرب، أو عن وسيلة متعة تحجب بطريقة ما المخاوف والأنَّات والأوجاع التي نحملها. لكن الحكيم هو مَن يبحث عن إصبع الله في بيت الفرح، كما في بيت النوح، أي في كل ما يقع من أحداث.

تثير الكيفية التي بدأ بها سليمان الأصحاح الثامن من سفر الجامعة اهتمامنا. فعقب تأكيده على تلك الحقائق الصعبة بشأن سيادة الله مباشرة، كتب الكلمات التالية: «مَنْ كَالْحَكِيمِ؟ وَمَنْ يَفْهَمُ تَفْسِيرَ أَمْرٍ؟ حِكْمَةُ الإِنْسَانِ تُنِيرُ وَجْهَهُ، وَصَلَابَةُ وَجْهِهِ تَتَغَيَّرُ» (الآية ١). فبعدما سمعنا سليمان يخبرنا بأن الذهاب إلى بيت النوح خيرٌ من الذهاب إلى بيت الفرح، ربما توقَّعنا أن تكون مشيئة الله لأجل شعبه هي أن يكونوا أناسًا متأمِّلين، ومستغرقين في التفكير في صعوبات الحياة، لدرجة أن يسيروا في الأنحاء مُتصلِّبي الوجوه، وعابسين. لكن، ليس هذا ما أراد كاتب سفر الجامعة أن يقوله على الإطلاق، لكنه يؤكِّد، في المقابل، أننا حين ندرك سيادة الله، ستتغيَّر ملامح وجوهنا. فإن هذا سيغير من سلوكنا الخارجي. فإن الذين يدركون سيادة الله يفرحون حتى في خضم الألم. وهذا الفرح ينعكس على وجوههم، لأنهم يدركون أن ألمهم ليس بلا قصد أو غرض.

الفصل الخامس

الدعوة الأخيرة

تسمَّرت عيناي على الساعة المعلَّقة فوق جدار غرفة الانتظار. كانت الساعة خالية من أية زينة أو زخرفة. فقد صُنِعت فقط للمنفعة، وكان الغرض الوحيد منها هو إظهار الوقت الحالي من تاريخ العالم.

ووراء الأبواب المغلقة، كان الكثيرون معلَّقين في الزمن، إذ كانت الدقائق التي تمر على البعض هي الدقائق الأخيرة من حياتهم.

كنت ضمن المنتظرين. وقد اجتمعت بعض العائلات معًا للصلاة من أجل أحبائهم، في انتظار أن تصلهم أية أخبار عن نتائج بعض العمليات الجراحية.

حدَّقتُ مرة أخرى في الساعة، التي كانت تروي قصة. ولم تَرُق لي رسالتها. فقد استغرقت العملية الجراحية وقتًا أطول من اللازم. كان من المفترض أن تكون الجراحة مجرد جراحة إصلاحية، و«روتينية».

فلم يكن هناك ما يدعو للقلق. فقد أُجريَ هذا النوع من العمليات الجراحية عددًا لا يُحصَى من المرات دون أن تسفر عن أية نتائج سلبيَّة. لكن، في هذه المرة، استغرقت العملية وقتًا أطول من اللازم.

مرَّ مزيدٌ من الوقت، ثم، أخيرًا، ظهر أحد الجرَّاحين، وكان لا يزال مرتديًا زي الجراحة الأخضر. ثم قال لي: «سيد سبرول، واجهنا للأسف بعض المضاعفات. فقد اكتشفنا ورمًا لم نكن نتوقَّعه. سننتظر النتائج النهائية لفحص الأنسجة، لكن، لا يساروني شك كبير في كونه ورمًا خبيثًا».

كانت كلماته بمثابة لكمة قوية في معدتي، لكنني طرحتُ عليه في هدوء السؤال الذي كنت أريد أن أصرخ به: «وما هي التوقُّعات بشأن تطوُّر المرض؟»

أجابني: «للأسف، أخشى أن التوقعات ليست جيدة. بإمكاننا أن نجرِّب العلاج الكيميائي؛ لكن، كي أكون صريحًا معك، كلُّ ما نأمله هو مزيد من الوقت. فهذا النوع من السرطان عنيف وشرس، وفي غالبية الأحيان، يؤدي إلى الوفاة».

سألتُ الطبيب: «كم تبقَّى لدينا من وقت؟»

أجابني: «لا يمكننا الجزم بهذا بكلِّ يقين. لكن يمكنني أن أقول إن لدينا فترة ستة أشهر إلى سنة؛ وربما أكثر من ذلك إن أثبت العلاج فاعليته».

سألتُه: «وهل تعرف هي ذلك؟»

أجابني: «ليس بعد. هي الآن في غرفة الإفاقة وتحت تأثير مخدِّر قوي. لكنني أخطط لإخبارها بالأمر غدًا. وأحبِّذ أن تكون برفقتها حين أبلغها بالنتائج. سأكون هنا في حوالي الساعة الواحدة».

لم أستطع النوم في تلك الليلة. كنتُ مرتعبًا. ولم تزوِّدني دراساتي اللاهوتية بأية معرفة عمليَّة عن كيفية التعامل مع مثل هذا المرض.

كيف يمكنك أن تخبر أحدهم بأنه مصابٌ بمرض مُميت؟ هل تُخفي الحقيقة عنه؟ وهل تقدم له أملًا زائفًا؟ وهل تقترح عليه احتمالية حدوث معجزة ربما لا يُسَرُّ الله بأن يصنعها؟

في ظهيرة اليوم التالي، اقتربتُ إلى غرفة صديقتي والخوف يعتريني. وحين دخلتُ، كانت واعية بشكل ملحوظ، وهادئة بحسب الظاهر. لكن، أخبرتني عيناها بأنها عرفت الخبر بالفعل.

كان الطبيب لطيفًا ورقيقًا، لكن في الآن ذاته صريحٌ ومباشرٌ. فقد قال: «لم يرق لي ما وجدناه بالأمس». وبأسلوب لطيف ومترفق، شرح بدقة ماهية ما وجدوه، ثم تحدث عن إجراءات العلاج الكيميائي، وأوضح الضرر الذي أصاب بالفعل بعض الأعضاء الحيوية.

شعرتُ عندئذٍ أن المريضة كانت أكثرنا هدوءً وسكينة. فقد تحدثت معنا كي تهدئنا، قائلة: «كلُّ شيء على ما يرام. أنا مستعدة لكل ما أعدَّه الله لي».

عاشت صديقتي بعد هذا لمدة عامين، وأذهلت الجميع، بمن فيهم الأطباء. فقد ظلت نشيطة في عملها، وزارت الأراضي المقدسة، وكانت ترتِّب منزلها، وتعتني بأسرتها. وأخيرًا، انتقلت في كرامة.

خلال هذين العامين، دارت بيننا العديد من الأحاديث، وصلَّينا معًا، وبكينا وضحكنا معًا. وقد أعطتني تعليمات تفصيلية تخص جنازتها، وناقشت معي وصيتها.

كانت هذه المرأة مؤمنة اعتبرت أشهُرها الأخيرة في هذا العالم بمثابة دعوة، وهيَّأت نفسها ذهنيًا وروحيًا للموت. فهي لم تعتبر الموت **نهاية** للحياة، بل **مرحلة** في الحياة. فقد كان الموت تجربة لم تجتزها قبلًا، وهو التجربة الأخيرة في الحياة التي على كلِّ إنسان أن يجتاز فيها.

الموت باعتباره دعوة

فيما سبق، اعتبرنا الألم دعوة. لكن، هل نجرؤ أيضًا أن نعتبر الموت دعوة؟

أدلى كاتب سفر الجامعة بالتصريح التالي: «لِكُلِّ شَيْءٍ زَمَانٌ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ تَحْتَ السَّمَاوَاتِ وَقْتٌ: لِلْوِلَادَةِ وَقْتٌ وَلِلْمَوْتِ وَقْتٌ» (جامعة ٣: ١-٢)؛ وكذلك، قال كاتب الرسالة إلى العبرانيين: «وُضِعَ لِلنَّاسِ أَنْ يَمُوتُوا مَرَّةً ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ الدَّيْنُونَةُ» (عبرانيين ٩: ٢٧).

لاحظ معي لغة الكتاب المقدس؛ فهو يتحدث عن الموت باعتباره «أَمْر تَحْتَ السَّمَاوَاتِ»، وشيئًا «وُضِع» (أو «عُيِّن») للناس. فإن الموت تعيين إلهي، أي جزءٌ من مقاصد الله لحياتنا. يدعو الله كلَّ إنسان إلى أن يموت. فهو المتحكِّم في كل الحياة، بما في ذلك آخر تجاربها.

عادةً ما نحصر مفهوم الدعوة في وظائفنا أو أعمالنا. لكن، تأتي كلمة «دعوة» («vocation») من الكلمة اللاتينية *vocare*، التي معناها «يدعو». وعند استخدام الكلمة بالمعنى المسيحي، تشير إلى دعوة إلهيَّة، أي استدعاء يأتي من عند الله ذاته. فهو يدعو الناس إلى أن يعلِّموا، ويعظوا، ويغنُّوا، ويصنعوا سيارات، ويغيِّروا الحفاضات. هناك الكثير من الدعوات بقدر تعدُّد جوانب حياة البشر.

تختلف دعواتنا بحسب اختلاف الوظائف والمهام التي أوكلها الله إلينا في هذه الحياة. لكننا نشترك جميعًا معًا في دعوة الموت. جميعنا مدعوون إلى أن نموت. وتلك الدعوة آتية من عند الله بقدر «الدعوة» إلى خدمة المسيح تمامًا. تأتي هذه الدعوة، أحيانًا، فجأة ودون سابق إنذار؛ وفي أحيان أخرى، تأتي بإنذار سابق. لكنها تأتي إلينا جميعًا، من عند الله.

أعلم أن بعض المعلِّمين يخبروننا بأن الله ليست له أية علاقة

بالموت. فهم يعتبرون الموت أداة إبليس البغيضة. ويلقون بكلِّ اللوم من جهة أيِّ وجع، أو ألم، أو مرض، أو مأساة على الشرير. والله بريء ومعفى من أية مسؤوليَّة. الهدف من هذا الرأي هو ضمان ألا يقع على عاتق الله اللوم من جهة أي شيء سيء يحدث في هذا العالم. ويقال لنا إن «الله لا يريد دائمًا سوى الشفاء». وإن لم يتحقَّق هذا الشفاء، يقع اللوم على الشيطان، أو علينا نحن. ويقول هؤلاء المعلِّمون إن الموت ليس ضمن خطة الله، لأنه يُمثِّل انتصارًا للشيطان على عالم الله.

ربما تجلب هذه الآراء راحة مؤقَّتة للمتألمين، لكنها غير صحيحة. فهي لا تمت بصلة للمسيحيَّة الكتابيَّة. فإن الغرض منها هو إعفاء الله من أيِّ لوم، لكنها تناقض سيادته.

أجل، إن إبليس موجود. فهو ألدُّ أعدائنا. وهو يفعل كلَّ ما بوسعه كي يُدخِل البؤس إلى حياتنا. لكنَّ الشيطان ليست له سيادة مطلقة. فهو لا يمسك بمفاتيح الموت.

عندما ظهر يسوع للرسول يوحنا في رؤيا على جزيرة بطمس، عرَّف نفسه بهذه الكلمات: «لَا تَخَفْ، أَنَا هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ، وَالْحَيُّ. وَكُنْتُ مَيْتًا، وَهَا أَنَا حَيٌّ إِلَى أَبَدِ الْآبِدِينَ! آمِينَ. وَلِي مَفَاتِيحُ الْهَاوِيَةِ وَالْمَوْتِ» (رؤيا ١: ١٧-١٨).

يمسك يسوع بمفاتيح الموت، ولا يستطيع الشيطان أن يخطفها من يده. فإن قبضة المسيح مُحكَمة وقوية. وهو يمسك بهذه المفاتيح، لأنها له. فقد دُفِع إليه كل سلطان في السماء وعلى الأرض، وهذا يشمل كلَّ سلطان على الحياة والموت. فإن ملاك الموت رهنُ إشارته.

شهد تاريخ العالم ظهور العديد من صور المذهب الثنائيّ الدينيَ. يؤكِّد المذهب الثنائي (dualism) وجود قوتين متساويتين ومتضادتين. تختلف تسمية هاتين القوتين؛ فأحيانًا يُطلَق عليهما الخير والشر، أو

الله والشيطان، أو اليين واليانج.[٤] وتظل هاتان القوتان في صراع أبدي. وبما أنهما متساويتان، ومتضادتان، يظل هذا الصراع قائمًا إلى الأبد، دون فوز أيٍّ طرف منهما، وتسلُّطه على الآخر. وإن العالم مقدَّر له أن يكون ساحة المعركة الأبديَّة الدائرة بين هاتين القوتين المتعاديتين. ونحن البشر ضحايا هذا الصراع، أي قطع الشطرنج في لعبة الشطرنج الأبديَّة التي يلعبها هذان الطرفان معًا.

يتصادم المذهب الثنائي مع المسيحيَّة. فإن الإيمان المسيحي لا يتفق في شيءٍ مع المذهب الثنائي. أجل، ربما يكون الشيطان بالفعل مقاومًا لله، لكنه ليس مساويًا أو مكافئًا له بأيِّ حال من الأحوال. فالشيطان مخلوقٌ، بينما الله هو الخالق. والشيطان قوي، بينما الله كليُّ القدرة. والشيطان ذكي وماهر، بينما الله كليُّ العلم. والشيطان محدود بالمكان، بينما الله كليُّ الوجود. والشيطان محدود، بينما الله غير محدود. وتطول القائمة. فإن الكتاب المقدس يوضح جيدًا أن الشيطان ليس قوة مطلقة بأي حال من الأحوال.

كذلك، ليس محكومًا علينا كبشر أن نكون أطرافًا في صراع أبدي لا أمل في انتهائه أو حسمه. فإن رسالة الكتاب المقدس هي رسالة نصرة؛ وهذه النصرة كاملة، وقاطعة، ونهائية. والأمر اليقيني ليس هلاكنا نحن، بل هلاك الشيطان. فقد سُحِقت رأسه بعقب المسيح، الذي هو الألف والياء.

ففوق كلِّ ألم وموت، يقف الرب المصلوب والقائم من الأموات. فهو قد غلب العدو الأساسي للحياة، وأباد سلطان الموت. وهو يدعونا إلى أن نموت، وإلى أن نطيعه من جهة هذا الانتقال الأخير في

---

[٤] المترجم: بحسب الفلسفة الصينيَّة، يشير هذا المفهوم إلى أن كل الكائنات في الكون فيها قوتان أو طاقتان متضادتان، ويتوازن كل شيء بحسب اعتماد كل قوة منهما على الأخرى، وتكميل كل منهما للأخرى.

الحياة. فبسبب المسيح، لم يَعُد الموت هو النهاية، لكنه صار عبورًا من العالم الحاضر إلى العالم الآتي.

لا يشاء الله دائمًا الشفاء. فلو كان كذلك، لكان الآن يعاني من إحباط غير متناهٍ، لأنه يرى مشيئته تُحبَط مرارًا بموت شعبه. فهو لم يشأ شفاء استفانوس من الجراح التي أصيب بها من جراء الحجارة التي انهالت عليه. ولم يشأ شفاء موسى، أو يوسف، أو داود، أو بولس، أو أوغسطينوس، أو مارتن لوثر، أو جون كالفن. فقد مات هؤلاء جميعًا في الإيمان. وبواسطة الموت، وبعد الموت، يتحقق الشفاء النهائي.

ينادي المعلِّمون بأنَّ كفارة المسيح تتضمَّن شفاءً. أجل هذا صحيح. لكن، كما أن يسوع قد حمل جميع خطايانا على الصليب. ومع ذلك، لا يخلو أحدُنا من الخطيَّة في هذه الحياة؛ هكذا أيضًا، لم يُعتَق أيٌّ منا من المرض في هذه الحياة. فإن الشفاء الكامن في الصليب حقيقي، ونحن نشترك في مزاياه الآن، وفي هذه الحياة. لكن ملء الشفاء من كلٍّ من الخطيَّة والمرض سيتحقَّق في السماء. ولهذا، يظل محتمًا علينا أن نموت في أوقاتنا المُعيَّنة.

قطعًا، يستجيب الله للصلوات، ويهب شفاءً لأجسادنا في هذه الحياة. لكن، حتى هذا الشفاء نفسه مؤقتٌ. فقد أقام يسوع لعازر من الموت، لكنه مات مرة أخرى؛ وأعاد البصر للمولود أعمى والسمع للأصم، لكن جميع أولئك ماتوا في النهاية. لم يمت هؤلاء لأن إبليس انتصر في النهاية على يسوع، بل لأن يسوع هو مَن دعاهم إلى أن يموتوا.

حين يدعونا الله، دائمًا ما تكون دعوته هذه مقدَّسة. ومن ثَمَّ، فإن دعوة الموت أيضًا دعوة مقدسة. وإن إدراك ذلك هو واحدٌ من أهم الدروس على الإطلاق التي يمكن للمؤمن أن يتعلَّمها. وحين يأتي

هـذا الاسـتدعاء، قـد تختلـف اسـتجابتنا؛ فربمـا نغضـب، أو نشـعر بالمـرارة، أو يصيبنـا الرعـب. لكـن، إن كنـا نحسـب هـذا الاسـتدعاء دعـوة مـن اللـه، لا تهديـدًا مـن الشـيطان، سـنكون مسـتعدِّين تمامًـا للتعامـل مـع صعوباتـه.

إكمال السعي

لـن أنسى مـا حييـتُ الكلـمات الأخـيرة التـي قالهـا لي أبي. كنـا نجلـس معًـا عـلى أريكـة غرفـة المعيشـة، وكان جسـده قـد أصيـب بثـلاث سـكتات دماغيَّـة، شـوَّهت النصـف الأيـسر مـن وجهـه مـن جـراء الشـلل، فتدلَّـت عينـه اليـسرى والنصـف الأيـسر مـن شـفتيه، ولم يعـد قـادرًا عـلى التحكُّـم فيهـما. وقـد تحـدَّث إليَّ بلسـانٍ ثقيـلٍ، وكان مـن الصعـب تمييـز كلماتـه، لكـنَّ معناهـا كان واضحًـا وضـوح الشـمس. فقـد قـال: «قَـدْ جَاهَـدْتُ الْجِهَـادَ الْحَسَـنَ، أَكْمَلْـتُ السَّـعْيَ، حَفِظْـتُ الْإِيمَـانَ» (٢ تيموثـاوس ٤: ٧).

كانـت هـذه كلماتـه الأخـيرة. وبعـد بضـع سـاعات، أُصيـب بالنزيـف الرابـع والأخـير في المـخ. وقـد عـثرتُ عليـه فاقدًا الوعـي عـلى الأرض، وقطرات مـن الدمـاء تخـرج مـن جانـب فمـه. كان قـد دخـل في غيبوبـة. ومـن رحمـة اللـه أنـه فـارق الحيـاة بعـد يـوم ونصـف، دون اسـتعادة وعيـه.

اتَّسـمت كلماتـه الأخـيرة لي بالشـجاعة، بينـما اتسـمت كلـماتي الأخـيرة لـه بالجُـبن. فقـد أبديـتُ اعـتراضي عـلى كلماتـه هـذه التـي تُنـذِر بقـرب موتـه، وأجبتـه في حِـدَّة: «لا تقـل ذلـك يـا أبي!»

تفوَّهـتُ بأشـياء كثـيرة في حيـاتي تمنَّيـتُ بشـدة لـو لم أتفـوَّه بهـا قـط. لكـن، لم تكـن هنـاك كلـمات تفـوق في خزيهـا بالنسـبة لي هـذه الكلـمات. لكـن، لا يمكننـا، للأسـف، التراجـع عـمَّا ننطـق بـه، تمامًـا كـما لا يمكننـا إرجـاع سـهم إلى مكانـه بعـد شـد وتـر القـوس إلى آخـره.

كانـت كلـماتي بمثابـة توبيـخٍ لأبي. فقـد رفضـتُ أن أعطيـه شرف أن

يخبرني بشهادته الأخيرة. كان يعلم جيدًا أنه يحتضر. وقد رفضت ما كان قد قبله هو بالفعل بصدر رحب.

كنت في السابعة عشر من عمري، وكنت أجهل كلَّ شيء عن الموت. لم تكن هذه السنة جيدة، إذ شاهدت فيها أبي يموت ببطء طيلة ثلاثة أعوام. لكنني لم أسمعه قط يتذمر أو يعترض. كان يجلس على الكرسي نفسه يومًا تلو الآخر، وأسبوعًا تلو الآخر، وعامًا تلو الآخر. وكان يقرأ الكتاب المقدس مستخدمًا عدسة مكبِّرة. لم أكن أدري شيئًا عن القلق والمخاوف التي كانت تعتريه. فهو لم يعد قادرًا على العمل، لذا، لم يعد لدينا أي مصدر دخلٍ. كما لم يكن لدينا تأمينٌ ضد العجز. فقد جلس في ذلك المكان، منتظرًا الموت، ومراقبًا مدَّخرات حياته تتبدَّد مثل حياته نفسها.

كنتُ غاضبًا من الله، لكن، لم يكن أبي غاضبًا من أحد. فقد أمضى أيامه الأخيرة أمينًا تجاه دعوته. وجاهد الجهاد الحسن. فإن الجهاد الحسن هو الجهاد والكفاح دون خصومة، أو مرارة، أو رثاء للذات. لم أشهد يومًا معركة كهذه.

أكمل أبي السعي، بينما لم أكن قد وقفتُ بعد على خط البداية. فقد ركض في السابق الذي دعاه إليه الله، حتى خارت قدماه. لكنه، بشكلٍ ما، ظل يركض. وحين فقد قدرته على المشي، ظل يجلس معنا على مائدة العشاء كلَّ ليلة. كان يطلب مني مساعدته في هذا، وكان هذا طقسًا يوميًّا. ففي كلِّ ليلة، كنت أذهب إلى غرفته، حيث كان يجلس على الكرسي نفسه، وأميل بظهري إلى الوراء أمامه، حتى يتمكَّن من لفِّ ذراعيه حول عنقي وكتفيَّ. فكنت أضم معصميه معًا، وأقف، ثم أرفعه عن كرسيه، وأجرُّه حتى مائدة غرفة الطعام. فقد أكمل السعي وأنهى السباق. وعزائي الوحيد هو أنني استطعت أن أساعده، ورافقته حتى خط النهاية.

كانت المرة الأخيرة التي حملتُه فيها هي حين وجدته فاقدًا للوعي على الأرض. وبطريقة ما، تمكنت من وضعه في فراشه حيث فارق الحياة. وفي أثناء تلك الرحلة نحو الفراش، لم يستطع مساعدتي على سحبه، ولم يستطع وضع ذراعيه حول عنقي. واستلزم الأمر مني جهدًا مختلطًا بالأدرينالين كي أرفعه عن الأرض إلى الفراش. لكن، كان ينبغي أن أفعل ذلك. فلم يكن من الوارد لي أن أتركه يموت على الأرض.

لم أكن مؤمنًا حقيقيًّا حين مات والدي. وكان الإيمان شيئًا يفوق معرفتي وإدراكي. وحين قال لي والدي: «حَفِظْتُ الْإِيمَانَ»، لم أستوعب أهميَّة هذه الكلمات، واستبعدتُها عن ذهني تمامًا. لم تكن لديَّ أدنى فكرة أنه اقتبس هذه الكلمات من رسالة الرسول بولس الأخيرة إلى تلميذه الحبيب تيموثاوس. فقد أُهدِرت شهادة أبي الرائعة في ذلك الوقت على شخصٍ مثلي. لكن، لم يَعُد الحال هكذا اليوم. فإنني الآن أفهمها جيدًا. أريد الآن أن أثابر كما ثابر أبي. أريد أن أركض في السباق، وأكمل السعي، كما فعل هو من قبلي. ليست لديَّ أيَّة رغبة في أن أتألم مثلما تألَّم هو، لكنني أريد أن أحفظ الإيمان مثلما حفظه هو.

أكثر شيء علَّمني أبي إياه هو أنه علَّمني كيف أموت. فقد تَركَت الأحداث التي وصفتُها لتوي فيَّ أثرًا لا يُمحى. فطوال سنوات بعد وفاة أبي، كان يراودني كابوس متكرِّر. كان الحلم واضحًا، ويبدو واقعيًّا للغاية. كنت أرى والدي حيًّا من جديد. ومن ثَمَّ، كانت بداية الحلم مبهجة. ففي نومي، صار المستحيل حقيقة. إنه حيٌّ! لكن، سرعان ما كان فرحي هذا يتحول إلى يأس حين كنت أرى شكله وملامحه في الحلم. فقد كان مشلولًا وعاجزًا، يحتضر بلا أمل، وبلا حول أو قوة. لم أرَ أبي في حلمي في صحة جيدة، يشع بالحياة، لكنني رأيت أبًا عالقًا في سكرات الموت.

كلما راودني هذا الكابوس، كنتُ أستيقظ وأنا أتصبب عرقًا، شاعرًا بالغثيان والخواء الشديد. لكنني لم أكتشف أن الموت ليس هكذا إلا حين درستُ الكتاب المقدس. ولم تتوقف كوابيسي نهائيًّا إلا حين اكتشفتُ محتوى الإيمان المسيحي.

اجتياز وادي ظل الموت

حين يدعونا الله إلى أن نموت، فهو يرسلنا في مهمة. ربما يبدو الطريق مُخيفًا، ومليئًا بالحواجز، وحافلًا بالمزالق. وربما نتساءل إن كنا سنتحلَّى بالشجاعة أم لا كي نشق طريقنا حتى خط النهاية، لأن هذا الطريق يقتادنا عبر وادي الظل.

إن وادي ظل الموت هو وادٍ تبدو فيه أشعة الشمس في المعتاد مطموسة. ويبعث مجرد الاقتراب منه قشعريرة فينا. وربما نُفضِّل الدوران من حوله بحثًا عن طريق جانبي أكثر أمانًا. لكن، بمقدور رجال ونساء الإيمان أن يدخلوا ذلك الوادي غير خائفين من شيء. ويُخبرنا دواد كيف يمكن أن يحدث هذا: «أَيْضًا إِذَا سِرْتُ فِي وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ لَا أَخَافُ شَرًّا، لِأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي. عَصَاكَ وَعُكَّازُكَ هُمَا يُعَزِّيَانِنِي» (مزمور ٢٣: ٤).

كان داود راعي أغنام، لكنه، في هذا المزمور، وضع نفسه مكان الخراف. فقد رأى نفسه حملًا تحت عناية الراعي الأعظم. وقد دخل هذا الوادي غير خائف لسبب رئيسي واحد، ألا وهو أن الراعي كان سائرًا معه. فقد أودع نفسه لعناية هذا الراعي وحمايته.

كذلك، وجد الحمل راحته في أسلحة الراعي، أي في عصاه وعكازه. كان الراعي القديم مسلَّحًا. فقد كان يمكنه استخدام الجزء المعقوف من عكازه لإنقاذ الحمل من حفرة؛ وكان بارعًا في استخدام عصاه ضد الحيوانات المفترسة التي تحاول افتراس خرافه. فدون الراعي،

كانت الخراف لتمسي بلا حول أو قوة في وادي الظل هذا. لكن، طالما كان الراعي موجودًا، ما من شيء يمكن أن يرعب الخراف.

وإن حدث وهاجم أسدٌ الراعي، ونجح في قتله، تتبدَّد الخراف، وتصير عُرضة لفك الأسد. فإذا سقط الراعي، يكون أمر الخراف قد انتهى تمامًا.

لكن، لدينا راعٍ لا يمكن أن يسقط، ولن يتخلَّى البتَّة عن قطيعه أمام أول تهديد بالخطر. وإن راعينا مسلَّح بقوة مطلقة. ولا يشكل وادي الظلال أي تهديد أو خطرٍ له، لأنه هو ربُّ هذا الوادي.

كانت ثقة داود متأصلة في اليقين المُطلق في وجود الله. فقد كان يدرك أن الدعوة الإلهيَّة مصحوبة بمعونة إلهيَّة، وبالوعد اليقيني بالحضور الإلهي. لن يرسلنا الله إلى حيث يرفض هو نفسه أن يذهب.

كان صديقي المقرَّب في كليَّة اللاهوت يُدعَى دون مكلور (Don McClure). كان دون ابنًا لاثنين من أبرز المرسلين. وقد ترعرع في الأماكن النائية من أفريقيا. اكتشف دون شخصيًّا العديد من القبائل البدائيَّة من السكان الأصليين، وكان أول رجل أبيض البشرة يرونه على الإطلاق. كما قتل بنفسه العديد من ثعابين الكوبرا داخل غرفة نومه، والتقى عن قرب بتمساح قفز داخل قاربه الصغير، بل وأنقذه والده في اللحظة الأخيرة من جماعة من الأسود الجائعة أحاطت به.

أحتفظ في كتابي المقدس بقصاصة من صحيفة كتبت عن حادث استشهاد والد دون. كان مخيَّم دون ووالده في منطقة نائية من إثيوبيا. وفي أثناء الليل، استيقظوا على هجوم مفاجئ من رجال عصابات شيوعيين. تعرَّض دون ووالده للأسر، وأُوقِفا أمام فرقة كي ينفَّذ فيهما حُكمٌ بالإعدام رميًا بالرصاص. وقف دون بجوار والده حين أطلق

الرجال النيران، أولًا، على والده، فأردوه قتيلًا في الحال. سمع دون صوت الضربة، ورأى الدخان يتصاعد من البندقيَّة التي كانت مصوَّبة نحوه من مسافة ستة أقدام. وعندئذٍ، سقط أرضًا بجوار والده، وأصيب بالصدمة إذ اكتشف أنه لا يزال على قيد الحياة.

اختفى هؤلاء الرجال في ظلام الليل بالسرعة نفسها التي ظهروا بها، وظلَّ دون منطرحًا على الأرض متظاهرًا بالموت حتى خيَّم الصمت على المكان. كان يعاني من إصابات طفيفة في الجلد، لكنه كان مغطًّى بحروق بفعل البارود. قاوم دون الرغبة في الهروب، ومكث في هذا المكان وقتًا كافيًا كي يحفر بيديه قبرًا غير عميق، حيث دفن جثمان والده.

كنتُ أطلق على دون اسم «طرازان»، لأن حياته كانت صورة من أساطير جوني ويسمولر (Johnny Weissmuller). وقد كان (وحتى يومنا هذا) أشجع شخص قابلته على الإطلاق. فلو علقتُ يومًا ما في خندق، وراء خطوط العدو، في أثناء معركة، لوددتُ أن يكون دون معي. كنتُ لأشعر بالفخر إن سار دون بجانبي في وادي الظل. لكن، معي مَن هو أعظم من دون، وهو يَعِد بمرافقتي داخل ذلك الوادي.

الله هو ملجأنا وقوتنا في أزمنة الضيق. وقد وَعَد بأن يسير معنا داخل الوادي، لكن، يتعلق وعده الأهم بما يقع على الجانب الآخر من هذا الوادي. وعد الله بأن يرافقنا طوال الرحلة، كي يرشدنا إلى ما يوجد بعد الوادي. فإن وادي ظل الموت ليس أخدودًا مسدودًا، لكنه ممر يوصل إلى وطن أفضل. يؤدي هذا الوادي إلى الحياة، وهي حياة أفضل وأكثر خصبًا من أيِّ شيء يمكننا تخيله. فإن هدف دعوة الموت هو السماء عينها. لكن، ما من سبيل يؤدي إلى السماء إلا هذا الوادي.

فهم داود ذلك أيضًا. فمع أن داود قد عاش قبل المسيح، وقبل القيامة، وقبل إعلان العهد الجديد عن المجد، لكن، لم يكن الله صامتًا تمامًا حيال هذا الأمر، بل كان رجاء «حضن إبراهيم» (لوقا ١٦: ٢٢) موجودًا بالفعل.

أقرَّ داود بإيمانه بهذا، قائلًا: «[كنتُ لأفقد شجاعتي] لَوْلَا أَنِّي آمَنْتُ بِأَنْ أَرَى جُودَ الرَّبِّ فِي أَرْضِ الْأَحْيَاءِ» (مزمور ٢٧: ١٣).

فإن إله إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، هو إله أحياء. وإله داود هو إله أحياء. وإله يسوع هو إله أحياء. فهناك حياة بعد ظل الموت.

ركض كلٌّ من أبي وصديقي في سباقٍ لأن الله دعاهما إلى الركض فيه. وقد أكملا السعي لأن الله رافقهما، معينًا إياهما على عبور جميع الحواجز. وقد حفظا الإيمان لأن الله حفظهما.

يا له من إرث عظيم! وهذا هو الإرث الذي يهبه المسيح القائم من الأموات لجميع خرافه.

الفصل السادس

الموت في الإيمان

ليس السؤال الذي يؤرِّقنا بشأن الموت هو: «هل سنموت أم لا؟» فهناك دعابة رهيبة تقول إنه لا توجد سوى حقيقتان يقينيتان في الحياة، هما الموت والضرائب. قد ينجح البعض في تجنُّب الضرائب، أو التهرُّب منها، بينما الوسيلة الوحيدة التي يمكننا بها تجنُّب الموت هي أن نبقى على قيد الحياة حتى مجيء المسيح ثانيةً.

اضطررتُ إلى إجراء تغيير في كلمات الجملة السابقة. فقد كتبتُ في البداية: «الوسيلة الوحيدة التي يمكننا بها تجنب الموت هي أن **نكون على قيد الحياة** عند مجيء المسيح ثانية». لكنني غيَّرتُ الكلمات لأن جملتي الأصليَّة كانت، على أقل تقدير، مضلِّلة، وعلى أسوأ تقدير، هرطقة. يؤكِّد لنا العهد الجديد أن جميع الذين هم في

المسيح قطعًا سيكونون على قيد الحياة عند مجيئه. فحتى إن متنا قبل مجيئه ثانية، سنقوم من الموت كي نشهد مجيئه المجيد:

ثُـمَّ لَا أُرِيـدُ أَنْ تَجْهَلُـوا أَيُّهَـا الْإِخْـوَةُ مِـنْ جِهَـةِ الرَّاقِدِيـنَ، لِـكَيْ لَا تَحْزَنُـوا كَالْبَاقِـينَ الَّذِيـنَ لَا رَجَـاءَ لَهُـمْ. لِأَنَّـهُ إِنْ كُنَّـا نُؤْمِـنُ أَنَّ يَسُـوعَ مَـاتَ وَقَـامَ، فَكَذَلِـكَ الرَّاقِـدُونَ بِيَسُـوعَ، سَـيُحْضِرُهُمُ اللـهُ أَيْضًـا مَعَـهُ.

فَإِنَّنَـا نَقُـولُ لَكُـمْ هَـذَا بِكَلِمَـةِ الـرَّبِّ: إِنَّنَـا نَحْـنُ الْأَحْيَـاءَ الْبَاقِـينَ إِلَى مَجِـيءِ الـرَّبِّ، لَا نَسْـبِقُ الرَّاقِدِيـنَ. لِأَنَّ الـرَّبَّ نَفْسَـهُ بِهُتَـافٍ، بِصَـوْتِ رَئِيـسِ مَلَائِكَـةٍ وَبُـوقِ اللـهِ، سَـوْفَ يَنْـزِلُ مِـنَ السَّـمَاءِ وَالْأَمْـوَاتُ فِي الْمَسِـيحِ سَـيَقُومُونَ أَوَّلًا.

ثُـمَّ نَحْـنُ الْأَحْيَـاءَ الْبَاقِـينَ سَـنُخْطَفُ جَمِيعًـا مَعَهُـمْ فِي السُّـحُبِ لِمُلَاقَـاةِ الـرَّبِّ فِي الْهَـوَاءِ، وَهَكَـذَا نَكُـونُ كُلَّ حِـينٍ مَـعَ الـرَّبِّ.

لِذَلِكَ عَزُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِهَذَا الْكَلَامِ. (١ تسالونيكي ٤: ١٣-١٨)

يقـدِّم لنـا الرسـول بولـس هنـا وصفًـا نابضًـا بالحيـاة للحـدث الـذي يُعـرَف عـادةً باسـم «اختطـاف القديسـين». لـن يفـوت الاختطـاف أيَّ مؤمـن. ولـن يحصـل الباقـون أحيـاءً عنـد وقوعـه عـلى أيَّـة ميـزة إضافيَّـة عـن الذيـن سـيكونون قـد ماتـوا بالفعـل، لأن الأمـوات في المسـيح سـيقومون ليشـتركوا في هـذا الحـدث.

أتذكـر جيـدًا حـين كنـتُ طفـلًا أنـه كان ينبغـي عـليَّ أن أخلـد إلى الفـراش قبـل بـدء عـرض الألعـاب الناريَّـة لاحتفـال يـوم الاسـتقلال. لم أكـن أرغـب في النـوم خشـية أن تفوتنـي كل المتعـة. ولهـذا، كان والـداي يطمئنانـني، ويعدانـني بـأن يوقظـاني في الوقـت المناسـب لمشـاهدة عـرض الألعـاب الناريَّـة. وكانـا يوفيـان بوعدهـما هـذا.

لم يرَ أيٌّ منا ميلاد المسيح. كما قد فاتنا العرض المبهر للمعجزات التي صنعها في أثناء خدمته على الأرض. كذلك، لم يشهد أي شخص على قيد الحياة اليوم آلام المسيح على الصليب. وليس بيننا أي شاهد عيان على قيامته المجيدة من الأموات، وصعوده إلى السماء. لكن، لن يبقى أي مؤمن نائمًا عند المجيء الثاني للمسيح. فمع أننا لم نشهد مجيئه الأول، لكن، سنكون جميعنا شهود عيان على مجيئه الثاني. سيرى كل مؤمن ذروة مجد يسوع. وسيُقيم الله الأموات كي يكفل أن تنظر كلُّ عين مجيئه الثاني في غلبة وانتصار ومجد.

وإن هذا الحدث هو الحدث الوحيد الذي يمكن أن يلغي احتمال موتنا.

الانقسام العظيم: الموت في الإيمان أم الموت في الخطيَّة

تراودنا العديد من الأسئلة حول موتنا. فقد نتساءل **أين** سنموت، أو متى سنموت، أو لماذا سنموت. لكن، كان الاهتمام الرئيسي للكتاب المقدس منصبًّا على سؤال: **كيف** سنموت. هذا هو السؤال الأهم، والمحمَّل بالمعاني الكثيرة.

جاءتني، ذات مرة، رسالة من الدكتور جون جرسنر (John Gerstner)، الذي كان مرشدي الروحي في كليَّة اللاهوت، أخبرني فيها بخبر وفاة صديق مشترك بيننا إثر إصابته بمرض السرطان. وقد كتب لي هذه الكلمات البسيطة لكن المؤثِّرة: «مات توم جراهام في الإيمان». أخبرتني هذه الكلمات القليلة بالكثير. فقد كان جرسنر يقصد أن توم مات وهو مؤمن، أي أنه كان أمينًا إلى النهاية.

يزخر الكتاب المقدس بالكثير بشأن سؤال **كيف** نموت. فهو لم يتطرق إلى أسباب محدَّدة للموت. فإننا نعلَم أننا قد نموت

بالسرطان، أو من جراء سكتة قلبيَّة، أو بفعل الاختناق، أو بسبب إصابة من طلق ناري، أو لأسباب أخرى عديدة. لكن هذه الأسباب المحتمَلة العديدة للموت الجسدي لم تكن هي الاهتمام الرئيسي للكتاب المقدس.

حين تحدَّث الكتاب المقدس عن كيف نموت، كان تركيزه منصبًّا على الحالة الروحيَّة للشخص عند مجيء لحظة موته. وفي النص التالي، نرى أن «كيفيَّة» الموت تُختزَل إلى خيارين فحسب، إما أن نموت في الإيمان، أو أن نموت في الخطيَّة:

> يَا ابْنَ آدَمَ، قَدْ جَعَلْتُكَ رَقِيبًا لِبَيْتِ إِسْرَائِيلَ. فَاسْمَعِ الْكَلِمَةَ مِنْ فَمِي وَأَنْذِرْهُمْ مِنْ قِبَلِي. إِذَا قُلْتُ لِلشِّرِّيرِ: مَوْتًا تَمُوتُ، وَمَا أَنْذَرْتَهُ أَنْتَ وَلَا تَكَلَّمْتَ إِنْذَارًا لِلشِّرِّيرِ مِنْ طَرِيقِهِ الرَّدِيئَةِ لِإِحْيَائِهِ، فَذَلِكَ الشِّرِّيرُ يَمُوتُ بِإِثْمِهِ، أَمَّا دَمُهُ فَمِنْ يَدِكَ أَطْلُبُهُ. وَإِنْ أَنْذَرْتَ أَنْتَ الشِّرِّيرَ وَلَمْ يَرْجِعْ عَنْ شَرِّهِ وَلَا عَنْ طَرِيقِهِ الرَّدِيئَةِ، فَإِنَّهُ يَمُوتُ بِإِثْمِهِ، أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ نَجَّيْتَ نَفْسَكَ. (حزقيال ٣: ١٧-١٩)

وقد أكَّد يسوع في العهد الجديد ما قاله حزقيال في العهد القديم: «فَقُلْتُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ تَمُوتُونَ فِي خَطَايَاكُمْ، لِأَنَّكُمْ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا أَنِّي أَنَا هُوَ تَمُوتُونَ فِي خَطَايَاكُمْ» (يوحنا ٨: ٢٤).

نظن أحيانًا أن أسوأ ما قد يُصيب الإنسان هو أن يموت. لكن هذا مخالف لرسالة يسوع. فوفقًا للمسيح، أسوأ شيء يمكن أن يصيبنا هو أن نموت في خطايانا.

هذه هي أكثر رسالة تتعرَّض للإهمال في أيامنا هذه. فإننا نحب أن نصدِّق أن كلَّ من يموت يذهب تلقائيًّا إلى السماء. كما نفترض أن

الموت هو التذكرة الوحيدة اللازمة لدخول ملكوت الله. لكننا بهذا نتجاهل تحذير حزقيال، غير مصدِّقين أنه ضروري.

الحاجة إلى كلمات تحذير

ذات مرة، أتيحت لي فرصة للتحدُّث مع بِيلي جراهام. وفي أثناء حديثنا، قصصتُ عليه خبرة مررتُ بها حين كنتُ طالبًا بالجامعة. فقد كنتُ واقفًا بالقرب من جهاز تلفاز في مسكن الطلبة، في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين. وكان بعضنا قد اجتمع لمشاهدة برنامج تليفزيوني يستضيف الدكتور جراهام.

وحين بدأ المذيع يحاور د. جراهام، حاول جعل اللقاء خفيفًا ومرحًا، حتى أنه مزح بشأن حالته الروحيَّة. حافظ د. جراهام على رباطة جأشه، ثم في احترام وكياسة، قال للمذيع علنًا إنه بحاجة إلى المسيح.

وبعد مرور ثلاثين عامًا على هذه الواقعة، سألتُ د. جراهام عن هذه الحلقة، فأجابني أنه ظل على تواصل بعد هذا مع ذلك المذيع، وظل يذكِّره بحاجته إلى المسيح. فقد كان مهتمًا حقًّا بهذا الشخص، ولم يرغب في أن يموت في خطاياه.

ليس التحدُّث إلى شخص يحتضر بشأن حاجته إلى مخلِّص بالأمر اليسير أو الهيِّن. فإن آخر شيء نرغب في أن نفعله مع شخص في مثل هذه الحالة هو أن نزعجه بأيِّ شكل من الأشكال، أو نجعله يشعر بالاضطراب والضيق. وإننا نظن أن عدم التحدث في مثل هذه الموضوعات ينم عن لطفٍ إنسانيٍّ.

لكن، يأمرنا الله بأن نتحدَّث إلى المحتضرين بشأن حاجتهم إلى مخلِّص. أوضح حزقيال ذلك وضوح الشمس. فإن كنا نحب الآخرين، سوف نحذرهم من عواقب موتهم في خطاياهم.

نتذكَّر جيدًا الشكاوى التي قدَّمها إرميا إلى الله. فقد كان منزعجًا لأن الله دعاه إلى أن يُنذر شعبًا لم يكونوا راغبين في الاستماع إليه. ومما زاد الأمر سوءًا بالنسبة لإرميا هو تعرُّض خدمته للتقويض من قبل أنبياء كذبة كانوا يحظون بشعبيَّة كبيرة، لأنهم كانوا يخبرون الشعب بما يريدون أن يسمعوه، «قَائِلِينَ: سَلَامٌ، سَلَامٌ. وَلَا سَلَامَ» (إرميا ٨: ١١).

لكن، قال إرميا للشعب نيابة عن الله: «لَا تَسْمَعُوا لِكَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يَتَنَبَّأُونَ لَكُمْ، فَإِنَّهُمْ يَجْعَلُونَكُمْ بَاطِلًا. يَتَكَلَّمُونَ بِرُؤْيَا قَلْبِهِمْ لَا عَنْ فَمِ الرَّبِّ. قَائِلِينَ قَوْلًا لِمُحْتَقِرِيَّ: قَالَ الرَّبُّ: يَكُونُ لَكُمْ سَلَامٌ! وَيَقُولُونَ لِكُلِّ مَنْ يَسِيرُ فِي عِنَادِ قَلْبِهِ: لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ شَرٌّ» (إرميا ٢٣: ١٦-١٧).

فقد شَفَت رسالة الأنبياء الكذبة كسر الشعب «عَلَى عَثَمٍ»، أو شفته شفاءً طفيفًا (إرميا ٨: ١١). فإن كلمات التعزية الكاذبة تشبه وضع لاصقة طبيَّة فوق جرح غائر. ففي هذه الحالة، يكون الشفاء طفيفًا في أفضل الأحوال. لم يقدم هؤلاء الأنبياء الكذبة سوى تسكينًا طفيفًا للألم، بدلًا من أن يقدموا بَلَسَان جلعاد الأصيل.

فإن أسوأ كذبة على الإطلاق هي تلك التي تنادي بعدم وجود دينونة أخيرة. وأكثر شيء علَّمه يسوع الناصري على نحو جازم هو مجيء دينونة أخيرة. فإن تجاهلنا تعليم يسوع في هذا الشأن، فإننا بهذا لا نحترمه كمعلِّم. تأمَّل معي كلمات المسيح التالية:

> وَمَتَى جَاءَ ابْنُ الْإِنْسَانِ فِي مَجْدِهِ وَجَمِيعُ الْمَلَائِكَةِ الْقِدِّيسِينَ مَعَهُ، فَحِينَئِذٍ يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ. وَيَجْتَمِعُ أَمَامَهُ جَمِيعُ الشُّعُوبِ، فَيُمَيِّزُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ كَمَا يُمَيِّزُ الرَّاعِي الْخِرَافَ مِنَ الْجِدَاءِ، فَيُقِيمُ الْخِرَافَ عَنْ يَمِينِهِ وَالْجِدَاءَ عَنِ الْيَسَارِ. ثُمَّ يَقُولُ الْمَلِكُ لِلَّذِينَ عَنْ يَمِينِهِ: تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي، رِثُوا

الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ ... ثُمَّ يَقُولُ أَيْضًا لِلَّذِينَ عَنِ الْيَسَارِ: اذْهَبُوا عَنِّي يَا مَلَاعِينُ إِلَى النَّارِ الْأَبَدِيَّةِ الْمُعَدَّةِ لِإِبْلِيسَ وَمَلَائِكَتِهِ ... فَيَمْضِي هَؤُلَاءِ إِلَى عَذَابٍ أَبَدِيٍّ وَالْأَبْرَارُ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ». (متى ٢٥: ٣١-٤٦)

نطق يسوع هنا بكلمات تحذير مهيبة. فإن الذين يموتون في خطاياهم سيُبعَدون، وسيُحصون ضمن الجِداء.

وفي مواضع أخرى، استفاض يسوع في التحذير، كما حين قال: «لِأَنَّهُ لَيْسَ خَفِيٌّ لَا يُظْهَرُ، وَلَا مَكْتُومٌ لَا يُعْلَمُ وَيُعْلَنُ» (لوقا ٨: ١٧)؛ وأيضًا: «فَلَيْسَ مَكْتُومٌ لَنْ يُسْتَعْلَنَ، وَلَا خَفِيٌّ لَنْ يُعْرَفَ. لِذَلِكَ كُلُّ مَا قُلْتُمُوهُ فِي الظُّلْمَةِ يُسْمَعُ فِي النُّورِ، وَمَا كَلَّمْتُمْ بِهِ الْأُذْنَ فِي الْمَخَادِعِ يُنَادَى بِهِ عَلَى السُّطُوحِ» (لوقا ١٢: ٢-٣).

حذَّر يسوع من مجيء يوم فيه تنكشف جميع الأسرار. سيكون هذا اليوم هو النهاية التامة لجميع خفايا هذا العالم. ستُفتح جميع الخزائن، وتصير جميع الأعماق والخبايا مكشوفة وظاهرة، وستُفتضح خطايانا جميعًا، ما لم نكن قد «استترنا» برداء برِّ المسيح.

وإن يوم التعرية هذا العتيد أن يأتي في المستقبل هو ذلك اليوم الذي فيه يقول الذين يموتون في خطاياهم «لِلْجِبَالِ: اسْقُطِي عَلَيْنَا! وَلِلْآكَامِ: غَطِّينَا!» (لوقا ٢٣: ٣٠).

الهروب من الغضب الآتي

يصف العهد الجديد يسوع بأنه «مُخَلِّص». فقد أعلن الملاك جبرائيل اسم «يسوع» حين زار العذراء مريم. وأكَّدت رسالة ملائكيَّة أخرى جاءت إلى يوسف النجار هذا الاسم: «فَسَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ يَسُوعَ. لِأَنَّهُ يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ» (متى ١: ٢١).

هـذا الخـلاص الـذي يتحـدث عنـه الكتـاب المقـدس لـه هـدف مُحدَّد. قـد تُسـتخدَم كلمـة **الخـلاص** بوجـه عـام بمعـانٍ عديـدة. فـإن أيَّ إنقـاذ مـن خطـر أو محنـة يمكـن أن يسـمَّى خلاصًـا. وبحسـب الكتـاب المقـدس، يمكـن لأحدهـم أن يَخلُـص مـن مـرض أو مـن كارثـة ماليَّـة. كذلـك، إن أفلـت جيـش مـن هزيمـة في المعركـة، فهـو بهـذا قـد اختـبر خلاصًـا.

لكـن الخـلاص الـذي صنعـه يسـوع لا ينتمـي إلى هـذا النـوع العـام، لكنـه خـلاص محـدَّد. يخلِّصنـا يسـوع «مِـنَ الْغَضَـبِ الْآتِي» (١ تسـالونيكي ١: ١٠).

شـدَّدت كـرازة يوحنـا المعمـدان عـلى هـذا التحذيـر بشـأن المسـتقبل. فقـد خاطـب في قسـوة الفريسـيين والصدوقيـين، أي رجـال الديـن في عـصره، قائـلًا: «مَـنْ أَرَاكُـمْ أَنْ تَهْرُبُـوا مِـنَ الْغَضَـبِ الْآتِي؟» (متـى ٣: ٧). وإن هـذا التحذيـر الـذي قيـل لشـعب إسرائيـل في القـرن الأول هـو عينـه الـذي يتعـرض للإهـمال والتجاهـل الشـديد في يومنـا هـذا.

ذات مـرة، سـمعتُ حديثًـا دار بـين رجلـين، كانـا يتناقشـان معًـا في عظـة ألقاهـا واعـظ ضيـف في كنيسـة مشـيخيَّة. طـرح الرجـل الأول السـؤال التـالي: «مـا رأيـك في الواعـظ الـذي سـمعناه يـوم الأحـد المـاضي؟»

أجابـه الرجـل الثـاني: «كان عتيـق الطـراز للغايـة؛ فقـد وعـظ عـن النـار والكبريـت».

فـإن الـشيء الـذي جعـل مـن هـذا الواعـظ «عتيـق الطـراز» هـو أنـه وعـظ عـن الدينونـة الأخـيرة. فقـد صـار مفهـوم الدينونـة شـيئًا عفـا عليـه الزمـن. ليسـت هـذه وجهـة نظـر شـاذة؛ فلـم يعـد مـن الشـائع في مجتمعنـا أن نتحـدث عـن الدينونـة الأخـيرة.

أنـا عـلى يقـينٍ مـن أن أحاديـث مـن هـذا القبيـل كانـت تُجـرَى في أيـام يسـوع. فمـن المؤكَّـد أن بعـض الذيـن سـمعوا كـرازة يوحنـا المعمدان ويسـوع وصفوهـما بأنهـما «عتيقـا الطـراز». بـل وربمـا قـال الشـعب شـيئًا

مـن هـذا القبيـل: «هـذان الرجـلان عتيقـا الطـراز، فهـما يتكلّـمان مثـل أنبيـاء العهـد القديـم».

مـن الغريـب أننـا نـسرع إلى نبـذ أيّـة فكـرة عـن الدينونـة الأخـيرة، واصفـين إيّاهـا بأنهـا «عتيقـة الطـراز»، ولا سـيما في هـذا الزمـن وفي هـذا المجتمـع شـديد الاكـتراث بالعدالـة. فقـد اجتهدنـا بشـدة لأجـل تحقيـق العدالـة المدنيّـة، والعدالـة الاجتماعيّـة، والعدالـة الدوليّـة، لكننـا عـلى الرغـم مـن ذلـك، نلاحـظ مـا عـبَّر عنـه الفيلسـوف إيمانويـل كانـط بدقـة، وهـو أن العدالـة لا تسـود دائمًـا في هـذا العـالم.

إن إلـه الكتـاب المقـدس هـو إلـه العـدل. فـإن طبيعتـه نفسـها عـدلٌ. ومـن ثَـمَّ، فـإن عـدم تقويمـه للمظـالم في هـذا العـالم، وسـماحه لميـزان العـدل أن يظـل مختـلًّا إلى الأبـد، سـيكون بمثابـة مسـاومة في نزاهتـه. وهـذا هـو بالتحديـد مـا يرفـض أن يفعلـه. فهـو يَعِـد بالعـدل المطلـق.

العدالة الأخيرة والدينونة الأخيرة

ولا يمكـن لديّـان كلِّ الأرض أن يحقـق العدالـة الأخـيرة دون دينونـة أخـيرة. فإنـه يـصر عـلى مجـازاة جميـع البـشر عـن أفعالهـم. فلـو لم نكـن سـنخضع للمسـاءلة في النهايـة، لصـار الاسـتنتاج الوحيـد الـذي يمكننـا التوصُّـل إليـه هـو أننـا في النهايـة لا نُمثِّـل أهميَّـة. فـإن الخلاصـة سـتكون أن الكيفيَّـة التـي نحيـا بهـا حياتنـا لا تُمثِّـل في النهايـة أيَّـة أهميَّـة. لكـن، نعـرف جميعًـا أن الكيفيَّـة التـي يحيـا بهـا النـاس حياتهـم تُمثِّـل بالفعـل أهميَّـة. فـإن طريقـة تعامُـل النـاس معـي، ومعـك أيضًـا، تُمثِّـل أهميَّـة.

كان كل واحـد فينـا ضحيـة للظلـم في وقـتٍ مـا؛ وكذلـك، ارتكـب كلُّ واحـد منَّـا الظلـم في حـق آخريـن في وقـت آخـر. ويكمـن سـبب تعرُّضنـا للظلـم، أو ممارسـتنا لـه، في كوننـا، كخطـاة، أناسًـا غـير عادلـين.

والمعضلة التي نواجهها الآن هي أن الله عادل، بينما نحن لسنا كذلك. هذه أسوأ معضلة على الإطلاق يمكن للجنس البشري أن يواجهها. فإن مواجهة أي مذنب للعدالة التي يطبِّقها نظام القضاء في مجتمعنا تختلف تمام الاختلاف عن وقوف أحدهم أمام منصة قضاء الله. ولهذا، نحن نهتف مع داود قائلين: «إِنْ كُنْتَ تُرَاقِبُ الْآثَامَ يَا رَبُّ، يَا سَيِّدُ، فَمَنْ يَقِفُ؟» (مزمور ١٣٠: ٣). كان سؤال دواد سؤالًا بلاغيًا، إجابته بديهيَّة: **لا أحد** يمكنه ذلك.

تُعَد القضية الجوهريَّة في المسيحيَّة هي قضية التبرير. تواجه هذه القضية معضلتنا البشريَّة بشكل مباشر. فإن السبيل الوحيد كي يقف إنسان غير بار في محضر إله عادل وقدوس هو أن يكون مبرَّرًا. لكن، إن بقينا غير مبرَّرين، نموت في خطايانا.

ولا يمكننا أن نتبرَّر إلا من خلال وسيلة واحدة فحسب، ألا وهي بر المسيح. فهو الوحيد الذي لديه الاستحقاق اللازم كي يسترنا. ولا يُؤخَذ هذا البر إلا بالإيمان. فإن آمنَّا بالمسيح، يسترنا بره، ونتبرَّر بالإيمان. وإن لم نؤمن به، سيكون علينا أن نقف أمام دينونة الله بمفردنا، كبشر أثمة أمام إله بار وعادل.

ربما تقول في داخلك: «أنا لستُ بشخص شرير وآثم. فأنا لم أقتل أحدًا قط، ولم أسرق يومًا شيئًا ليس لي». أجل، لو كنت بالفعل بارًّا تمامًا، لما احتجتَ إلى مخلِّص. فلو لم تكن قد كسرت ناموس الله قط، فلا داعي أن تخشى دينونته.

لكننا نعاني من وهمين رئيسيين: الأول، أننا صالحون بما يكفي للوقوف أمام إله بار تمامًا. هذا وهم كبير، لأننا جميعًا قد أخطأنا. فكي نقف أمام الله، لا بد أن نكون خالين تمامًا من الخطيَّة، وأبرارًا كليًّا. ولو كنا نظن أننا كاملون، فإننا نضل أنفسنا حتى النخاع.

قليلون جدًا هم من يخدعون أنفسهم بالظن أنهم بلا خطيَّة. فإن هذا الوهم ليس هو ما يعاني منه غالبيتنا. لكن الوهم الثاني هو الذي يقتنص كثيرين منا. فإن حقيقة أن الله عادل وأننا أثمة يبدو أنها لا تزعجنا. لكننا نحتفظ بداخلنا برجاءٍ في أن الله، المُحِب والرحيم، حتمًا سيفسح لنا مكانًا في السماء، حتى وإن لم نتب قط عن خطايانا، ونؤمن بالمسيح مُخلصًا لنا. فإننا نظن أن الإيمان ليس شرطًا أساسيًّا للخلاص.

يوجِّه هذا الوهم إهانة إلى رحمة الله، لأنه يفترض أن صلب الله لابنه الوحيد من أجلنا لم يقدِّم لنا ما يكفي، ويستنتج أن متطلِّبات الله من إيمان وثقة في المخلِّص الذي صنع الكفارة تعسُّفيَّة إلى حدٍّ ما.

اجتهد كاتب الرسالة إلى العبرانيين كي يحذِّر قراء رسالته من العواقب الناجمة عن إهمال فعل الكفارة الكهنوتي الذي صنعه يسوع، فطرح سؤالًا بلاغيًا آخر: «فَكَيْفَ نَنْجُو نَحْنُ إِنْ أَهْمَلْنَا خَلَاصًا هَذَا مِقْدَارُهُ؟ قَدِ ابْتَدَأَ الرَّبُّ بِالتَّكَلُّمِ بِهِ، ثُمَّ تَثَبَّتَ لَنَا مِنَ الَّذِينَ سَمِعُوا» (عبرانيين ٢: ٣).

تبعت هذا التحذير تحريضات أخرى: «اُنْظُرُوا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ، أَنْ لَا يَكُونَ فِي أَحَدِكُمْ قَلْبٌ شِرِّيرٌ بِعَدَمِ إِيمَانٍ فِي الِارْتِدَادِ عَنِ اللهِ الْحَيِّ. بَلْ عِظُوا أَنْفُسَكُمْ كُلَّ يَوْمٍ، مَا دَامَ الْوَقْتُ يُدْعَى الْيَوْمَ، لِكَيْ لَا يُقَسَّى أَحَدٌ مِنْكُمْ بِغُرُورِ الْخَطِيَّةِ ... وَلِمَنْ أَقْسَمَ: «لَنْ يَدْخُلُوا رَاحَتَهُ»، إِلَّا لِلَّذِينَ لَمْ يُطِيعُوا؟ فَنَرَى أَنَّهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَدْخُلُوا لِعَدَمِ الْإِيمَانِ» (عبرانيين ٣: ١٢-١٩).

لست أعلم متى ستقرأ هذا الكتاب؛ فما من وسيلة أعرف بها تاريخ ذلك اليوم. لكن بغض النظر عن اليوم أو الشهر الذي

والمعضلة التي نواجهها الآن هي أن الله عادل، بينما نحن لسنا كذلك. هذه أسوأ معضلة على الإطلاق يمكن للجنس البشري أن يواجهها. فإن مواجهة أي مذنب للعدالة التي يطبِّقها نظام القضاء في مجتمعنا تختلف تمام الاختلاف عن وقوف أحدهم أمام منصة قضاء الله. ولهذا، نحن نهتف مع داود قائلين: «إِنْ كُنْتَ تُرَاقِبُ الْآثَامَ يَا رَبُّ، يَا سَيِّدُ، فَمَنْ يَقِفُ؟» (مزمور ١٣٠: ٣). كان سؤال دواد سؤالًا بلاغيًا، إجابته بديهيَّة: **لا أحد** يمكنه ذلك.

تُعَد القضية الجوهريَّة في المسيحيَّة هي قضية التبرير. تواجه هذه القضية معضلتنا البشريَّة بشكل مباشر. فإن السبيل الوحيد كي يقف إنسان غير بار في محضر إله عادل وقدوس هو أن يكون مبرَّرًا. لكن، إن بقينا غير مبرَّرين، نموت في خطايانا.

ولا يمكننا أن نتبرَّر إلا من خلال وسيلة واحدة فحسب، ألا وهي بر المسيح. فهو الوحيد الذي لديه الاستحقاق اللازم كي يسترنا. ولا يُؤخَذ هذا البر إلا بالإيمان. فإن آمنَّا بالمسيح، يسترنا بره، ونتبرَّر بالإيمان. وإن لم نؤمن به، سيكون علينا أن نقف أمام دينونة الله بمفردنا، كبشر أثمة أمام إله بار وعادل.

ربما تقول في داخلك: «أنا لستُ بشخص شرير وآثم. فأنا لم أقتل أحدًا قط، ولم أسرق يومًا شيئًا ليس لي». أجل، لو كنت بالفعل بارًّا تمامًا، لما احتجتَ إلى مخلِّص. فلو لم تكن قد كسرت ناموس الله قط، فلا داعي أن تخشى دينونته.

لكننا نعاني من وهمين رئيسيين: الأول، أننا صالحون بما يكفي للوقوف أمام إله بار تمامًا. هذا وهم كبير، لأننا جميعًا قد أخطأنا. فكي نقف أمام الله، لا بد أن نكون خالين تمامًا من الخطيَّة، وأبرارًا كليًّا. ولو كنا نظن أننا كاملون، فإننا نضل أنفسنا حتى النخاع.

قليلون جدًا هم من يخدعون أنفسهم بالظن أنهم بلا خطيَّة. فإن هذا الوهم ليس هو ما يعاني منه غالبيتنا. لكن الوهم الثاني هو الذي يقتنص كثيرين منا. فإن حقيقة أن الله عادل وأننا أئمة يبدو أنها لا تزعجنا. لكننا نحتفظ بداخلنا برجاءٍ في أن الله، المُحِب والرحيم، حتمًا سيفسح لنا مكانًا في السماء، حتى وإن لم نتب قط عن خطايانا، ونؤمن بالمسيح مُخلصًا لنا. فإننا نظن أن الإيمان ليس شرطًا أساسيًّا للخلاص.

يوجِّه هذا الوهم إهانة إلى رحمة الله، لأنه يفترض أن صلب الله لابنه الوحيد من أجلنا لم يقدِّم لنا ما يكفي، ويستنتج أن متطلِّبات الله من إيمان وثقة في المخلِّص الذي صنع الكفارة تعسُّفيَّة إلى حدٍّ ما.

اجتهد كاتب الرسالة إلى العبرانيين كي يحذِّر قراء رسالته من العواقب الناجمة عن إهمال فعل الكفارة الكهنوتي الذي صنعه يسوع، فطرح سؤالًا بلاغيًا آخر: «فَكَيْفَ نَنْجُو نَحْنُ إِنْ أَهْمَلْنَا خَلَاصًا هَذَا مِقْدَارُهُ؟ قَدِ ابْتَدَأَ الرَّبُّ بِالتَّكَلُّمِ بِهِ، ثُمَّ تَثَبَّتَ لَنَا مِنَ الَّذِينَ سَمِعُوا» (عبرانيين ٢: ٣).

تبعت هذا التحذير تحريضات أخرى: «اُنْظُرُوا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ، أَنْ لَا يَكُونَ فِي أَحَدِكُمْ قَلْبٌ شِرِّيرٌ بِعَدَمِ إِيمَانٍ فِي الِارْتِدَادِ عَنِ اللهِ الْحَيِّ. بَلْ عِظُوا أَنْفُسَكُمْ كُلَّ يَوْمٍ، مَا دَامَ الْوَقْتُ يُدْعَى الْيَوْمَ، لِكَيْ لَا يُقَسَّى أَحَدٌ مِنْكُمْ بِغُرُورِ الْخَطِيَّةِ ... وَلِمَنْ أَقْسَمَ: «لَنْ يَدْخُلُوا رَاحَتَهُ»، إِلَّا لِلَّذِينَ لَمْ يُطِيعُوا؟ فَنَرَى أَنَّهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَدْخُلُوا لِعَدَمِ الْإِيمَانِ» (عبرانيين ٣: ١٢-١٩).

لست أعلم متى ستقرأ هذا الكتاب؛ فما من وسيلة أعرف بها تاريخ ذلك اليوم. لكن بغض النظر عن اليوم أو الشهر الذي

تقرأه فيه، فهناك أمر واحد أكيد، ألا وهو أنك تقرأ هذه الكلمات «اليوم». كان تحريض الرسالة إلى العبرانيين يخص اليوم. فإن استمر إهمالنا حتى الغد، ربما يكون الأوان قد فات.

يشدِّد تحذير الكتاب المقدس على أننا حين نؤجل التوبة والإيمان، نخاطر بأن «نُقسَّى» بغرور الخطيَّة، إذ نكون قد سمعنا الكرازة بالإنجيل مرارًا حتى أننا نتبلد تجاهه. فقد تتحجَّر قلوبنا، وتوسَم ضمائرنا، لأن هكذا تعمل الخطيَّة. ففي البداية، نلتمس الأعذار لأنفسنا، ونسعى وراء أيَّة وسيلة نبرِّر بها ذواتنا؛ وفي النهاية، نخدع أنفسنا بالظن أن الإيمان والتوبة غير ضروريين.

ضرورة عدم التأجيل

يقول الله إن التوبة والإيمان ضروريان بشدة. وتقول الرسالة إلى العبرانيين إن الله جادٌّ في هذا الأمر، لدرجة أنه أقسم بألا يُدخِل العصاة إلى راحته. لم يُنطَق قط بقسمٍ أقدس من هذا. وأسوأ أنواع الوهم هو أن نفكِّر في احتماليَّة عدم وفاء الله بقسمه.

ثم ختم كاتب الرسالة إلى العبرانيين حديثه قائلًا: «فَنَرَى أَنَّهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَدْخُلُوا لِعَدَمِ الْإِيمَانِ» (عبرانيين ٣: ١٩). فإن مكث أحدهم في عدم إيمانه، لن يمكنه ببساطة أن يدخل إلى راحة الله. فإن عدم الإيمان حاجزٌ يقف في الطريق إلى السماء.

وهكذا، نرى أن لا توجد إلا طريقتان للموت: يمكننا أن نموت في الإيمان، أو أن نموت في خطايانا.

لكن، يتحلَّى كثيرون برجاءٍ في وجود فرصة ثانية بعد الموت. وتدعم الكنيسة الكاثوليكيَّة هذا الرجاء من خلال عقيدة المطهر. فبحسب هذه العقيدة، يُعَد المطهر موضع «تطهير» للمحتاجين إلى بعض التنقية قبل دخولهم إلى السماء. ولهذا تُقام القدَّاسات، وتقدَّم

الصلوات لأجل الموتى (من بين التعاليم الرسميَّة للكنيسة الكاثوليكيَّة أن الذين في المطهر هم مسيحيُّون مُعمَّدون سيدخلون السماء في النهاية. لكن، يبدو أن التصوُّر الشائع لدى العديد من الكاثوليك، ولدى آخرين أيضًا، هو أن المطهر موضعٌ تتاح فيه للخطاة فرصة ثانية لإصلاح طرقهم، والنجاح في الوصول إلى السماء).

ما من عقيدة اختُلِقت لتلبية احتياجات بشر مرتعبين نظير عقيدة المطهر. لكن، لم يقدِّم الكتاب المقدس ذرة دليل يؤيِّد هذه الفكرة. بل على النقيض، انصبَّ التركيز الملح للكتاب المقدس على ضرورة التوبة قبل أن نموت. ومرة أخرى، قال كاتب الرسالة إلى العبرانيين: «وُضِعَ لِلنَّاسِ أَنْ يَمُوتُوا مَرَّةً ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ الدَّيْنُونَةُ» (عبرانيين ٩: ٢٧).

أتذكَّر في حب شديد عمِّي الذي كان يعيش معنا في منزلنا في أثناء طفولتي. كان هذا الرجل صلبًا، ومنتفخ العضلات، وذي لسان شتَّام. أتذكر بوضوح طبقة الشحم السوداء التي كانت موجودة دائمًا تحت أظافره. لم يكن لدى هذا الرجل وقت للدين أو للكنيسة. فقد كان يرى أن الدين وُجِد للجبناء.

وحين أعلنت التحاقي بكليَّة اللاهوت كي أعدَّ نفسي للخدمة الرعويَّة، كاد عمي أن يُصاب بسكتة دماغيَّة. وظلَّ يغيظني دون توقف، ويمزح قائلًا إنني سأرتدي قريبًا ياقتي بالعكس، وسأتجول في الأنحاء مرتديًا قميصًا أسودًا.

وعقب رسامتي بفترة قصيرة، أصيب عمي بمرض مميت. وقبل وفاته بحوالي أسبوع، زرتُه في غرفته. كان الرجل يحتضر، وكان يعلم ذلك. لم يعد هناك عندئذٍ مجال للمزاح. وقد انتابه القلق الشديد بشأن المكان الذي هو ذاهب إليه، فقال لي: «لست مستعدًا بعد للرحيل».

عندئـذٍ، تحدثنـا عـن المسـيح، ونطـق عمـي باعـتراف إيمـان جـاد وصـادق، وسـوَّى كلَّ الأمـور بينـه وبـين اللـه. ومـات في الإيمـان.

كـما أقسـم اللـه بـألا يدخـل غـير التائبـين إلى راحتـه، هكـذا أقسـم أيضًـا بـأن الذيـن يتوبـون ويؤمنـون بالمسـيح سـيدخلون حتـمًا إلى راحتـه. قـال كاتـب الرسـالة إلى العبرانيـين أيضًـا: «فَلْنَخَـفْ، أَنَّـهُ مَـعَ بَقَـاءِ وَعْـدٍ بِالدُّخُـولِ إِلَى رَاحَتِـهِ، يُـرَى أَحَـدٌ مِنْكُـمْ أَنَّـهُ قَـدْ خَـابَ مِنْـهُ ... لِأَنَّنَـا نَحْـنُ الْمُؤْمِنِـينَ نَدْخُـلُ الرَّاحَـةَ» (عبرانيـين ٤: ١-٣ أ).

ثم يُختَتَم الأصحاح الرابع من الرسالة إلى العبرانيين بهذه الكلمات:

فَـإِذْ لَنَـا رَئِيـسُ كَهَنَـةٍ عَظِيـمٌ قَـدِ اجْتَـازَ السَّـمَاوَاتِ، يَسُـوعُ ابْـنُ اللـهِ، فَلْنَتَمَسَّـكْ بِالْإِقْـرَارِ. لِأَنْ لَيْـسَ لَنَـا رَئِيـسُ كَهَنَـةٍ غَـيْرُ قَـادِرٍ أَنْ يَـرْثِيَ لِضَعَفَاتِنَـا، بَـلْ مُجَـرَّبٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُنَـا، بِـلَا خَطِيَّـةٍ. فَلْنَتَقَـدَّمْ بِثِقَـةٍ إِلَى عَـرْشِ النِّعْمَـةِ لِـكَيْ نَنَـالَ رَحْمَـةً وَنَجِـدَ نِعْمَـةً عَوْنًـا فِي حِينِـهِ. (عبرانيـين ٤: ١٤-١٦)

فإننـا إن متنـا في الإيمـان، سـننضم إلى جماعـة كبـيرة من الذين سـبقونا. وتـسرد لنـا الرسـالة إلى العبرانيـين قائمـة ببعـض أبطال الإيمـان هؤلاء:

بِالْإِيمَـانِ قَـدَّمَ هَابِيـلُ لِلـهِ ذَبِيحَـةً أَفْضَـلَ مِـنْ قَايِـينَ ... بِالْإِيمَـانِ نُقِـلَ أَخْنُـوخُ ... بِالْإِيمَـانِ نُـوحٌ لَـمَّا أُوحِـيَ إِلَيْـهِ عَـنْ أُمُـورٍ لَـمْ تُـرَ بَعْـدُ خَـافَ، فَبَنَـى فُلْـكًا ... بِالْإِيمَـانِ إِبْرَاهِيـمُ لَـمَّا دُعِـيَ أَطَـاعَ أَنْ يَخْـرُجَ إِلَى الْمَـكَانِ الَّـذِي كَانَ عَتِيـدًا أَنْ يَأْخُـذَهُ مِيرَاثًـا، فَخَـرَجَ وَهُـوَ لَا يَعْلَـمُ إِلَى أَيْـنَ يَـأْتِي ... بِالْإِيمَـانِ سَـارَةُ نَفْسُـهَا أَيْضًـا أَخَـذَتْ قُـدْرَةً عَـلَى إِنْشَـاءِ نَسْـلٍ ... فِي الْإِيمَـانِ مَـاتَ هَـؤُلَاءِ أَجْمَعُـونَ، وَهُـمْ لَـمْ يَنَالُـوا الْمَوَاعِيـدَ، بَـلْ مِـنْ بَعِيـدٍ نَظَرُوهَـا وَصَدَّقُوهَـا وَحَيَّوْهَـا، وَأَقَـرُّوا بِأَنَّهُـمْ غُرَبَـاءُ وَنُـزَلَاءُ عَـلَى

الْأَرْضِ. فَإِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ مِثْلَ هَذَا يُظْهِرُونَ أَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ وَطَنًا. فَلَوْ ذَكَرُوا ذَلِكَ الَّذِي خَرَجُوا مِنْهُ، لَكَانَ لَهُمْ فُرْصَةٌ لِلرُّجُوعِ. وَلَكِنِ الْآنَ يَبْتَغُونَ وَطَنًا أَفْضَلَ، أَيْ سَمَاوِيًّا. لِذَلِكَ لَا يَسْتَحِي بِهِمِ اللهُ أَنْ يُدْعَى إِلَهَهُمْ، لِأَنَّهُ أَعَدَّ لَهُمْ مَدِينَةً. (عبرانيين ١١: ٤-١١، ١٣-١٦)

فإن متنا في الإيمان، سوف ننضم إلى هابيل، ونوح، وإبراهيم، وإلى كثيرين آخرين عاشوا وماتوا في الإيمان. وسوف نُحسب ضمن الذين لا يستحي بهم الله أن يُدعَى إلههم. وتلك المدينة التي أعدَّها الله لهم، ستكون لنا نحن أيضًا.

يسلِّط بقيَّة هذا الكتاب الضوء على أمرين رئيسيين؛ الأول هو: **هل توجد سماء حقًّا؟** والثاني هو: **كيف تبدو السماء؟**

الجزء الثاني

ما بعد الموت

الفصل السابع

تكهُّنات بشأن الحياة ما بعد الموت

منذ بضع سنوات، زرتُ قريبة لي من مواليد عام ١٩٠٠، وأمضيتُ معها وقتًا في استرجاع الذكريات، والسفر إلى الماضي. وحين طرحتُ عليها كافة أنواع الأسئلة حول جذورنا، وتاريخ العائلة، اتكأت إلى الوراء فوق مقعدها الهزاز، وحدَّثتني عن الأيام الخوالي بأسلوب حالمٍ وشاعريٍّ. وفي أثناء حديثها، كانت تملأ بعض الفراغات في معرفتي عن حياة والدي وأجدادي.

كان أبرز ما في هذه الرحلة القصيرة إلى الماضي هو ذكريات قريبتي عن جدي الأكبر، تشارلز سبرول (الذي جاء منه الاختصار «سي.» في اسمي: روبرت تشارلز). فقد وُلِد في مقاطعة دونيجال في أيرلندا، في عام ١٨٢٤، ثم جاء إلى هذا البلد في عام ١٨٤٣ حافي القدمين، مخلِّفًا وراءه في موطنه القديم كوخًا مسقوفًا بالقش، وأرضيته من الطين. وفي أثناء الحرب الأهليَّة، عمل كرجل إطفاء من الدرجة الثالثة، على

متن السفينة الحربيَّة U.S.S. *Grampus*، التابعة للبحريَّة الأمريكيَّة. وقد شارك في معركة فيكسبرج، ومات في عام ١٩١٠، عن عمر يناهز ستة وثمانين عامًا.

جرى هذا الحديث مع قريبتي في صيف عام ١٩٨٧، أي بعد مئة وثلاثة وستين عامًا من تاريخ ميلاد جدي الأكبر. وحين مات تشارلز سبرول، كان يعيش في منزل جدي في بيتسبرج. وقد عاصَرَته قريبتي لمدة عشر سنوات قبل وفاته.

كان التحدُّث إلى شخص لديه ذكريات واضحة وحاضرة عن شخص وُلِد في عام ١٨٢٤ أمرًا يصيب بالقشعريرة. فقد مرَّ زمان طويل، وتاريخ طويل، منذ ذلك الحين. وقد تساءلتُ آنذاك كيف سيكون الحال إذا عشتُ حتى سن السادسة والثمانين، وأمكنني إخبار أحفاد أحفادي بتلك القصص التي سمعتها، بشكل مباشر، من شخص عاصر جدي الأكبر. سأبلغ السادسة والثمانين من عمري في عام ٢٠٢٥، ومن ثَمَّ، سيعود حديثي معهم إلى الوراء لأكثر من قرنين من الزمان.

حين وُلد تشارلز سبرول، كان عمر الولايات المتحدة لا يتعدَّى بضعة عقود. وكان رئيس الجمهوريَّة آنذاك هو جيمس مونرو (James Monroe)؛ في حين كان أبراهام لينكولن لا يزال في مرحلة المراهقة. لم تكن هناك بعد سكك حديديَّة تمرُّ عبر القارة؛ ولم تكن هناك سيارات، أو طائرات، أو أجهزة راديو أو تلفاز؛ بل ولم تكن هناك أيضًا مصابيح كهربائيَّة. فقد تغيَّر العالم تمامًا.

وقد مات تشارلز سبرول، وتزوَّج ابنه، روبرت، من فتاة كانت قد ارتحلت من ولاية أوهايو إلى مدينة بيتسبرج، عبر نهر أوهايو، على متن سفينة بخاريَّة. ثم مات روبرت في عام ١٩٤٥، ومات كلا ابنيه أيضًا، ومنهما والدي، في عام ١٩٥٦.

وُلِد ابني في عام ١٩٦٥، واسمه روبرت، نظير اسمي. وقد رُزِق بابنين صارا حاملين للقب العائلة. وفي حال رُزق هذان الابنان بصبيان، سيمتد اسم العائلة لجيل آخر على الأقل. لكن إذا لم يحدث ذلك، فسوف يختفي لقب العائلة.

يقول الكتاب المقدس إن «كُلّ جَسَدٍ عُشْبٌ» (إشعياء ٤٠: ٦). فإن العشب ينمو، ثم يذبل، ويموت.

سألني أحدهم قبلًا عن «أهدافي بعيدة المدى»، قائلًا: «كيف تريد أن يبدو شكل حياتك وما تفعله بعد خمس أو عشر سنوات من الآن؟» أوقفني السؤال قليلًا. فبالنسبة لصبي في عمر المراهقة، تبدو خمس سنوات دهرًا، لكنها لم تكن تبدُ لي مدة زمنيَّة طويلة.

لكن، ربما يكون السؤال الأنسب هو: «كيف سيكون شكل حياتي وما أفعله بعد مئة عام من الآن؟» ربما يبدو هذا سؤالًا سخيفًا؛ وربما يشبه كثيرًا السؤال القائل: «ماذا كنتُ أفعل منذ مئة عام مضت؟». فمنذ مئة عام، لم أكن موجودًا من الأساس، ولم تكن أختي موجودة، ولم يكن أبي موجودًا. كان تشارلز الجد موجودًا، وكذلك ابنه روبرت. لكنهما الآن قد رحلا، كما سأكون قد رحلتُ بعد مئة عام من الآن.

قليلون جدًا، بل وربما لا أحد ممَّن يقرأ هذا الكتاب كان على قيد الحياة منذ مئة عام. لكن، أكاد أجزم تمامًا أن لا أحد ممَّن يقرأه الآن سيكون على قيد الحياة بعد مئة عام من الآن.

أم أن هذا غير صحيح؟ فهل لا يزال أمامنا مستقبل يدوم لمئة عام أخرى أو أكثر؟

السعي وراء معرفة المستقبل

حقَّقت دوريس داي (Doris Day) نجاحًا كبيرًا بأغنيتها الشهيرة بعنوان «Que Sera, Sera» (أي «ما سيحدث سيحدث»). وكانت

كلماتها تقول:

حين كنتُ فتاة صغيرة،

سألت أمي: ماذا سأصبح؟

هل سأصبح جميلة؟ أو ثرية؟

وكان هذا جوابها:

كان جواب الأم مبهَمًا، فهي لم تكن تملك بلورة سحريَّة؛ بل كل ما استطاعت أن تجيب به هو القرار التالي: «ما سيحدث، سيحدث».

نقلق حيال المستقبل بالتحديد لأننا لا نعلم ما يخبِّئه لنا. لكن المصدر الوحيد الجدير بالثقة لاكتساب معرفة تامة عن المستقبل هو ربِّ المستقبل نفسه. يمكننا أن نتحلَّى بالرجاء من جهة ما تكلَّم الله به بشأن المستقبل؛ لكن، علينا أن نتوقَّف في الآن ذاته عن البحث والتنقيب فيما صمت الله عنه. فإن العهد القديم يحفل بنَواهٍ صارمة مقترنة بعقوبات قاسية لكلِّ من يحاول النظر إلى ما وراء حجاب الزمن باستخدام وسائل غير مشروعة.

لكن، تؤرِّق قضية مستقبلنا كلَّ نفس بشريَّة. طرح أيوب هذا السؤال كالتالي: «إِنْ مَاتَ رَجُلٌ أَفَيَحْيَا؟» (أيوب ١٤: ١٤).

فمنذ اقتحام الموتُ لجنة عدن، صارت مسألة الحياة ما بعد الموت هي الأبرز والأهم على الإطلاق. وفي حقيقة الأمر، تبنَّت كل حضارة بشريَّة شكلًا من أشكال الرجاء في الحياة ما بعد القبر. فقد كان المصريون القدماء يضعون بعض المقتنيات الثمينة داخل مقابر أحبائهم الذين يموتون، على أمل أن تصير هذه الأشياء نافعة لهم في الحياة ما بعد الموت. كذلك، تبنَّى الهنود الحُمر في أمريكا مفهومًا يتعلق بأرض الصيد والمتعة السعيدة؛ كما كانت آمال الشعوب

الاسكندنافيَّة القديمة تَكمُن في «الفالهالا»؛[٥] وكان لدى اليهود مفهومهم الغامض إلى حدٍّ ما عن شيؤول (الهاوية)؛ في حين تبنَّى اليونانيون فكرًا عن «هادس»، الواقعة في ظلمة العالم السُفلي.

في المقابل، تبنَّت الديانات الشرقيَّة فكرًا يتعلَّق بتناسخ الأرواح (أي دخولها في جسد جديد بعد الموت)، الذي أشاعته شيرلي ماكلين (Shirley MacLaine)، وآخرون. وقد طُرِحت هذه الفكرة في أشكال وصور عديدة ومختلفة، منذ عهد أفلاطون.

الحُجج اليونانيَّة المؤيِّدة للحياة ما بعد الموت

في العالم القديم، وقع أفلاطون (٤٢٨-٣٤٨ ق. م.) تحت تأثير مجموعة من الفلاسفة يُدعَون الفيثاغوريين، الذين يُعرَفون بالأهمية التصوُّفيَّة والسريَّة التي ينسبونها إلى الأرقام. ابتدع فيثاغورس، مؤسِّس هذه المدرسة، نظرية فيثاغورس الشهيرة، التي تحتل مكانة كبيرة في الهندسة الحديثة. كذلك، طرح الفيثاغوريون فكرة «انتقال الأرواح»، أو تناسُخ الأرواح.

وقد استندت نظريتهم على الفرضيَّة اليونانيَّة القائلة إن الروح البشريَّة خالدة وأبديَّة، بل وإنها، في حقيقة الأمر، وُجِدَت قبل الجسد. فحين يولد أحدهم، «تُسجَن» روحٌ أبدية داخل جسده بصورة مؤقَّتة. ومن ثَمَّ، فإن الجسد هو بمثابة سجنٍ للروح. ويخضع هذا الجسد المادي، أو هذا السجن، لعمليَّة التكاثر والشيخوخة؛ وعندما يموت في النهاية، تُعتَق النفس من حبسها. وبحسب العديد من نظريات تناسخ الأرواح، تتناسخ هذه الروح مرة أخرى، أو تنتقل، إلى جسد

---

[٥] المترجم: في الأساطير الإسكندنافيَّة، الفالهالا (تأتي من لغة نوردية قديمة، معناها «قاعة المقتولين») هي قاعة ضخمة مهيبة تقع في أسكارد، الموجودة في العالم الآخر، التي يذهب إليها الذين يموتون في المعارك، ويعيشون فيها بسعادة.

جديد. كذلك، يمكن لهذه الروح أن تهاجر أو ترتحل. فربما تتناسخ في شكل أسمى أو أدنى من أشكال الحياة. وعادةً ما يتحدَّد نوع الارتحال أو التناسخ التالي بحسب مستوى الفضيلة الذي تحقَّق في التناسخ الأخير. ويحدث الخلاص النهائي حين تُعتَق الروح نهائيًا من دورة التناسخ هذه، وتواصل الحياة في هيئة روح بلا جسد، حرة من التأثير المقيِّد للجسد المادي. قبل أفلاطون هذه الفرضيات بشكل أساسي، مُضيفًا إليها المزيد من أفكاره الشخصيَّة.

عرض أفلاطون تكهُّناته بشأن الحياة ما بعد الموت في حواره الشهيرة بعنوان «فيدو» (*Phaedo*). يبدأ هذا الحوار بمشهدٍ في زنزانة في أحد سجون أثينا، حيث ينتظر سقراط تنفيذ حُكم الإعدام عن «جريمته» المُتمثِّلة في إفساد شباب أثينا بواسطة أبحاثه الفلسفيَّة الثاقبة والمزعجة. نلتقي في هذا المشهد بسقراط في ساعاته الأخيرة، بينما كان ينتظر مجيء الحارس ومعه جرعة سُمٍّ مُميتة. وقد كان محاطًا بأصدقائه وتلاميذه (لم يكن أفلاطون موجودًا بسبب مرضه). اتَّسمت الأجواء بتناقض صارخ في الحالة المزاجيَّة، بين الملامح المرحة والسعيدة لسقراط، والخوف المرعب الذي سيطر على أصدقائه، الذين كانوا قد دخلوا بالفعل في حالة حداد.

وقد أمضى سقراط ساعاته الأخيرة يعلِّم تلاميذه عن الأفراح المنتَظَرة للحياة ما بعد الموت، قائلًا لهم: «صحيح أن كلماتي هذه ليست سوى صدى صوت، لكن، ما من سبب يمنعني من تكرار ما قد سمعتُه: فبالحقيقة، حريٌّ بي، بينما أنا ذاهب إلى موضع آخر، أن أتأمل وأتحدث عن طبيعة الرحلة التي أنا على وشك القيام بها. فليس لديَّ شيء آخر أفعله حتى غروب الشمس.»[٦]

---

[6] The Works of Plato, ed. Irwin Edman (New York: Random House, 1956), 114.

ثم أعرب سقراط بعد ذلك عن ثقته في وجود حياة مستقبليَّة، بأن فتح حديثًا مطوَّلًا عن هذا الموضوع، قائلًا: «والآن، يا حضرات المستشارين، أود أن أثبت لكم أن الفيلسوف الحقيقي لديه، وهو على وشك الموت، ما يدعوه إلى الشعور بالسعادة، وإلى الرجاء في أن ينال بعد الموت أعظم خير في العالم الآخر».[٧]

ثم تلا ذلك تقديم سقراط «إثباتًا» تفصيليًّا ومعقَّدًا لمبدأ خلود الروح. وقد طرح حُجة قائمة على مبدأ الأضداد. فقد افترض وجود تضاد عام وشامل في كلِّ شيء، بمعنى أننا نلاحظ يوميًّا في الطبيعة مجيء الأشياء من أضدادها. فالنوم يتحول إلى يقظة، التي بدورها تتحول لا محالة إلى نوم. والشيء الذي ينمو ينبغي أن يكون قبلًا أصغر. وما يتناقص لا بد أن كان قبلًا أكثر.

على هذا المنوال ذاته، ما كان قبلًا على قيد الحياة يمكن أن يموت. فالحياة تؤدي إلى نقيضها، أي الموت. ومن ثَمَّ، على الموت أيضًا أن يؤدي إلى نقيضه، أي الحياة.

ثم حاول سقراط أيضًا إثبات أن أرواح البشر كانت موجودة بالفعل قبل ولادتهم. واستندت حُجَّته هذه على «نظريَّة الاسترجاع» (recollection theory) الشهيرة التي قدَّمها أفلاطون. في هذه النظريَّة، حاول أفلاطون (في هذا الحوار وفي أحاديث أخرى له، ولا سيما في الحوار بعنوان «Meno») إثبات أننا نُولَد بأفكار معيَّنة داخل عقولنا يستحيل أن تكون قد جاءت إلا من وجود سابق للروح. فعلى سبيل المثال، ليست أفكارنا عن الجمال، والصلاح، والعدل، والقداسة مكتسَبة من خبراتنا في هذه الحياة، لكنها تكون موجودة بالفعل في عقولنا منذ ولادتنا. ومن ثَمَّ، فإن العمليَّة بأكملها التي

---

[7] Ibid., 117.

نسميها عمليَّة «التعلُّم» هي في واقع الأمر مجرد نوع من تحفيز الذاكرة لاسترجاع تلك الأفكار التي كنا ندركها داخل أرواحنا بمزيد من الوضوح، قبل أن يشوِّش عليها التأثير السلبي للأهواء والرغبات الجسديَّة عند الولادة.

وبمجرد نجاح سقراط في إثبات نظريَّة الاسترجاع، ونظريَّة الوجود السابق للروح، صار افتراض استمراريَّة وجود الروح بعد موت الجسد خطوة سهلة.

لكن، ظلَّ كيبيس (Cebes)، أحد تلاميذ سقراط، متشككًا بشأن ذلك؛ فقال لمعلِّمه: «إذن، يا سقراط، عليك أن تقنعنا بألا نخاف. لكن، في حقيقة الأمر، هذه ليست مخاوفنا نحن، بل هناك طفل في داخلنا يُمثِّل الموت بالنسبة له شبحًا. علينا أن نقنع هذا الطفل أيضًا ألا يخاف حين يقف بمفرده في الظلام».[8]

حينئذٍ، استطرد سقراط قائلًا إن الروح جوهرٌ روحيٌّ، أي أنها غير مصنوعة من مادة قابلة للتحلل أو الانحلال؛ ومن ثَمَّ، فهي لا يمكن أن تموت. وكان جواب سقراط كالتالي: «فكِّر معي إذن يا كيبيس. فبعد كلِّ ما قيل، أليس الاستنتاج الصحيح هو أن الروح شبيهة بكلِّ ما هو إلهي، وخالد، وعاقل، ومتجانس، وغير قابل للانحلال أو التغيير؛ بينما الجسد شبيه بكلِّ ما هو بشري، وفانٍ، وغير عاقل، ومتعدِّد الأشكال، وقابل للانحلال والتغيير؟ هل يمكننا إنكار ذلك يا عزيزي كيبيس؟»[9]

مشكلة الفساد

لكن، هناك خللٌ ما في منطق سقراط. فبعد أن اجتهد لتوضيح

---

[8] Ibid., 137.

[9] Ibid., 140.

فكـرة أن الـروح غـير قابلـة للتغيـير، اسـتطرد قائـلًا إنهـا في حقيقـة الأمـر قابلـة للتغيـير، مـن ناحيـة مـا، إذ هـي عُرضـة للفسـاد الأدبي. فقـد تحـدَّث بعـد ذلـك عـن التلـوُّث الـذي تعـاني منـه الـروح، والـذي ينبغـي أن يتنقَّـى ومـن خـلال المزيـد مـن عمليـات التناسـخ، قائـلًا: «أعنـي بهـذا أن البـشر الذيـن يتبعـون الشراهـة، والخلاعـة، والسُّـكر، ولا يفكِّـرون في تجنُّـب هـذه الأفعـال، سـيتحوَّلون إلى حمـير أو إلى حيوانـات أخـرى مـن هـذا القبيـل».[10]

تبـدو تكهُّنـات سـقراط عـن التناسـخ مسـلِّيَة إلى حـدٍّ مـا للقـارئ المعـاصر (باسـتثناء شـيرلي ماكلـين). فقـد تحـدَّث عـن بـشر يصـيرون ذئابًـا، أو صقـورًا، أو نحـلًا، أو دبابـير. (يبـدو إذن أننـا ينبغـي أن نحـترس جيـدًا لئـلا بقتلنـا عناكـب الحدائـق نـدوس عـلى أجـداد أجدادنـا).

ويثـير تجـدُّد الاهتـمام في العـصر الحديـث بتناسـخ الأرواح بعـض الأسـئلة الهامـة. لمـاذا ينجـذب كثـيرون بشـدة إلى فكـرة تناسـخ الأرواح؟ ربمـا تُعَـد الإجابـة ببسـاطة هـي أن تناسـخ الأرواح يبـدو أنـه يتيـح لنـا فرصـة ثانيـة للحيـاة.

نميـل إلى أن نتسـاءل كيـف قـد يبـدو الحـال إذا أتيحـت لنـا الفرصـة كي نعيـش حياتنـا مـرة أخـرى، ومـا هـي التغيـيرات التـي كنـا لنجريهـا. فـإن أحلامنـا تؤرِّقهـا أسـئلة مـن قبيـل «مـاذا لـو»، و«كان ينبغـي أن» بشـأن حياتنـا. وجميعنـا نحمـل عبئًـا مـا لذنـبٍ لم يُحسَـم أمـره. ومـن ثَمَّ، ربمـا تتيـح لنـا رحلـة ثانيـة عـبر الحيـاة الفرصـة للتكفـير عـن خطايانـا، والتعويـض عـن إخفاقاتنـا ونقائصنـا في هـذه الحيـاة. ولهـذا تقـدِّم لنـا فكـرة التناسـخ المتكـرِّر لـلأرواح أمـلًا في إحـراز تقـدُّم، أو في الارتقـاء بطموحاتنـا وبأدائنـا الأخلاقـي إلى مسـتوى أعـلى وأعـلى.

---

[10] Ibid., 143.

لكن، تكمُن مشكلة ضخمة في نظريَّة تناسخ الأرواح، من النادر أن يشير إليها أولئك الذين يتشبَّثون بهذا المعتقد، ألا وهي مشكلة استمراريَّة الوعي الإدراكي.

فإنني إنسان واعٍ. ويشمل هذا الوعي شيئًا رائعًا يُدعَى الذاكرة. فإنني أتذكَّر خبرات وتجارب مررتُ بها في طفولتي. وتخزِّن ذاكرتي قدرًا من المعرفة عن ماضيَّ الشخصي. قطعًا، البعض من هذه الذكريات غير سار، بينما البعض الآخر مُفرِح. وإنني كشخصٍ أمثِّل تاريخي الشخصي. فببساطة، أنا لستُ ما يصدف أن أفعله، أو أفكر فيه، أو أشعر به في هذه اللحظة، بل أنا ذلك الشخص نفسه الذي فتح الهدايا في صباح عيد الميلاد في عام ١٩٤٣. قطعًا، طرأت بعض التغييرات على جسدي، وتفكيري، وذاتي منذ عام ١٩٤٣، وهي تستمر مع استمرار الحياة؛ لكن، هناك خط من الاستمراريَّة يربط بين طفل عام ١٩٤٣ والشخص البالغ الموجود في الوقت الحاضر.

لنفترض الآن أن حياتي الحالية هي تناسخي الثالث أو الرابع أو المئة. فما القدر الذي أتذكَّره من تناسخاتي السابقة؟ الجواب، في حالتي، بسيط، وهو: لا شيء. فإنني لا أتذكر أيَّ شيء عن أيَّة خبرة حياتيَّة مررتُ بها قبل ولادتي. أعلم أن البعض حاولوا، عن طريق التنويم المغنطيسي، أو أشياء أخرى، إثبات وجود ذكرى مشوَّشة ودفينة في أعماقهم عن حياة سابقة. لكن، يبدو أن هذه الأشياء هي مجرد تخيُّلات وليس ذكريات حقيقيَّة.

هل تتذكَّر أنك عشت في هذا العالم من قبل أن تُولَد؟ إن كانت الإجابة هي لا، فقد صارت المعضلة واضحة. فما هي القيمة المحتمَلة التي يمكن أن يُمثِّلها التناسخ إذا لم تكن هناك استمراريَّة في الوعي بين الحيوات المختلفة؟ فإذا لم تكن هناك أيَّة استمراريَّة في

الوعـي، أو أيَّـة ذكريـات، فكيـف يمكننـا أن نقـول إنـه توجـد اسـتمراريَّة للحيـاة؟ فـإذا اسـتمرت حيـاتي بعـد هـذه الحيـاة دون أيَّـة اسـتمراريَّة في وعيـي الشـخصي، فهـل مـن سـيعيش هـذه الحيـاة التاليـة سـيكون أنـا؟

هـذه التكهُّنـات جميعهـا، التـي قـد تبـدو غريبـة وشـاذة عـلى بعـض القـراء، متأصِّلـة في مسـألة بالغـة الأهميَّـة. فتحـت سـطح هـذه الحُجـة تختبـئ مشـكلة الـروح الملوَّثـة، وقضيـة العدالـة المعلَّقـة وغير المحسـومة.

يتبنَّـى بعـض الأشـخاص مرهفـو الحـس الفكـرة التـي مفادهـا أن هـذا العـالم لا يحقِّـق دائمًـا العدالـة الكاملـة. فإننـا نلاحـظ جميعًـا أن الأبـرار يعانـون في غالبيَّـة الأحيـان، بينـما يزدهـر الأشرار. فللعـالم أسـنان، وأنيـاب، ومخالـب. وعـلى نقيـض مـا تُظهِـره هوليـوود، لا يربـح المُسـتضعَف، بـل يخـسر.

ويظـل السـؤال التـالي يؤرِّقنـا: لمـاذا يجـب أن أنخـرط في أعـمال الخـير والبـذل إذا كانـت العدالـة لا تتحقـق في هـذه الحيـاة؟ ففـي حقيقـة الأمـر، يجعـل هـذا مسـألة السـلوك الأخلاقـي بأكملهـا مسـتنقعًا مـن عـدم اليقـين. كتـب الـروائي الـروسي فيـودور دوستيوفسـكي (Fyodor Dostoevsky) في روايتـه بعنـوان «الإخـوة كارامـازوف» هـذه الكلـمات: «إذا لم يكـن هنـاك إلـه، فـكل شيء إذن مُبـاحٌ». فقـد اسـتطاع هنـا وضـع إصبعـه عـلى لُـبِّ المسـألة: فـإذا لم يكـن هنـاك إلـه، فـلا يوجـد أي ضـمان لتحقيـق العدالـة المطلقـة. وإذا لم يكـن هنـاك أي ضـمان لتحقيـق العدالة المطلقـة، فلـمَ يتحتـم إذن عـلى أيِّ إنسـان أن يسـلك بموجـب إلـزام أخلاقـي؟ لمَ لا يسـلك فقـط بحسـب مـا تمليـه عليـه مصلحتـه الشـخصيَّة؟

الحاجة إلى «ينبغي» في هذا العالم

في حياتنـا اليوميَّـة، لا تخلـو أحاديثنـا مـن كلـمات مـن قبيـل «ينبغـي، ويجـب، ولا بُـد». فإننـا نقـول لأبنائنـا: «ينبغـي أن تقـول الصـدق».

لكن، حين يسألونك: «لماذا؟» ماذا سيكون ردُّك؟ يمكنك الاحتكام إلى سلطتك، قائلًا: «لأنني أقول لك هذا». وربما تحتكم إلى نظرتهم عن أنفسهم، قائلًا: «لأن الأمانة هي أفضل تصرُّف». لكن، حتى الطفل نفسه سيتساءل إن كانت الأمانة هي بالفعل أفضل تصرُّف أم لا، إذا كان قد أخذ لتوِّه خفية بعض قطع الحلوى.

كلما قال لنا أحدهم: «ينبغي عليك أن»، نغوَى بالردِّ عن طريق طرح واحد من هذين السؤالين الشائعين: «هذا وفقًا لرأي مَن؟» أو «لماذا ينبغي أن أفعل هذا؟» يثير هذان السؤالان القضيَّة التي تتعلَّق بأساس الإلزام الأخلاقي. هل يوجد سبب مقنع يدعو أي إنسان إلى أن يقول «ينبغي» بشأن أيِّ شيء؟

هناك فرق شاسع في اللغة بين جملة «**أريد** أن أفعل شيئًا ما»، وجملة «**ينبغي** أن أفعل شيئًا ما»، وهو الفرق بين **الرغبة والواجب**. يتبدَّد هذا الفرق بين الجملتين إن كنتُ أرغب بالفعل في فعل ما ينبغي أن أفعله. فإن كنتُ أريد أن أفعل ما ينبغي أن أفعله، فحينئذٍ ستكون قراراتي سهلة. لكن، يقتحم الصراع الأخلاقي المشهد عند وجود تعارُض بين الرغبة والواجب. فحين أريد أن أفعل ما ينبغي ألا أفعله، أو حين لا أريد أن أفعل ما ينبغي أن أفعله، حينئذٍ أشعر بوخز في ضميري المنزعج.

يُستخدَم لفظ «ينبغي» بأكثر من طريقة. وقد فَرَّق الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط بين نوعين من «الإلزام»: فهناك «إلزام افتراضي»، و«إلزام أخلاقي».

يشير الإلزام الافتراضي إلى نوعٍ من الإلزام ينطوي على اتباع وسائل معيَّنة لازمة لتحقيق غايات معيَّنة منشودة. على سبيل المثال، إذا ذهبتُ إلى العمل في يوم ينبئ بسقوط الأمطار، فربما أقول لنفسي:

«ينبغي أن آخذ المظلة». لستُ أتحدَّث هنا عن واجب أخلاقي. (ما لم يكن هناك، بالتأكيد، واجب أخلاقي ضمني يُلزِمني بأن أعتني بجسدي). بل مجمل الأمر هو أنني إن أردتُ ألا أبتل، فسيتحتم عليَّ أن أستخدم الوسائل اللازمة لتحقيق تلك الغاية. ينبغي أن تكون معي مظلة، كي أحمي نفسي من الأمطار. فإذا أردتُ ألا أبتل، ينبغي أن أحمل مظلتي.

لنتناول مثالًا توضيحيًّا آخر: افترض معي أن أحدهم قرَّر أن يصير لصًّا، بل ولصًّا ناجحًا، ففكَّر هكذا: «إذا أردتُ أن أكون لصًّا ناجحًا، ينبغي أن أتوخَّى الحذر لئلا يُلقَى القبض عليَّ في أثناء السرقة». يفكِّر هذا اللص هنا بحسب الإلزام الافتراضي، في حين أنه لو فكَّر بحسب الإلزام الأخلاقي، سيقول لنفسه: «ينبغي ألا أسرق البتَّة».

لكن، بمجرد انتقالنا من الإلزام الافتراضي إلى الإلزام الأخلاقي، نكون قد دخلنا نطاق الواجب. يتعلَّق الواجب بالمبادئ الأخلاقيَّة. وبحسبه، إذن، يدل لفظ «ينبغي» على واجب أخلاقي إلزامي، ويعني أن ما أريد أن أفعله لا بد أن يخضع لما ينبغي أن أفعله.

نختبر جميعًا هذا الصراع بين الرغبة والواجب، ونعرف أننا نريد فعل أشياء ليست صائبة. فإننا نشعر، على الأقل، بعبء هذا النوع من الصراع. لكن، لنفترض معًا أنه لا يوجد ما يسمَّى بفعل صائب أخلاقيًّا، ولنفترض أن الصواب والخطأ هما مجرد عادات اجتماعيَّة، وقواعد عشوائيَّة تساعد المجتمع على أن يمارس حياته بسلاسة. ولنفترض أيضًا أن جميع الأوامر الإلزاميَّة هي مجرد واجبات افتراضيَّة لا ترتقي البتَّة إلى مستوى الإلزام الأخلاقي. حينئذٍ، يصير الشيء الأهم هو أن يتوخَّى اللص الحذر، لئلا يُلقَى القبض عليه. وحينئذٍ، يصير الشر الوحيد الذي يمكن أن يرتكبه هو الإخفاق في تنفيذ عمليَّة سرقة ناجحة.

ما علاقة كل هذا بالحياة ما بعد الموت؟ باختصار، هناك علاقة وثيقة.

فلو لم يكن هناك ما يسمَّى بالصواب والخطأ، ولو لم يكن هناك ما يسمَّى بالإلزام الأخلاقي، لن يوجد إذن ما يسمَّى بالاستقامة. ولو لم يكن للاستقامة أو البر وجودٌ، ففي النهاية، لن يوجد ما يسمَّى بالعدل. بل يصير العدل مجرد مشاعر، خاضعة لما يفضِّله الفرد أو الجماعة. فإن فضَّلت الأغلبيَّة في مجتمعٍ ما مكافأة فعل الزنا، سيأخذ العدل إذن مجراه حين ينال الزاني مكافأة عن زناه. وإن فضَّلت الأغلبيَّة في مجتمع آخر معاقبة الزنا، سيتحقق العدل إذن حين ينال الزاني عقابه. وبموجب ذلك، لن يوجد إذن ما يسمَّى بالعدل المطلق، وذلك لأن إرادة الفرد أو الجماعة لا يمكن أن تكون معيارًا أخلاقيًّا مطلقًا للعدل، بل مجرد تعبير عن تفضيلات.

في المقابل، إن وُجِد ما يسمَّى بالصواب والخطأ، حينئذٍ يصير هناك وجود للاستقامة الحقيقيَّة. وعندئذٍ، سنتمكَّن من تعريف العدالة بمفردات الثواب والعقاب، اللذين يوزَّعان بحسب العدل. وعندئذٍ، يُغلَّف لفظ «ينبغي» بسلطة الإلزام الأخلاقي الحقيقي.

صارع كلٌّ من كانط ودوستيوفسكي مع السؤال التالي: هل يمكن، دون عدل مطلق، أن يكون هناك أساس سليم للإلزام الأخلاقي؟ فلو لم يكن هناك عدل مطلق، لماذا نكترث إذن بأن نكون أبرارًا؟ يمكننا التمادي في هذا قليلًا كي نقول إنه لو كانت قراراتي الأخلاقيَّة عديمة الأهميَّة، فإنني أيضًا عديم الأهميَّة. فلو كانت أفعالي عديمة الأهميَّة تمامًا، فحياتي إذن نفسها عديمة الأهميَّة أيضًا.

لهذا السبب رأى كانط أن الحياة دون إلزام أخلاقي هي حياة بلا معنى. يمكننا، بالتأكيد، أن ننسب قدرًا من المعنى لحياتنا بناءً

على تفضيلاتنا ومشاعرنا الشخصيَّة؛ لكن، في هذه الحالة، يكون كلُّ ما لدينا هو أمنية عاطفيَّة بأن يكون لحياتنا معنى. وهذه أمنية عاطفيَّة مُعلَّقة في الهواء، دون أيِّ أساس يمكنها أن ترتكز عليه.

أقرَّ كانط بالحقيقة العامة لوجود حسٍّ بالصواب والخطأ لدى الإنسان. فإن كلَّ إنسان يسلُك مدفوعًا بحس الواجب الأخلاقي؛ وجميعنا نشعر بعبء «ينبغي» على كاهلنا. ثم طرح كانط أيضًا السؤال العملي التالي: «ما الشيء الذي يلزم توافُره حتى يكون لهذا الحسِّ الأخلاقي معنى؟»

وقد كانت إجابته الأولى عن هذا السؤال محوريَّة، إذ قال إنه كي يكون لحسِّ الواجب الأخلاقي معنى، ينبغي أن يتوافر ما يسمَّى بالاستقامة، أو الصواب. وكي يكون للاستقامة، أو الصواب والخطأ، معنى، لا بد أن يوجد عدلٌ. ومن ثَمَّ، فإن العدل شرط أساسي يَلزَم توافُره حتى يكون للإلزام الأخلاقي معنى.

لكن، لدينا مشكلة، ألا وهي أن العدل لا يتحقَّق دائمًا في هذا العالم. ينجح الكثير جدًا من اللصوص في مساعيهم. فهل يعني ذلك أن الجريمة تفيد في النهاية، وأن البار لن يتزكَّى؟

هذا هو الاستنتاج الوحيد الذي كان بإمكاننا التوصُّل إليه لو لم يكن هناك عدلٌ مُطلق ونهائي. ربما يوجد بالفعل ما يسمَّى «عدل تقريبي»، أو عدل جزئي وموسمي، بحسبه يُلقَى القبض على اللص، وتعود ممتلكات ضحاياه إليهم. لكن، في أحيان كثيرة جدًا، تختل موازين العدل. وكي يكون للاستقامة والبر معنى على الإطلاق، يلزمنا شيء يفوق العدل التقريبي، يلزمنا عدلٌ مطلقٌ.

وإذا أردنا الحصول على العدل المطلق، فإن الشرط الأول الذي ينبغي توافُره هو أن ننجح في الخروج من القبر أحياء. فإذا لم يحدث

ذلك، وإذا لم يتحقق العدل على نحو تام في هذا العالم، لن يصير العدل إذن مطلقًا، ويصير حس الإلزام الأخلاقي لدينا عديم المعنى، وقبض الريح.

لكن، إذا كان هناك عدل مطلق سيتحقق، فلا بد أن نكون موجودين كي نشهده. وما لم ننجح في الخروج من القبر أحياء، لن يسعنا أن نشهد تحقيق هذا العدل. وفي هذا الشأن، ردَّد كانط صدى أفكار سقراط وأفلاطون، وكذلك أفكار أيوب والجامعة.

الحاجة إلى القاضي الكامل

لكن لنفترض أننا نجحنا **بالفعل** في الخروج من القبر أحياءً، وعدنا في جسدٍ آخر كجسد دبور أو حمار، فإننا ربما نظل ملاحَقين بمزيد من الظلم. فنظير حمار بلعام، قد يضربنا سيدنا بلا سبب. أو ربما يكون نصيبنا رشة من مبيد حشري لرجلٍ ظالم.

لا يمكن عقد مُحاكمة دون متهم يقف كي يُحاكَم. كذلك، لا يمكن عقد المحاكمة لو كان المتَّهم هو الشخص الوحيد الحاضر؛ فلا بد من وجود قاضٍ. ودون قاضٍ، لا وجود لمحاكمة. ودون محاكمة، تغيب العدالة.

ومن ثَمَّ، فإن الشرط الثاني الأساسي الذي يلزم توافُره من أجل تحقيق العدل المطلق هو وجود قاضٍ كامل ومطلَق. فما من قاضٍ عادي سيجدي نفعًا في هذه الحالة. فلضمان تحقيق العدل المُطلق، ينبغي أن يتحلى القاضي بالسمات المناسبة.

أولًا، وقبل كلِّ شيء، ينبغي أن يكون القاضي نفسه بارًّا تمامًا. فإذا وُجِد في شخصيته أي عيب أو خلل، فمن المحتمَل أن تكون أحكامه ملوَّثة بالفساد، وحينئذٍ، سيخفق سعينا وراء تحقيق العدل المُطلق.

لنفترض أن هذا القاضي كان بارًّا تمامًا، لكنه كان يعاني من بعض النقائص أو من بعض مواطن الضعف الأخرى. فلنفترض معًا أنه يكن أفضل النوايا، وأنه خالٍ من أيَّة شائبة أخلاقيَّة، لكنه يفتقر إلى المعرفة اللازمة التي تمكِّنه من إصدار حكم كامل. لنتخيل معًا وجود قاضٍ فوق الشبهات، لا يستسلم للرشاوى، أو للأحكام المسبقة، لكنه غير مُلمٍّ بجميع أبعاد الظروف المعقَّدة للقضية. فهو قد يصدر حُكمه بحسب أفضل ما كان في وسعه، لكن، يظل هذا الحُكم أدنى من مستوى العدل المطلق. يستلزم العدل المطلق معرفة كاملة بجميع الظروف والأبعاد التي يمكن تصورها. قد يتحقق العدل الكامل دون معرفة كاملة، لكن هذا سيكون بمحض الصدفة السعيدة. لكن، لضمان تحقيق العدل الكامل بالفعل، ينبغي أن يتحلى القاضي الكامل بمعرفة كاملة. باختصار، ينبغي أن يكون هذا القاضي الكامل كلي العلم، لئلا تفوته أيَّة تفصيلة تمت بصلة للموضوع، من شأنها أن تشوِّه حُكمه.

لكن، لنفترض معًا أن هذا القاضي الكامل سلك بالفعل في نزاهة تامة، وبمعرفة كاملة، فأصدر حُكمًا كاملًا. هل هذا كافٍ لضمان تحقيق العدل الكامل؟ لا، ليس بعد. فإذا اتُّخذ قرار كاملٌ، يظل تنفيذه أمرًا ضروريًّا. فإن القوانين الكاملة لا تضمن تنفيذًا كاملًا. ولا تكفل الأحكام الكاملة تحقيق نتائج كاملة. فربما يهرب المتهم، ويخدع العدالة.

وكي ينفَّذ العدل الكامل، لا بد أن يتمتع هذا القاضي بالسلطة اللازمة كي يحرص بالفعل على تنفيذ العدل. فينبغي أن يتمتع بسلطة تكفي للصمود أمام أيَّة محاولة لعرقلة مجرى العدالة. ينبغي ألا تخرج ذرة واحدة خارج نطاق تحكُّمه وسلطانه، لئلا تصير

هـذه الـذرة الواحـدة هـي حبـة الرمـل التـي تـؤدِّي إلى توقـف عمـل آلـة العـدل، عـلى نحـو يُحـدِث صريـرًا هائـلًا. ومـن ثَـمَّ، لا بـد أن يتمتـع هـذا القـاضي الكامـل بسُـلطة مُطلقـة وكاملـة. أي ينبغـي أن يكـون كليَّ القـوة والقـدرة.

هنـاك بـشرى سـارة تكمُـن في التصريـح الكتـابي بأنـه «قَـدْ مَلَـكَ الـرَّبُّ الْإِلَـهُ الْقَـادِرُ عَـلَى كُلِّ شَيْءٍ» (رؤيـا ١٩: ٦). فلـو لم يملـك الـرب الإلـه القادر عـلى كلِّ شيء، لـن يسـعنا التحـلِّي بـأي رجـاء في تحقيـق العـدل. فـإن ربًـا وإلهًـا عاجـزًا لـن يمكنـه أن يخـدم قضيـة العـدل. وبسـبب ذلـك، مـا مـن شـخص يسـتطيع أن يضمـن أن يكـون لحـسِّ الإلـزام الأخلاقـي معنـى سـوى إلـه كامـل أدبيًـا، وكلي العلـم، وغـير قابـل للتغيـير، وسرمـدي، وكلي القـدرة. فبـدون اللـه، تغيـب العدالـة. ودون عدالـة، لا وجـود لصـواب مُطلـق أو خطـأ مُطلـق.

يُعيدنـا ذلـك إلى اسـتنتاج دوستيوفسـكي: «إذا لم يكـن هنـاك إلـه، فكلُّ شيء مُبـاح». هـذا الافـتراض لا يقـدِّم للإنسـان أو للمجتمـع أيَّـة أسـس حقيقيَّـة للمبـادئ الأخلاقيَّـة. ودون أسـاس أخلاقـي، يسـتحيل الحفـاظ عـلى المجتمـع. ربمـا يصمـد هـذا المجتمـع لفـترة وجيـزة، بينـما تحـاول بقايـا المعايـير الأخلاقيَّـة الحفـاظ في وهـنٍ عـلى تماسـكه، لكنـه في النهايـة سـينهار تحـت الثقـل الرهيـب لعاداتـه وأعرافـه التـي لا تُحتمَـل.

ومـن ثَـمَّ، دافـع كانـط عـن وجـود اللـه وعـن وجـود حيـاة مـا بعـد المـوت بنـاءً عـلى أسـس عمليَّـة. فقـد أصرَّ عـلى أننـا ينبغـي أن نتوصَّـل إلى هذيـن الاسـتنتاجين إذا أردنـا أن يكـون للعـدل أي أسـاس عـلى الإطـلاق.

أدرك كانـط جيـدًا أن هـذه الاعتبـارات العمليَّـة لا «تُثبِـت» وجـود اللـه، لكنـه فقـط قـال إننـا إن أردنـا أن يكـون للحيـاة معنـى، فـلا بـد أن نقبـل بوجـود إلـه يضمـن تحقيـق العـدل. فـإن كل مـا تُثبِتـه هـذه

الاعتبارات هو أنه إذا كان لحس الصواب والخطأ بداخلي معنى، فلا بد إذن أن يكون الله موجودًا. قال كانط: «ينبغي أن نعيش كما لو كان هناك إله».

لا تكمن فائدة حُجَّة كانط في كونها تُثبِت وجود الله أو وجود حياة ما بعد الموت، بل في كونها تنقض جميع الفلسفات الأخرى التي ترغب في تبنِّي رأيين نقيضين في الآن ذاته، وكذلك، في كونها تُحطِّم جميع وجهات النظر الوسطيَّة التي تحاول البحث عن مكان راحة لها بين الإيمان الصريح والتام بوجود الله، والعدمية المتطرِّفة.

وليس من قبيل الصدفة أن فلاسفة كثيرين منذ عهد كانط قد تبنُّوا فلسفات اليأس العدمية، قائلين إنهم لا يستطيعون الإيمان بوجود الله أو بوجود حياة بعد الموت لمجرد أن البدائل قاتمة للغاية. وقالوا أيضًا: «دعونا نواجه الحقائق دون خوف: لا يوجد إله، ولا يوجد عدل، ولا يوجد صواب أو خطأ. فإننا نعيش بمفردنا في كون ليس معارضًا أو مرحبًا بقراراتنا الأخلاقيَّة». بل إن الشيء الأسوأ كثيرًا من ذلك أيضًا هو أننا نعيش في كون غير مكترث نهائيًا بالأفعال البشريَّة. فهو لا يكترث البتَّة بالإنسان، لأن الإنسان عديم القيمة تمامًا.

تصرخ كلُّ عظمة من عظامنا محتجَّة على هذه النظرة السلبيَّة عن حياة الإنسان. فإن كل نفس نلتقطه محمَّل بالرجاء في أن حياتنا تُمثِّل أهميَّة. فإن عقولنا عاجزة عن أن تقبل أو تحتمل أن الأمر برمته عبثيٌّ وباطلٌ. وصحيح أننا نستمد بعض التعزية من التكهُنات العملية لفلاسفة من قبيل سُقراط وكانط، لكننا نتوق إلى المزيد. نحتاج إلى ضمان ويقين يفوق الأمنية العمليَّة في تحقيق العدل.

نحتاج إلى كلمة «من خارجنا». نحتاج إلى دليل ملموس على أن رجاءنا ليس مجرد وهم مبني على توقٍ داخلي إلى المعنى والأهميَّة. نحتاج إلى أكثر من مجرَّد «كما لو أن» حتى نستمد منه شجاعتنا.

لهذا السبب، يُمثِّل «خبر» العهد الجديد أهميَّة حيويَّة، لأننا فيه نجد سجلًا يتعدَّى حدود التكهنات، ويصل إلى مستوى الحق التاريخي. دعونا نتَّجه إذن إلى رسالة المسيح، وإلى قصته. ولننصت معًا إلى رسالة يسوع الناصري، وإلى شهادة انتصاره على القبر.

الفصل الثامن

يسوع والحياة ما بعد الموت

كي نسمو فوق تكهُّنات الفلاسفة، ونتجنَّب التنجيم، سيتحتم علينا أن نحوِّل انتباهنا إلى يسوع. فما من تعليم عن موضوع الحياة ما بعد الموت يفوق تعليم يسوع الناصري، أو حتى يضاهيه. فقد كان مفهوم الحياة ما بعد القبر يَكمُن في لُبِّ رسالته.

ونجد إحدى أشهر كلمات يسوع عن الحياة ما بعد الموت في الأصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا. في هذا الأصحاح، كان يسوع في العُلِّيَّة لأجل تناوُل العشاء الأخير مع تلاميذه. كان هذا في ليلة صلبه، قبل وقتٍ قليلٍ من الكرب الشديد الذي مرَّ به في جثسيماني، وما أعقبه من إلقاء القبض عليه.

وكي يُطَمئن يسوع أحباءه، قال هذه الكلمات: «لَا تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ. أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ فَآمِنُوا بِي. فِي بَيْتِ أَبِي مَنَازِلُ كَثِيرَةٌ، وَإِلَّا فَإِنِّي كُنْتُ قَدْ قُلْتُ لَكُمْ. أَنَا أَمْضِي لِأُعِدَّ لَكُمْ مَكَانًا، وَإِنْ مَضَيْتُ وَأَعْدَدْتُ لَكُمْ

مَكَانًا آتِي أَيْضًا وَآخُذُكُمْ إِلَيَّ، حَتَّى حَيْثُ أَكُونُ أَنَا تَكُونُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا» (يوحنا ١٤: ١-٣).

لماذا سيطر اضطراب القلب على التلاميذ؟ نعلم أن يسوع نفسه أيضًا «اضْطَرَبَ بِالرُّوحِ» في تلك الليلة (يوحنا ١٣: ٢١)، بسبب ما كان على وشك إعلانه عن تعرُّضه للخيانة على يد يهوذا.

تخيَّل معي المشهد. فقد خيَّمت سحابة كثيفة من الكآبة المشؤومة على العُلِّيَّة، وانتهت بهم ثلاث سنوات من الخدمة العلنية، ومن الشركة الحميميَّة إلى تلك الساعة. كانت هذه ساعة محنة شديدة. وقد كان هناك الكثير الذي يدعو إلى الاضطراب. كان شعور بوشوك النهاية يحوم حولهم. كان يسوع يعلم أن ساعته قد جاءت، فأعلن لأحبائه وشوك موته. ثم زاد من جزعهم بإخبارهم ثلاثة أمور أخرى مثيرة للاضطراب، ألا وهي أن يهوذا سيسلمه، وأن بطرس سينكره، بل والأسوأ من كل ذلك أيضًا أنه سيغادرهم بالجسد، إذ قال لهم: «يَا أَوْلَادِي، أَنَا مَعَكُمْ زَمَانًا قَلِيلًا بَعْدُ. سَتَطْلُبُونَنِي، وَكَمَا قُلْتُ لِلْيَهُودِ: حَيْثُ أَذْهَبُ أَنَا لَا تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا، أَقُولُ لَكُمْ أَنْتُمُ الْآنَ» (يوحنا ١٣: ٣٣).

حينئذٍ، سأله بطرس متعجبًا: «يَا سَيِّدُ، إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ؟» أَجَابَهُ يَسُوعُ: «حَيْثُ أَذْهَبُ لَا تَقْدِرُ الْآنَ أَنْ تَتْبَعَنِي، وَلَكِنَّكَ سَتَتْبَعُنِي أَخِيرًا» (يوحنا ١٣: ٣٦).

كانت هذه الكلمات التي نطق بها المسيح محمَّلة بمحتوى تاريخي. فقد بدأت علاقة يسوع بسمعان بطرس بكلمتين بسيطتين: «هَلُمَّ وَرَائِي» (متى ٤: ١٩)؛ وعندئذٍ، ترك بطرس شباكه، وتبع يسوع. ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا، أينما ذهب يسوع، كان بطرس يذهب. فقد رافقه إلى عرس قانا الجليل، وفوق جبل التجلي، حتى أنه مشى

معه على الماء. أما الآن، فقد كان وقت التبعيَّة قد بلغ نهاية فجائيَّة، إذ قال له يسوع: «لَا تَقْدِرُ الْآنَ أَنْ تَتْبَعَنِي».

من أصعب الصراعات التي يمكن لإنسان أن يمرَّ بها بينما يقترب من الموت هو معرفته بأنه سيتحتم عليه أن يسير هذه الرحلة بمفرده، دون رفقة أيِّ إنسان. فربما نجلس عند أطراف فراش أحبائنا، ونمسك بأيديهم، ويمسكون هم بأيدينا. لكن، تأتي لحظة فراق. وهذا الفراق، وإن كان مؤقتًا، هو ما يكدِّر أرواحنا. ففي لحظة الموت المحدَّدة، وحين يُلفَظ آخر نفس، ويتوقف القلب عن النبض، يُقال عادةً: «لقد رحل!» ولهذا نصِف الموت بأنه رحيل، أو فراق.

عندما كانت أرملة صرفة تعول إيليا، أُصيب ابنها بمرض خطير، ثم مات. ويخبرنا العهد القديم بأن إيليا أقام الولد من الموت. لكن قبل حدوث المعجزة، عنَّفت الأرملة الثكلى إيليا، وصرخت في وجهه قائلة: «مَا لِي وَلَكَ يَا رَجُلَ اللهِ! هَلْ جِئْتَ إِلَيَّ لِتَذْكِيرِ إِثْمِي وَإِمَاتَةِ ابْنِي؟» (١ ملوك ١٧: ١٨).

حينئذٍ أجابها إيليا في صيغة آمرة: «أَعْطِينِي ابْنَكِ». ثم يخبرنا الكتاب المقدس بأن إيليا «أَخَذَهُ مِنْ حِضْنِهَا، وَصَعِدَ بِهِ إِلَى الْعُلِّيَّةِ الَّتِي كَانَ مُقِيمًا بِهَا» (١ ملوك ١٧: ١٩).

وقبل أن يصنع إيليا المعجزة، كان عليه أن يأخذ الابن من حضن أمه. ويتضح لنا من النص أن هذه المرأة تشبَّثت في استماتة بجثمان ابنها، من شدة حزنها، وكان على إيليا أن ينتزعه منها بالقوة.

ليس هذا المشهد بالغريب علينا. فإننا نرغب في التشبث بأحبائنا لأطول فترة ممكنة. وتكاد تكون لحظة الانفصال والفراق غير محتمَلة.

بل وحتى تلك الكلمات التي أضافها يسوع قد اتَّسمت بالغموض. فماذا كان يقصد حين قال لبطرس إنه سيتبعه أخيرًا؟ على

الأرجح، فهم بطرس أنه يقصد هذا: «لا يمكنك أن تتبعني إلى الموت الآن، لكنك أنت أيضًا ستموت لاحقًا».

ومن ثَمَّ، يثار السؤال التالي: إلى أين كان بطرس سيتبع يسوع؟ وهل كان فقط سيتبعه إلى القبر؟ كلا. أجاب يسوع عن هذه الأسئلة في الأصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا، حين قال «لَا تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ»، ثم قدم سببًا لهذه الوصيَّة.

أولًا، دعا يسوع التلاميذ إلى ممارسة فعل إيمان، حين قال لهم: «أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ فَآمِنُوا بِي» (يوحنا ١٤: ١). وكان يقصد ببساطة: «ضعوا ثقتكم فيَّ». لم يطلب يسوع هنا قفزة إيمان أعمى، لكنه حين طلب من تلاميذه أن يضعوا ثقتهم فيه، كان هناك تاريخ طويل يؤيِّد ويدعم مطلبه هذا. بدا الأمر كما لو أن يسوع يقول: «انتبهوا جيدًا، أنا لم أخذلكم قط من قبل. لم يحنث أبي قبلًا بأيِّ عهد قطعه، وكذلك أنا أيضًا. فقد أثبتُّ لكم قبلًا أنني أهل للثقة. والآن، حين أمضي، يكون الوقت قد حان كي تضعوا ثقتكم فيَّ بناءً على وعدي لكم. أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ فَآمِنُوا بِي. فإن مفتاح تهدئة قلوبكم المضطربة هو أن تضعوا ثقتكم فيَّ من جهة المستقبل».

هذا هو جوهر المسيحيَّة. ولهذا السبب نتحدَّث عن **الإيمان** المسيحي، وليس عن **الديانة** المسيحيَّة. يتعلَّق الدين بالممارسات التعبُّديَّة الخارجيَّة للبشر؛ في حين تتعلَّق المسيحيَّة، أو الإيمان المسيحي، بالثقة في الله من جهة حياتنا نفسها. كانت الخطوة التي طلب يسوع من تلاميذه أن يأخذوها هي، من الناحية العمليَّة، خطوة ضخمة وهامة. فعمليًّا، شتان الفارق بين **الإيمان** بالله، **والثقة فيه**. لكن، من الناحية النظريَّة، كان ينبغي ألا يستلزم الأمر أخذ أيَّة خطوة على الإطلاق. فإن الإيمان بالله ينبغي ألا يختلف عن تصديق

الله، وينبغي أن يكون التمييز بينهما سفسطة محضة. ففي حقيقة الأمر، إن كنا نؤمن حقًّا بالله، سنصدِّق كل ما يقوله لنا.

لكن، بحسب الواقع الملموس، عادةً ما تكون هناك فجوة بين إيماننا النظري بالله، وثقتنا الفعليَّة فيما يقوله؛ وهذا لأن إيماننا ليس نقيًّا. فنظير الذهب الملوَّث بالشوائب، هكذا أيضًا عادةً ما يكون إيماننا مختلطًا بالشك. ولهذا نصرخ قائلين: «أُومِنُ يَا سَيِّدُ، فَأَعِنْ عَدَمَ إِيمَانِي» (مرقس ٩: ٢٤).

وعند مجيء لحظة الموت، قد يهاجم الخوف والشك قلبنا، مقاومًا إيماننا. وفي تلك اللحظة بالتحديد، يتحتم أن نصغي إلى كلمات يسوع القائلة: «آمنوا بي».

إعداد مكان في بيت الآب

تابع يسوع حديثه معلنًا عن «المكان» الذي سيتبعه إليه التلاميذ أخيرًا، قائلًا: « فِي بَيْتِ أَبِي مَنَازِلُ كَثِيرَةٌ ... أَنَا أَمْضِي لِأُعِدَّ لَكُمْ مَكَانًا» (يوحنا ١٤: ٢).

حين كان يسوع في الثانية عشر من عمره، أذهل الشيوخ في الهيكل، وحيَّرهم. وحين عثر عليه والداه المعذَّبان من القلق هناك، عنَّفته أمه قائلة: «يَا بُنَيَّ، لِمَاذَا فَعَلْتَ بِنَا هَكَذَا؟ هُوَذَا أَبُوكَ وَأَنَا كُنَّا نَطْلُبُكَ مُعَذَّبَيْنِ!» (لوقا ٢: ٤٨).

حينئذٍ أجاب الصبي يسوع أمه المعذَّبة من القلق بكلمات توبيخ مستترة، قائلًا: «لِمَاذَا كُنْتُمَا تَطْلُبَانِنِي؟ أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ فِي مَا لِأَبِي؟» (لوقا ٢: ٤٩).

كان عمل الآب («مَا لِأَبِي») يُجرَى في الهيكل. ولاحقًا، وصف يسوع هيكل أورشليم مرة أخرى بأنه بيت أبيه، حين قال: «لَا تَجْعَلُوا بَيْتَ أَبِي بَيْتَ تِجَارَةٍ!» (يوحنا ٢: ١٦).

لكن، حين تحدَّث يسوع مرة أخرى في الأصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا عن بيت أبيه، لم يكن يشير إلى هيكل أورشليم، ذلك البيت الأرضي لله في العهد القديم. فقد كان ذلك البيت زائلًا، وفي حقيقة الأمر، تعرَّض للهدم والخراب في عام ٧٠ م. بل كان يسوع يتحدث عن السماء، المسكن الحقيقي والأبدي لأبيه.

وعد يسوع تلاميذه بأنهم سيتبعونه يومًا ما إلى بيت أبيه في السماء، وقال: «أَنَا أَمْضِي لِأُعِدَّ لَكُمْ مَكَانًا»، موضحًا لهم أن رحيله من وسطهم، الذي تسبَّب في اضطراب قلوبهم، ينبغي أن يكون سبب فرح عظيم. فقد مضى عنهم كي يعد لهم منازلهم في السماء.

لم يكتفِ يسوع بجعل ذهابنا إلى السماء ممكنًا، لكنه في حقيقة الأمر، ذهب بنفسه إلى هناك أولًا لتأكيد الحجز، وتجهيز الغرف من أجلنا.

كنت أقضي شهورًا متواصلة من العام بعيدًا عن بيتي. وقد ترك السفر الكثير أثرًا طويل الأمد عليَّ. وعبر السنوات، لاحظت ظهور أنماط في حالتي النفسيَّة من جهة السفر. فأولًا، صرت أكثر تدقيقًا في تفاصيل الحجوزات. فما من شيء أكثر إحباطًا لمسافر منهك من أن يكتشف، عند وصوله إلى وجهته، أن الفندق لم يسجِّل حجزه، أو أنه أعطى غرفته لنزيل آخر. تحدث مثل هذه الأخطاء، ويثير حدوثها السخط الشديد.

لكننا قد حظينا، في رحلتنا إلى السماء، بأفضل الحجوزات على الإطلاق، والتي أعدَّها لنا من قبل وصولنا أفضل منسِّقي الرحلات على الإطلاق. فقد سبقنا يسوع بنفسه كي يُعِد لنا مكانًا في بيت أبيه. وما من خطأ قد يحدث في مثل هذا الحجز.

إن كنا ننتمي إلى المسيح، فلنا حجزٌ ثابت كالصخر. ففي بيت

الآب منـازل كثـيرة، وهنـاك مـكان لنـا مـا مـن أحـد آخـر يسـتطيع أن ينزعـه منـا.

نظرة «ناضجة» عن الحياة الأبديَّة

أعتقـد أن الكلـمات الأكـثر تعزيـة التـي نطـق بهـا يسـوع يومًـا عـن السـماء هـي تلـك التـي نجدهـا في يوحنـا ١٤: ٢، حيـث قـال: «وَإِلَّا فَإِنِّي كُنْتُ قَدْ قُلْتُ لَكُمْ».

تحمـل هـذه الكلـمات نـبرة أبويَّـة. كان يسـوع يتحـدث كأب لأبنائـه. وقـد لاحظنـا أنـه قبيـل هـذا بلحظـات، دعـا يسـوع تلاميـذه «يَـا أَوْلَادِي»، حـين قـال: «يَـا أَوْلَادِي، أَنَـا مَعَكُـمْ زَمَانًـا قَلِيـلًا بَعْـدُ» (يوحنـا ١٣: ٣٣). تـأتي أوقـات في حيـاة الأبنـاء حـين يتحتـم عـلى الآبـاء إخبارهـم بحقيقـة الوضـع. ففـي وقـتٍ مـا، ينبغـي أن يُفطَـم الأطفـال عـن عـالم القصـص الخياليَّـة والأسـاطير. يحـل يـوم الحقيقـة الواقعيَّـة حـين يصـير الطفـل أكبر عمـرًا مـن أن يظـل يصـدِّق في وجـود «سـانتا كلـوز»، و»أرنـب الفصـح». وعندئـذٍ، يحـدث التحـوُّل الـذي يتمثَّـل في تجريـد الحيـاة مـن أسـاطيرها وخيالاتهـا. وحينهـا، سـيتحتم عـلى مـرح ومتعـة الطفولـة إفسـاح المجـال لحقائـق الحيـاة البالغـة. يـأتي وقـت فيـه يلـزم إبطـال مـا للطفـل. قـال الرسـول بولـس: «لَـمَّا كُنْـتُ طِفْـلًا كَطِفْـلٍ كُنْـتُ أَتَكَلَّـمُ، وَكَطِفْـلٍ كُنْـتُ أَفْطَـنُ، وَكَطِفْـلٍ كُنْـتُ أَفْتَكِـرُ. وَلَكِـنْ لَـمَّا صِرْتُ رَجُـلًا أَبْطَلْـتُ مَـا لِلطِّفْـلِ» (١ كورنثـوس ١٣: ١١).

لكـن، إن أخفـق أحدهـم في إبطـال مـا للطفـل، سـيدخل مرحلـة البلـوغ مصابًـا بإعاقـة خطـيرة. فـإن التشـبُّث بأسـاطير الطفولـة لوقـت أطـول مـن الـلازم يعنـي وجـود إعاقـة ذهنيَّـة مـن نـوعٍ مـا.

وقـد كان يسـوع مـدركًا أنـه كي يتمكـن تلاميـذه مـن أداء إرسـاليتهم كأنـاس بالغـين وناضجـين، وكي يتمكنـوا مـن مواجهـة الضيقـات التـي

كانت حتمًا آتية عليهم، كان عليهم أن يتمكنوا من تمييز الفرق بين الخرافة والواقع.

وقد كان على يسوع، بصفته معلِّمًا، أن يساعد طلابه، مثل أي معلم آخر، على التخلص من الأفكار المغلوطة التي اصطحبوها معهم إلى صفِّه الدراسي. تنطوي عمليَّة التعليم على أكثر من مجرَّد اكتساب معلومات جديدة، بل يستلزم التعليم الحقيقي اجتياز عمليَّة عادةً ما تكون مؤلمة، من أجل التخلُّص من أفكار ونظريات مُحبَّبة إلى النفس، لكنها لن تصمد أمام الفحص النقدي الدقيق. ولهذا، تضمَّن تعليم يسوع تصحيحًا لمفاهيم خاطئة.

لكن، عندما تحدث يسوع إلى تلاميذه في العُلِّيَّة، أعلن أن أحد المفاهيم التي كانت محبَّبة إلى قلبهم لم يكن بحاجة إلى تصحيح. لم يكن رجاء التلاميذ في الحياة ما بعد الموت خرافة، ولم يكن إيمانهم بالحياة الأبديَّة مبنيًّا على إسقاط من نوعٍ ما لأمانيهم. لم يكن هناك شيء طفولي في هذا.

قال يسوع: «وَإِلَّا فَإِنِّي كُنْتُ قَدْ قُلْتُ لَكُمْ». كان هذا التصريح إعلانًا إلهيًّا في صيغة سلبيَّة. وعلى خلاف وجهة النظر الضارة لعلماء اللاهوت الوجودي، يمكننا اعتبار هذا التعبير حقيقة تصريحيَّة أكيدة. صيغت الجملة في شكل جملة شرطيَّة «إن - فإذن». وكان المقصود منها هو أن تكون أسلوب شرط بسيط مناقضًا للحقيقة.

وإليك ما كان يسوع يقصده: «لو كان إيمانكم بوجود حياة مستقبليَّة غير صحيح، لكنتُ قد صحَّحتُ آمالكم الزائفة. لم أكن لأسمح بفكرة مغلوطة خطيرة كهذه أن تمضي دون تصويب. لكن في حقيقة الأمر، هناك سماء، ويمكنكم أن تثقوا في ذلك».

هذا تصريح عقائدي بامتياز. فقد تكلَّم يسوع لا كمجرد معلِّم

يهودي بارع ومحنَّك، بل وليس كنبيٍّ ممسوح من الله، بل تكلَّم بالسلطان المطلق والمعصوم لابن الله. نتذكر جيدًا تلك الكلمات التي قالها يسوع بكلِّ جرأة ومجاهرة: «دُفِعَ إِلَيَّ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الْأَرْضِ» (متى ٢٨: ١٨). وفي التصريح السابق، أظهر يسوع هذا السلطان. فحين ينطق ذاك الذي له كلُّ السلطان في السماء بتعليمٍ عن السماء، يترتب على ذلك أن يكون تعليمه هذا معصومًا.

ومن ثَمَّ، إذا كان هذا التصريح الأجرأ على الإطلاق صحيحًا، فحينئذٍ تُمثِّل أقوال يسوع أفضل مصدر معلومات يمكن العثور عليه في موضوع السماء، وأكثرهم موثوقيَّة على الإطلاق.

مسألة سلطان يسوع

قال يسوع إنه قد أخذ سلطانه من مصدر كلِّ سلطان، بل ومن أصل السلطان، الذي هو الله ذاته. وقد أضاف إلى قوله هذا تصريحات أخرى:

> تَعْلِيمِي لَيْسَ لِي بَلْ لِلَّذِي أَرْسَلَنِي ... تَعْرِفُونَنِي وَتَعْرِفُونَ مِنْ أَيْنَ أَنَا، وَمِنْ نَفْسِي لَمْ آتِ، بَلِ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَقٌّ، الَّذِي أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ. أَنَا أَعْرِفُهُ لِأَنِّي مِنْهُ، وَهُوَ أَرْسَلَنِي. (يوحنا ٧: ١٦، ٢٨-٢٩)
>
> إِنَّ لِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةً أَتَكَلَّمُ وَأَحْكُمُ بِهَا مِنْ نَحْوِكُمْ، لَكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَقٌّ. وَأَنَا مَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ، فَهَذَا أَقُولُهُ لِلْعَالَمِ ... وَلَسْتُ أَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ نَفْسِي، بَلْ أَتَكَلَّمُ بِهَذَا كَمَا عَلَّمَنِي أَبِي. (يوحنا ٨: ٢٦-٢٨)

وقد ردَّد يوحنا المعمدان صدى هذا التصريح حين شهد عن سلطان يسوع قائلًا: «اَلَّذِي يَأْتِي مِنْ فَوْقُ هُوَ فَوْقَ الْجَمِيعِ، وَالَّذِي

مِـنَ الْأَرْضِ هُـوَ أَرْضِيٌّ، وَمِـنَ الْأَرْضِ يَتَكَلَّـمُ. اَلَّـذِي يَـأْتِي مِـنَ السَّـمَاءِ هُـوَ فَـوْقَ الْجَمِيـعِ ... لِأَنَّ الَّـذِي أَرْسَـلَهُ اللـهُ يَتَكَلَّـمُ بِـكَلَامِ اللـهِ. لِأَنَّـهُ لَيْـسَ بِكَيْـلٍ يُعْطِـي اللـهُ الـرُّوحَ» (يوحنـا ٣: ٣١-٣٤).

حين نستقبل معلومات هامة، سواء من وسائل الإعلام الإخباريَّة، أو من مرجع دراسي، نُحَث دائمًا على «فحص مصدر هذه المعلومات». فإننا نسعى إلى توثيق أيَّة معلومة حتى نضمن مصداقيتها. وقد كان المصدر الذي قال يسوع إنه قد جاء منه بمعلوماته هو المصدر عينه الذي قال إنه قد أخذ منه سلطانه، وهو الله ذاته.

كثيراً ما كان معاصرو يسوع، حتى أولئك الذين كانوا في عداوة معه، يصابون بالارتباك والحيرة من كلامه:

> فَلَـمَّا أَكْمَـلَ يَسُـوعُ هَـذِهِ الْأَقْـوَالَ بُهِتَـتِ الْجُمُـوعُ مِـنْ تَعْلِيمِـهِ، لِأَنَّـهُ كَانَ يُعَلِّمُهُـمْ كَمَـنْ لَـهُ سُـلْطَانٌ وَلَيْـسَ كَالْكَتَبَـةِ. (متـى ٧: ٢٨-٢٩)
>
> وَكَانَ قَـوْمٌ مِنْهُـمْ يُرِيـدُونَ أَنْ يُمْسِـكُوهُ، وَلَكِـنْ لَـمْ يُلْـقِ أَحَـدٌ عَلَيْـهِ الْأَيَـادِيَ. فَجَـاءَ الْخُـدَّامُ إِلَى رُؤَسَـاءِ الْكَهَنَـةِ وَالْفَرِّيسِـيِّينَ. فَقَـالَ هَـؤُلَاءِ لَهُـمْ: «لِـمَاذَا لَـمْ تَأْتُـوا بِـهِ؟». أَجَـابَ الْخُـدَّامُ: «لَـمْ يَتَكَلَّـمْ قَـطُّ إِنْسَـانٌ هَكَـذَا مِثْـلَ هَـذَا الْإِنْسَـانِ!» (يوحنـا ٧: ٤٤-٤٦)

كان يسوع يتكلَّم كمن له سلطان. والكلمة اليونانيَّة التي تُرجِمت هنا إلى «سُلْطَانٌ» هي كلمة *exousia*، المُكوَّنة من البادئة *ex*، والتي تعني «من الشيء» أو «خارج الشيء»، ومن الجذر *ousia* الذي هو اسم الفاعل من الفعل «يكون». ومن ثَمَّ، فإن المعنى الحرفي لهذه الكلمة هو «من الكينونة» أو «جوهر الشيء».

تُترجم كلمة *exousia* عادةً إلى «سُلطان» أو «قوة». وإذ يكمن

عنصر من كلا المفهومين في كلمة *exousia*، يصير بمقدورنا ترجمتها إلى «سلطان قوي». وهذا السلطان مُؤسَّس على الجوهر أو الكينونة.

ببساطة، حين قال الكتاب المقدس إن يسوع كان يتكلم كمَن له سلطان، كان هذا يعني ببساطة أنه لم يكن يتفوه برأي فارغ أو وهمي، بل كان «جوهر» الحقيقة يكمن وراء كلماته، وكان سلطانه مدعومًا بكينونة أو بجوهر الله ذاته، وليس بأقل من هذا.

فحين يتكلَّم الله، لا بد أن يتبدَّد أيُّ لغط أو نزاع حول صدق هذا الكلام، عدا لدى أولئك الذين يصرُّون على عنادهم، أو لدى أولئك الحمقى على نحو لا يمكن إدراكه. فمَن غير هؤلاء يمكن أن يتجرأ على تقويم الله؟

وإن كان يسوع قد تكلَّم بالصدق عن سلطانه، فما من اعتراض إذن يمكن أن يصمد أمام الاستنتاج بأنه قد تكلَّم بالصدق أيضًا عن الحياة ما بعد الموت. وتظل كلماته «وَإِلَّا فَإِنِّي كُنْتُ قَدْ قُلْتُ لَكُمْ» هي تعزية كلِّ التعزيات.

التعزية المطلقة للثكلى

توضع على عاتقنا جميعًا من آن لآخر مهمة تعزية شخص مكلوم لفقدان أحد أحبائه. وعادةً ما تكون المهمة غير سارة، ومخيفة. فداخل قاعات العزاء، يتلعثم أبرع الوعاظ. وإننا نشعر، بكل أسف، بأننا لسنا أهلًا لمهمة اختيار الكلمات الملائمة التي يمكن توجيهها إلى النائحين على أحبائهم.

في أحد الأيام، ذهبت إلى قاعة عزاء حيث كان جثمان زوجة أول رئيس لي في العمل موضوعًا من أجل إلقاء نظرة الوداع الأخيرة عليه. كان زوج هذه السيدة قد وظَّفني كملمعٍ للأحذية حين

كنتُ في الرابعة عشر من عمري. وقد عملتُ معه في محل إصلاح الأحذية. وعلى مدار السنوات، ظللتُ على تواصل معه، وكنت أعتبره صديقًا لي.

وحين دخلتُ إلى قاعة العزاء، لم تكن لديَّ أيَّة كلمات حكمة يمكن أن أقدِّمها. كل ما فكَّرت أن أفعله هو أن أجلس صامتًا بجوار هذا الرجل لمدة ساعة أو ما يقرب من ذلك. لم أستطع أن أقدِّم له سوى تواجُدي، كشهادة غير منطوقة عن اهتمامي بأمره في وقت حزنه. التزمتُ الصمت آنذاك لأنه لم يكن لديَّ أي كلام ملائم للاحتياج. فقد خذلتني الكلمات، ولم أستطع التكلُّم «بسلطان» عن أي شيء.

لكن، حين ذهب يسوع إلى بيت مريم ومرثا بعدما مات لعازر أخوهما، عزَّاهما بكلمات ذات سلطان، وقال لمرثا: «سَيَقُومُ أَخُوكِ» (يوحنا ١١: ٢٣).

ظنَّت مرثا أن يسوع كان يشير بكلماته إلى الرجاء المستقبلي للقيامة، فأجابته: «أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَقُومُ فِي الْقِيَامَةِ، فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ» (يوحنا ١١: ٢٤). لكن، أجابها يسوع: «أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا، وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَيًّا وَآمَنَ بِي فَلَنْ يَمُوتَ إِلَى الأَبَدِ. أَتُؤْمِنِينَ بِهَذَا؟» (يوحنا ١١: ٢٥-٢٦).

لم يتفوه يسوع الناصري قبلًا بتصريح أجرأ من ذلك. فقد ربط الحياة الأبديَّة والنصرة التامة على ألدِّ أعداء كل الجنس البشري، ألا وهو الموت نفسه، بالإيمان به بشكل مباشر. فإن الإيمان بالمسيح يعني نوال الحياة الأبديَّة.

على مدار تاريخ العالم، لم يتجرأ كثيرون على الإدلاء بمثل هذا التصريح؛ لكن واحدًا دون سواه هو الذي أرفق تصريحه بالأفعال. يُمثِّل سجل أعمال يسوع برهانًا قويًّا على كلامه. وكانت أعماله

مطابقة لقوة كلامه. فبعد لحظات قليلة من تفوُّه يسوع بكلمات التعزية هذه لمرثا، ذهب إلى قبر لعازر. أبدت مرثا اعتراضها على رفع الحجر عن مدخل القبر، إذ كان لعازر قد مات منذ أربعة أيام. وإذ لم يكن جسده، على الأرجح، محنَّطًا، ارتعبت مرثا من أن تشم الرائحة النتنة التي من شأنها أن تنبعث من جثمان أخيها.

وحين رُفِع الحجر بالفعل، أصدر يسوع أمرًا بصوت عظيم. ففي فرمان إلهي، أمر لعازر بالعودة من الموت إلى الحياة قائلًا: «لِعَازَرُ، هَلُمَّ خَارِجًا!»

كانت يدا لعازر ورجلاه مربوطات بالأكفان. وكذلك، كانت روحه قد فارقت جسده. ومن ثَمَّ، فقد كان ممسوكًا بإحكام في قبضة الموت. ومع ذلك، عند صدور أمر يسوع، أرخى الموت قبضته عليه، فابتدأ قلبه ينبض، والدم يتدفق مجدَّدًا في عروقه، وعادت الأنسجة المتحللة في الحال إلى كامل صحتها وسلامتها. ومن ثَمَّ، عاد لعازر إلى وعيه، وابتدأ يتحرك فجأة. وعلى الرغم من الأقمطة التي ربطت جسده، خرج من القبر. وعندئذٍ، أصدر يسوع أمرًا آخر للواقفين هناك، قائلًا: «حُلُّوهُ وَدَعُوهُ يَذْهَبْ» (يوحنا ١١: ٤٤).

وهذا الذي صنعه يسوع بلعازر، وبابنة يايرس (لوقا ٨: ٤٠-٤٢، ٤٩-٥٦)، وبابن أرملة نايين (لوقا ٧: ١١-١٥) صنعه أيضًا بجسده.

ففي يوم موت يسوع، استهزأ به أناس، وهتفوا قائلين: «خَلَّصَ آخَرِينَ، فَلْيُخَلِّصْ نَفْسَهُ إِنْ كَانَ هُوَ الْمَسِيحَ مُخْتَارَ اللهِ!» (لوقا ٢٣: ٣٥). كان يسوع يعلم تمامًا أن جيوشًا من الملائكة كانت متاحة لإنقاذه في أيَّة لحظة. وكان من شأن كلمة واحدة منه أن تكفي لإطلاق جحافل من القوات الملائكيَّة من أجله. لكن كان واجبه يُحتِّم عليه أن يموت؛ وقد تجرَّع الكأس، وبكلماته الأخيرة استودع روحه بين يدي أبيه.

وطوال ثلاثة أيام، ظل ابن الله ميتًا، وظل الآب صامتًا. وطوال هذه الأيام الثلاثة، شعر الذين استهزأوا بيسوع بالانتصار، بينما ناح أحباؤه وتلاميذه على خسارتهم الجسيمة، مختبئين في خوف وحيرة.

ثم كسر الرب الإله القادر على كل شيء حاجز الصمت. لم يُسمَع أيُّ صراخ، أو صوت بوق منذر. كان الهدوء يسود البستان، ولم يُسمَع سوى نحيب مريم المجدليَّة الخافت، التي انزعجت لاكتشافها اختفاء جسد يسوع من القبر. فقد اختفى الجثمان، وبدا هذا بالنسبة لها أسوأ تعدٍّ على كرامته، إذ ظنت أن أحدهم قد سرق جسده.

شعرت مريم بشخص يقف خلفها، فظنَّت أنه البستاني. ثم قال لها: «يَا امْرَأَةُ، لِمَاذَا تَبْكِينَ؟ مَنْ تَطْلُبِينَ؟ (يوحنا ٢٠: ١٥). أجابت مريم: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتَ أَنْتَ قَدْ حَمَلْتَهُ فَقُلْ لِي أَيْنَ وَضَعْتَهُ، وَأَنَا آخُذُهُ» (يوحنا ٢٠: ١٥ ب).

عندئذٍ، سمعت مريم الرجل يناديها باسمها: «يَا مَرْيَمُ». ولدى سماعها صوته، اجتاح إدراكٌ فجائيٌّ روحها، «فَالْتَفَتَتْ تِلْكَ وَقَالَتْ لَهُ: «رَبُّونِي!» الَّذِي تَفْسِيرُهُ: يَا مُعَلِّمُ».

قام يسوع من الأموات. ومنذ ذلك اليوم فصاعدًا، صارت عبارة «المسيح قام» أول عقيدة على الإطلاق في العالم المسيحي.

تُمثِّل قيامة المسيح الركيزة الأساسيَّة للكنيسة المسيحيَّة. فإن الديانة المسيحيَّة بأكملها تثبُت أو تنهار وفقًا لصحة القيامة. لو لم توجد قيامة، لما وُجدت المسيحيَّة. ولو لم توجد قيامة، لما وُجد سببٌ يدعو إلى استمرار الكنيسة؛ لكنها حينئذٍ تصير مجرد مؤسسة اجتماعيَّة أخرى، تخفي خدماتها الإنسانيَّة تحت جلباب من الخرافات الدينيَّة.

جرت محاولات عديدة لابتكار ديانة مسيحيَّة دون قيامة بالجسد. ففي القرن التاسع عشر، حاول الذين يسمُّون بالمسيحيين الليبراليين

عصرنة الإيمان المسيحي، عن طريق تجريده من قشوره المعجزيَّة «غير اللازمة»، واختزاله إلى نواته الأخلاقيَّة. رفض هؤلاء العناصر الفائقة للطبيعة في محاولة منهم لتقديم ديانة من القيم، من شأنها أن تحسِّن شكل الحياة في هذا العالم، دون مطالبة معتنقيها بأن يُقتنَصوا في تعلُّق روحاني بأوهام عن الحياة الآتية المجهولة. وصار يسوع بالنسبة لهم النموذج الفائق للمحبة الأخويَّة، التي ضحت بنفسها من أجل الآخرين، وانتهت بميتة بطوليَّة. وتحوَّل يسوع، المخلِّص من الموت، وغالب القبر، إلى يسوع، المعلِّم البشري للمبادئ الأخلاقيَّة.

لا يحتاج يسوع من هذا القبيل إلى كنيسة. فإن العبادة التي تقدَّم إلى معلِّم للمبادئ الأخلاقيَّة، رحل عن عالمنا، هي في أفضل الأحوال، عبادة خاوية، وفي أسوأ الأحوال، فعل تجديف. فلا توجد كنيسة لسقراط، وإننا لا نرتل تراتيل لشيشرون، ولا نصلِّي لأرسطو. هكذا أيضًا، لو كان يسوع مجرد معلم بشري، فينبغي ألا نعبده.

حُجة بولس المُؤيِّدة للقيامة

بدأت محاولات ابتداع مسيحيَّة بلا قيامة منذ وقت مبكر من تاريخ الكنيسة. فقد اضطر الرسول بولس أن يواجه هذه الأزمة في كنيسة كورنثوس المضطربة. ولا يزال توبيخه لهذه الكنيسة صالحًا اليوم كما كان حين قيل أولًا. بل وربما يكون صالحًا اليوم بدرجة أكبر لأن ما كان مجرد مشكلة محليَّة قاصرة على ظرف منفصل، صار الآن جائحة ضربت كنيسة القرن الحادي والعشرين.

وجَّه الرسول إلى أهل كورنثوس سؤالًا محوريًّا: «وَلَكِنْ إِنْ كَانَ الْمَسِيحُ يُكْرَزُ بِهِ أَنَّهُ قَامَ مِنَ الْأَمْوَاتِ، فَكَيْفَ يَقُولُ قَوْمٌ بَيْنَكُمْ: «إِنْ لَيْسَ قِيَامَةُ أَمْوَاتٍ؟»» (١ كورنثوس ١٥: ١٢).

رفض أعضاء هذه الكنيسة المسيحيَّة القديمة وجود حياة بعد

الموت. وقد كان رفضهم حاسمًا وقاطعًا، وأصروا على عدم وجود أيَّة قيامة من الأموات. كما ادَّعوا أن لا أحد، حتى يسوع نفسه، قد نجح في هزيمة القبر.

أثار بولس بردِّه على هذا الرأي غضب خصومه، وسخر منهم، مظهرًا التناقض الجذري، واللا معقوليَّة التامة لإيمان مسيحي دون قيامة يسوع المسيح بالجسد. دعونا نتتبَّع معًا تسلسُل حجة الرسول نقطة تلو الأخرى، بينما يوضح النتائج المنطقيَّة المترتِّبة على عدم وجود قيامة. فقد تنقَّل بطريقة تدريجيَّة، مكدِّسًا سلسلة من النتائج السلبيَّة تتبع منطقًا لا يمكن تجنُّبه.

النقطة الأولى: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ قِيَامَةُ أَمْوَاتٍ فَلَا يَكُونُ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ» (١ كورنثوس ١٥: ١٣).

من بوسعه مجادلة هذا؟ فإن نفيًا عامًّا (لا قيامة للأموات) لا يبيح أيَّة استثناءات. لا تبيح قوانين الاستدلال المباشر وجود «لا شيء» و«البعض» معًا. نجد هنا افتراضًا شرطيًا يستحيل دحض استنتاجه. فإن كان «أ» صحيحًا، إذن لا بد أن يكون «ب» أيضًا صحيحًا. فَإِنْ لَمْ تَكُنْ قِيَامَةُ أَمْوَاتٍ، يصير من الواضح إذن أن المسيح أيضًا لم يقم.

النقطة الثانية: «وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ، فَبَاطِلَةٌ كِرَازَتُنَا وَبَاطِلٌ أَيْضًا إِيمَانُكُمْ» (١ كورنثوس ١٥: ١٤).

هنا يقف بولس ضد كافة أشكال المسيحيَّة الليبراليَّة التي تسعى إلى رفض قيامة المسيح من ناحية، ومواصلة الكرازة ودعوة الناس إلى «الإيمان» من ناحية أخرى. فبحسب رأي بولس، هذه محاولة حمقاء للاحتفاظ بالشيء ونقيضه في الآن ذاته. فقد اعتبر هذا ممارسة سخيفة لا طائل منها. فبدون قيامة حقيقيَّة بالجسد، تصير الكرازة المسيحيَّة دون جدوى.

لم يسقط بولس هنا في مغالطة «المأزق المفتعَل»، لكنه رأى أن هذه القضية مثالٌ نموذجيٌّ حقيقيٌّ لحالة «إما/أو». إما أن المسيح قد قام من الأموات، أو تصبح الكرازة والإيمان باطلين.

النقطة الثالثة: «وَنُوجَدُ نَحْنُ أَيْضًا شُهُودَ زُورٍ لِلهِ، لِأَنَّنَا شَهِدْنَا مِنْ جِهَةِ اللهِ أَنَّهُ أَقَامَ الْمَسِيحَ وَهُوَ لَمْ يُقِمْهُ، إِنْ كَانَ الْمَوْتَى لَا يَقُومُونَ» (١ كورنثوس ١٥: ١٥).

هذا أكثر نصٍّ خاطر فيه الرسول بإهانة قرائه عن طريق تقديم شرح لشيء بديهي. فقد كانت إضافته للمقطع الأخير من جملته - «وَهُوَ لَمْ يُقِمْهُ، إِنْ كَانَ الْمَوْتَى لَا يَقُومُونَ» - بمثابة استخلاص أكثر استنتاج بديهي على الإطلاق. فإنني أشعر بلمحة من السخرية تقطر من قلم الرسول هنا. فلا شيء يمكن أن يكون أبسط وأسهل من فهم هذا الاستنتاج بأنه إن كان الموتى لا يقومون، فالله إذن لم يُقِم المسيح.

لكننا نرصد هنا أيضًا ملاحظة أكثر شؤمًا. كان بولس يكتب بصفته لاهوتيًا يهوديًا، وقد كان في حقيقة الأمر يدرك خطورة الشهادة الزور. تنص الوصايا العشر على كون الشهادة الزور ضد أحدهم جريمة عقوبتها الموت، فما بالك إذن بخطورة الشهادة الزور ضد الله نفسه؟

كان منطق بولس كالتالي: إن كان المسيح لم يقم من الأموات، سيتحتم إذن أن يُدان بولس وبقيَّة الرسل باعتبارهم أنبياء كذبة. فهم بذلك يصبحون أعضاءً في طائفة شهود يهوه الكذبة. وإن رفض كرازة الرسل عن القيامة، وامتداح فضائلهم بصفتهم معلمين للمبادئ الأخلاقيَّة في الآن ذاته هو بمثابة امتداح لحماقة أنبياء كذبة. رأى الرسول نفسه في هذا تناقضًا ميؤوسًا منه. فقد اعتبر نفسه فاقدًا للأهليَّة كمعلِّم جدير بالثقة إذا ما كانت شهادته عن القيامة كاذبة.

ومن ثم، وضع بولس هنا سمعته ونزاهته، وكذلك سمعة ونزاهة الرسل الآخرين، على المحك. بدا الأمر كما لو أنه يقول: «اقبلوني أو ارفضوني بناءً على هذا».

النقطة الرابعة: «وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ، فَبَاطِلٌ إِيمَانُكُمْ. أَنْتُمْ بَعْدُ فِي خَطَايَاكُمْ!» (١ كورنثوس ١٥: ١٧).

مرة أخرى، شدَّد الرسول على فكرة البُطل. فبدون قيامة، يصير الإيمان المسيحي باطلًا، أي عبثًا، وإهدارًا للوقت، والجهد، والتكريس. فالإيمان برجاء كاذب هو بمثابة العزم على اتباع مسار يتجه صوب الإحباط التام. فبدون القيامة، يختفي كلُّ رجاء. وكل ما سنتمكَّن من أن نقدِّمه في رحلتنا على الأرض هو ذنبٌ بلا حلٍّ.

اعتبر بولس أن القيامةَ هي العلامة الواضحة من الله على قبوله لذبيحة المسيح كفارة عن خطايانا (رومية ١: ٤). ومن ثَمَّ، فإن لم يكن المسيح قد قام، فإننا بعد في خطايانا، دون مخلِّص. وحينئذٍ، يصير كلٌّ من إيماننا وموت المسيح باطلين على حد سواء. ونظل نحن مديونين عاجزين عن تسديد ديوننا.

النقطة الخامسة: «إِذًا الَّذِينَ رَقَدُوا فِي الْمَسِيحِ أَيْضًا هَلَكُوا!» (١ كورنثوس ١٥: ١٨).

ربما يُعَد هذا أصعب وأقسى جميع النتائج السلبيَّة المترتِّبة على عدم وجود قيامة. لم يخشَ بولس أن يستخلص هذا الاستنتاج القاسي: فبدون قيامة، يصبح الموت هو نهاية كلِّ رجاء. في ملحمة دانتي أليجييري (Dante Alighieri) الشعريَّة بعنوان «الكوميديا الإلهيَّة»، تخيَّل لافتة مُعلَّقة عند مدخل الجحيم، ومكتوبًا عليها: «تخلُّوا عن الأمل يا جميع الداخلين من هذا الباب». علَّق بولس هذه اللافتة نفسها هنا، والآن، لكن ليس عند مدخل الجحيم، بل على باب كلِّ قاعة عزاء.

يَعلَم كلُّ من فقد منا شخصًا عزيزًا ذلك الرجاء المحبَّب الملازم للموت، ألا وهو أننا في مكان ما، وفي وقتٍ ما، سنرى أحباءنا ثانية. وهذا الرجاء هو السلوان الذي نتشبَّث به حينما يفرِّقنا الموت عن أحبائنا.

في ظرفٍ رهيبٍ، جلستُ مع ابنتي وزوجها داخل غرفة الولادة في جناح النساء والتوليد بأحد المستشفيات. كانت ابنتي قد أنجبت لتوِّها فتاة صغيرة، لكن، توفت الطفلة أثناء الولادة. في مثل هذه الحالات، كانت سياسة المشفى تسمح للأم والأب بحمل الطفل المتوفي لبعض الوقت. ومن ثَمَّ، فقد التقطنا بعض الصور، وطبعنا آثار أقدام الطفلة بالحبر، وأطلقنا عليها اسمًا، وسجَّلنا وزنها وطولها. كذلك، أُرفِقت خصلة من شعر الطفلة بملفها، وأعطي الملف، والبيانات الموجودة فيه إلى الوالدين، بينما أُخِذت الطفلة لتجهيزها للدفن. وكان هذا الملف يسمَّى «وثيقة ذكرى».

عادت ابنتي إلى المنزل حاملة معها صورًا ووثيقة ذكرى. كما عادت حاملة أيضًا رجاء راسخًا في أنها يومًا ما سترى ابنتها مرة أخرى، على قيد الحياة.

لكن، وفقًا لحُجة بولس، إن لم يكن المسيح قد قام، فإن الذين ماتوا قد هلكوا إذن إلى الأبد. وحينئذٍ، يكون مصير جميع البشر هو أن يردِّدوا ذلك القرار الجنائزي لأغنية إدجار آلان بو (Edgar Allan Poe) بعنوان «The Raven» («الغراب»)، والذي يقول: «ليس بعد اليوم» (Nevermore).[١١]

---

[١١] المترجم: قصيدة «الغراب» («The Raven») هي قصيدة تحكي عن زيارة غراب مُتكلِّم وغامض إلى عاشق مضطرب. وتصف القصيدة مشاعر العاشق حتى إصابته بالجنون. ينوح العاشق على عشيقته لينور بينما يجلس الغراب على تمثال لأثينا ويؤجِّج مشاعر العاشق الحزينة بترديده لكلمة «ليس بعد اليوم» (Nevermore).

النقطة السادسة: «وَإِلَّا فَمَاذَا يَصْنَعُ الَّذِينَ يَعْتَمِدُونَ مِنْ أَجْلِ الْأَمْوَاتِ؟ إِنْ كَانَ الْأَمْوَاتُ لَا يَقُومُونَ الْبَتَّةَ، فَلِمَاذَا يَعْتَمِدُونَ مِنْ أَجْلِ الْأَمْوَاتِ؟» (١ كورنثوس ١٥: ٢٩).

تابع بولس حديثه مظهِرًا التناقض الجذري الذي يبديه أولئك الذين يمارسون المعموديَّة لأجل الأموات في مدينة كورنثوس. كان هذا الذكر العابر لممارسة المعموديَّة لأجل الأموات هو الإشارة الوحيدة التي جاءت في العهد الجديد إلى هذه الممارسة. وقد أثارت هذه الإشارة كافة أنواع الذعر. لكن، لم يمتدح بولس هنا هذه الممارسة، أو يدينها، لكنه فقط أقر بكونها تُمارَس بين أهل كورنثوس، مظهرًا سخافتها إن لم تكن قيامة أموات. فإن لم تكن قيامة أموات، من شأن المعموديَّة لأجل الموتى أن تكون إهدارًا للوقت والماء.

النقطة السابعة: «وَلِمَاذَا نُخَاطِرُ نَحْنُ كُلَّ سَاعَةٍ؟ إِنِّي بِافْتِخَارِكُمُ الَّذِي لِي فِي يَسُوعَ الْمَسِيحِ رَبِّنَا، أَمُوتُ كُلَّ يَوْمٍ. إِنْ كُنْتُ كَإِنْسَانٍ قَدْ حَارَبْتُ وُحُوشًا فِي أَفَسُسَ، فَمَا الْمَنْفَعَةُ لِي؟» (١ كورنثوس ١٥: ٣٠-٣٢).

نجد هنا تطبيقًا مذهلًا. فقد لجأ الرسول إلى خدمته باعتبارها برهانًا على قناعته بأن القيامة «تضفي معنى» على الضيقات والتجارب التي يمر بها. فقد تعهَّد بأن يخدم المسيح، ولم يكن هذا التعهُّد بالإجراء الطبيعي بالنسبة ليهوديٍّ ورعٍ. وقد شهد بأنه دون القيامة، تصير خدمته بلا قيمة. وللاطلاع على ملخَّص للأتعاب المضنية التي صاحبت خدمة بولس، يمكن للقارئ صرف بضعة دقائق في قراءة الأصحاح الحادي عشر من رسالة كورنثوس الثانية بتمعُّن، حيث قدم بولس تقريرًا موجَزًا عن آلامه في الخدمة.

تقول واحدة من أشهر الحجج المؤيِّدة للقيامة شيئًا من هذا القبيل: أيهما يصعب تصديقه أكثر، أن المسيح قام من الموت، أم أن

الرسل كانوا على استعداد أن يموتوا من أجل خدعة؟

لم أجد قط مثل هذه الحجج وافية ومقنعة. فبحسب الظاهر، ينبغي أن نعترف أنه على الرغم من ندرة العثور على أناسٍ متعصِّبين مخدوعين لدرجة الاستعداد للموت من أجل شيء غير صحيح، أو حتى من أجل شيء يعرفون أنه غير صحيح، لكن هذا الأمر لا يساوي في ندرته القيامة من الأموات.

فإن الاحتكام إلى التفاني الاستثنائي لبولس في خدمته، واستعداده للموت في سبيل إيمانه، لا يُثبِت بشكل قاطع صحة إيمانه، بل يُظهِر بالأحرى توافُق سلوكه مع ما هو متوقَّع من شخص كان شاهد عيان على المسيح القائم من الأموات. وما انطبق على بولس انطبق على الرسل الآخرين أيضًا. فقد عاشوا وماتوا في يقين تام بقيامة المسيح.

النقطة الثامنة: إِنْ كَانَ الْأَمْوَاتُ لَا يَقُومُونَ، «فَلْنَأْكُلْ وَنَشْرَبْ لِأَنَّنَا غَدًا نَمُوتُ!» (١ كورنثوس ١٥: ٣٢).

هنا أزال بولس القشور عن العاطفيَّة الدينيَّة، وعن مبادئ إيثار الغير، مردِّدًا صدى عقيدة الأبيقوريين القدماء. فإن لم تكن هناك حياة بعد الموت، يصير النمط الراشد الوحيد للحياة هو البحث الصريح عن المتعة. فإننا عندئذٍ يمكننا أن نحصل على أيَّة متعة أو لذة يمكننا الحصول عليها قبل أن يبتلعنا الألم الأخير. كانت هذه نبوة رسوليَّة عن الفكر الشكوكي الحديث، الذي يقول: انتزع كل ما بوسعك من متعة لأنك «لن تعيش إلا مرة واحدة»؛ أو بكلمات أخرى: «الذي يموت بأكبر قدر من الألعاب يكون هو الفائز».

النقطة التاسعة: «إِنْ كَانَ لَنَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ فَقَطْ رَجَاءٌ فِي الْمَسِيحِ، فَإِنَّنَا أَشْقَى جَمِيعِ النَّاسِ» (١ كورنثوس ١٥: ١٩).

مع أن هذه النقطة جاءت في بداية حُجة بولس، لكنني احتفظتُ بها للنهاية. لم يكن بإمكان بولس إبداء اعتراضه على كافة المحاولات لاختراع ديانة مسيحيَّة دون قيامة يسوع المسيح بالجسد بصوت أعلى من هذا. فلو كانت قيمة الرجاء المسيحي قاصرة على هذه الحياة فحسب، فإن المسيحيين إذن هم أشقى جميع الناس. وفي هذا يكمن شقاؤهم: أنهم يعيشون حياة قائمة على رجاء زائف، يهيمن عليهم. وهذا الرجاء يتعلق بقانون مكافأة مؤجَّلة، أي تضحية حاضرة لأجل مكافأة مستقبليَّة.

يقول بولس إنه في هذه الحالة يمكن لكل من يكن عداءً للمسيحيين أن يستبدل عداءه هذا، في حقيقة الأمر، بإشفاق عليهم. فإن المسيحيِّين الذين يعيشون على رجاء خادع يحتاجون إلى الشفقة، لأنهم بالحقيقة أشقى جميع الناس.

أساسٌ من شهادة عيان

هذا هو أهم بُعد من أبعاد حُجَّة بولس المؤيِّدة للقيامة: أن القيامة لا ترتكز فقط على أساس تكهُّني من خيارات محبطة. لم يستنتج بولس أنه بما أن الحياة دون قيامة شقيَّة، فينبغي إذن أن نأخذ نفسًا عميقًا، ونغلق أعيننا، ونستحضر إيمانًا بالقيامة. لم يقل بولس إننا ينبغي أن نعيش كما لو كانت هناك قيامة، إذ بدونها سيتحتم علينا مواجهة جميع هذه النتائج المدمِّرة الميؤوس منها. لكن، كانت حُجَّته المكوَّنة من تسع نقاط هذه مجرد حُجة داعمة، أي دراسة تابعة، وليست أساس ثقته في قيامة المسيح من الأموات.

فقد تجاوزت حُجَّة بولس المؤيِّدة للقيامة كثيرًا حدود الفلسفة التكهُّنيَّة، إذ قدَّم براهين لم يستطع لا أفلاطون ولا كانط تقديمها. فقد احتكم إلى شهادات عيان على الحقيقة التاريخيَّة لقيامة يسوع، قائلًا:

فَإِنَّنِي سَلَّمْتُ إِلَيْكُمْ فِي الأَوَّلِ مَا قَبِلْتُهُ أَنَا أَيْضًا: أَنَّ الْمَسِيحَ مَاتَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا حَسَبَ الْكُتُبِ، وَأَنَّهُ دُفِنَ، وَأَنَّهُ قَامَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ حَسَبَ الْكُتُبِ، وَأَنَّهُ ظَهَرَ لِصَفَا ثُمَّ لِلاثْنَيْ عَشَرَ. وَبَعْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ دَفْعَةً وَاحِدَةً لِأَكْثَرَ مِنْ خَمْسِمِئَةِ أَخٍ، أَكْثَرُهُمْ بَاقٍ إِلَى الآنَ. وَلَكِنَّ بَعْضَهُمْ قَدْ رَقَدُوا. وَبَعْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ لِيَعْقُوبَ، ثُمَّ لِلرُّسُلِ أَجْمَعِينَ. وَآخِرَ الْكُلِّ -كَأَنَّهُ لِلسِّقْطِ- ظَهَرَ لِي أَنَا. (١ كورنثوس ١٥: ٣-٨)

هذا هو تقرير التاريخ بشأن يسوع الناصري. فقد تنبأ الكتاب المقدس عن كلٍّ من حياته، وموته، ودفنه، وقيامته من الأموات. ولم تكن الشهادة على قيامته من الأموات قائمة على استدلالات أو استنتاجات مستمَدة من رؤية قبر فارغ. فلم يكن جثمانٌ مفقودٌ بالدليل الكافي. بل استندت الشهادة على ظهورات يسوع حيًا، لا لفرد أو فردين فحسب، بل لعدد ضخم من البشر.

ذكر بولس أسماء الذين رأوا يسوع عائدًا من القبر حيًا. وتضمَّنت هذه القائمة بعضًا من الذين كانوا شهودًا على الصلب، وعلى اختراق الحربة لجنب يسوع. كما تضمَّنت أشخاصًا من الذين رأوا الجثمان وهو يُجهَّز للدفن.

وقد احتوت قائمة شهود العيان أيضًا على مجموعة تعدَّت الخمسمئة شخص دَفْعَةً وَاحِدَةً. علاوة على ذلك، قال بولس إن معظم شهود العيان هؤلاء بَاقٍ إِلَى الآنَ، كما لو كان يقول: «تأكَّدوا بأنفسكم. لا تزال هناك إمكانيَّة لاستجواب الشهود».

ليست الفرصة اليوم متاحة لنا كي نستجوب هؤلاء الخمسمئة شخص. لكن، لدينا اليوم ما سجَّله شهود العيان من الرسل كتابةً. فلا يزال بإمكاننا قراءة الرواية التي كتبها يوحنا أو متى.

وأخيرًا، أعلن بولس أنه رأى بنفسه المسيح القائم من الأموات. يا لها من كلمات فاتنة. فعلى قمة جميع التقارير غير المباشرة، قال الرسول: «أنا أيضًا رأيتُه».

قال بولس: «أنا رأيتُه!» هذا هو ما لم يستطع سواء أفلاطون أو كانط قط أن يتفوَّها به.

لا عجب إذن أن بولس أظهر يقينًا في نصرة المسيح على الموت. وقد جاء استنتاجه الأخير كنتيجة حتميَّة لشهادته المؤثِّرة، إذ قال: «إِذًا يَا إِخْوَتِي الْأَحِبَّاءَ، كُونُوا رَاسِخِينَ، غَيْرَ مُتَزَعْزِعِينَ، مُكْثِرِينَ فِي عَمَلِ الرَّبِّ كُلَّ حِينٍ، عَالِمِينَ أَنَّ تَعَبَكُمْ لَيْسَ بَاطِلًا فِي الرَّبِّ» (١ كورنثوس ١٥: ٥٨).

تُمَثِّل «إِذًا» التي نطق بها بولس في بداية هذه الآية الاستنتاج النهائي. فهناك أساس صلب ومتين لتلك النصيحة المهيبة القائلة: «كُونُوا رَاسِخِينَ». فأمام يقينيَّة القيامة، نحن مدعوون إلى أن نكون راسخين. ليس التذبذب سمة تميِّز الذين يعرفون المسيح القائم من الأموات. تُمثِّل القيامة من الأموات مرساة للنفس، تجعلها غير متزعزعة. فضلًا عن ذلك، على المؤمنين أن يكونوا دائمًا مُكثِرين في عمل الرب. فإن القيامة تحفِّز على العمل الكثير، لأنه تعبٌ قائمٌ على يقينٍ في أن أيَّ جهد يُبذَل في المسيح ليس باطلًا. فإن تعبنا، وألمنا، ومعاناتنا - بل وموتنا أيضًا - ليس باطلًا البتَّة.

الفصل التاسع

الموت هو ربح

قال بليز باسكال (Blaise Pascal) ذات مرة إن عاملًا أساسيًّا من عوامل شقاء الإنسان يَكمُن في تطلُّعه الدائم إلى حياة أفضل ممَّا يمكن تحقيقه. والسبب في ذلك هو أن جميعنا نتمتع بالقدرة على أن نحلم، سامحين لمخيِّلاتنا بالتحليق في الخيال.

لكن، حين ندفع قدرتنا على التخيُّل إلى أقصى حدودها، محاولين تصوُّر أفضل حياة ممكنة، نصطدم بحاجز المجهول. فمَن بوسعه تخيُّل كيف تكون السماء بالحقيقة؟ هذا الأمر يفوق إدراكنا، ويفوق أكثر أحلامنا طموحًا.

قال أحد الحكماء إننا إن تخيَّلنا أمتع اختبار ممكن، وفكرنا في أننا سنعيشه إلى الأبد، فإننا حينئذٍ نتخيَّل شيئًا أقرب إلى الجحيم منه إلى السماء. وببساطة، نحن عاجزون عن استيعاب حالة من الهناء المطلق، لأنه لا توجد لدينا لها نقطة مرجعيَّة ملموسة.

هـذه الطبيعـة الغامضـة والمجهولـة للحيـاة مـا بعـد المـوت هـي التـي دفعـت هاملـت إلى أن يقـول:

من ذا الذي يحتمل الأعباء الفادحة،
لحياة شاقة كلها أنين وعرق يتصبَّب،
لولا أننا نشعر بالخوف ممَّا بعد الموت.
فإن ذلك العالم المجهول،
الذي منه لا يرجع مسافرٌ،
يصيبنا بالحيرة،
ولهذا نُؤثِر احتمال البلايا التي نعرفها،
على الذهاب إلى أخرى نجهلها كل الجهل.
وهكذا، يجعل منا هذا الوعي جميعًا جبناء.
(مسرحية هاملت، الفصل الثالث، المشهد الأول)

ربمـا كان لـدى هاملـت وعـي بالوجـه الآخـر مـن ملاحظـة باسـكال. فإننـا لسـنا فقـط قادريـن عـلى تخيُّـل واقـع أفضـل مـن الـذي نعيشـه الآن، بـل لدينـا القـدرة أيضًـا عـلى تخيـل واقـع أسـوأ مـن الـذي نقاسـيه الآن. فـإن السـمة المجهولـة للحيـاة مـا بعـد المـوت هـي التـي تجعلنـا نحتمـل البلايـا التـي نعرفهـا ونعيشـها، مفضِّلـين إياهـا عـلى السـفر إلى أخـرى لا نعـرف عنهـا شـيئًا.

تقتـصر تخيُّلاتنـا عـن الحيـاة مـا بعـد المـوت بشـكل رئيـسي عـلى التشـبيهات. يُمثِّـل تَخَطِّـي حـدود هـذا العـالم انتقـالًا إلى بُعـدٍ آخـر، ينطـوي ذلـك البُعـد عـلى كلٍّ من عنـاصر اسـتمراريَّة وعناصر عـدم اسـتمراريَّة. وحيث هنـاك اسـتمراريَّة، توجـد إمكانيَّـة أن نفهـم بواسـطة اسـتخلاص تشـبيهات مسـتمَدة مـن هـذا العـالم. في المقابـل، تظـل عنـاصر عـدم الاسـتمراريَّة مُبهَمة لدينـا، لأننـا ببسـاطة نعجـز عـن اسـتيعاب مـا يتعـدَّى نقـاط مرجعيتنـا.

ومع أن الكتاب المقدس لم يكن صريحًا إلى حدٍّ ما في حديثه عن حالتنا المستقبليَّة، لكنه أيضًا لم يكن صامتًا تمامًا. فإننا نجد فيه تلميحات، وأدلة حيويَّة عمَّا تبدو عليه الحياة ما بعد الموت. وفيه نُعطَى بوادر أو عيِّنات مشوِّقة من المجد المستقبلي الذي ينتظرنا، وكشفًا جزئيًّا يعطينا لمحة من وراء زجاج معتم. لكن، هناك بضعة أفكار قد أُعلِنت لنا في جلاء تام.

أود، في هذا الفصل، تناوُل بعض التصريحات التعليميَّة بشأن الحياة ما بعد الموت، المقدَّمة لنا في الأناجيل والرسائل. وفي الفصل التالي، سنوجِّه انتباهنا إلى الصور الحيَّة التي تصفها لنا رؤيا يوحنا.

الحالة الوسطيَّة

لا يُعَلِّم الكتاب المقدس عن وجود حالتين فقط للحياة البشريَّة، بل عن وجود ثلاث حالات. فهناك حالة الحياة الأرضيَّة التي نعرفها، والحالة الأخيرة لأجسادنا المستقبليَّة المقامة من الأموات. كذلك، هناك فترة واقعة بين لحظة الموت والقيامة الأخيرة، وهي تُعرَف باسم الحالة الوسطيَّة.

على مدار التاريخ، وصف اللاهوت المسيحي الحالة الوسطيَّة بأنها الوجود الشخصي المستمر لأرواحنا في السماء، إلى أن تجتمع ثانية بأجسادنا المُمجَّدة، وتتسربل بها مرة أخرى. فإننا، في الحالة الوسطيَّة، نظل موجودين، وعلى قيد الحياة في صورة أرواح دون أجساد.

شاع مفهوم رقاد الروح في بعض الطوائف الدينيَّة. تقوم تلك الفكرة على استخدام الكتاب المقدس للفظ «رقاد» كلفظ مخفَّف يشير إلى الموت. ويُعلِّم هذا الفكر بأنه عند الموت، تظل أرواح القديسين الذين يرحلون عن عالمنا في حالة من التوقُّف المؤقت للحياة، دون وعي أو إدراك لمرور الزمن، وذلك حتى القيامة الأخيرة

العظيمة. يشبه رقاد الروح إذن النوم الجسدي الذي نعرفه في هذه الحياة. فحين ننام، نشعر وكأن الزمن يتوقف، ونكون في حالة من اللا وعي.

لكن، لا يعرف العهد الجديد شيئًا يسمَّى «رقاد الروح». فكما رأينا بوضوح، وصف بولس الحالة الوسطيَّة بأنها أفضل من الحياة الحاضرة، وذلك لكوننا ننتقل لندخل إلى محضر المسيح نفسه، لنقف أمامه وجهًا لوجه. يصعب تخيُّل كيف يمكن أن تكون هذه الحالة أفضل من التي نعيشها الآن، إن كنا سنظل في حالة من اللا وعي في محضر المسيح.

قطعًا، مع الرقاد تأتي الراحة ويتوقَّف الألم والاضطراب، لكن ينبغي في الآن ذاته ألا نزدري بالشركة الواعية مع المسيح التي نتمتَّع بها في هذه الحياة. تأتي أوقات نتوق فيها إلى أن نغط في نوم عميق، دون وعي، حتى نستريح من هموم هذا العالم، لكن هذه الرغبة تصاحبها رغبة طبيعيَّة أيضًا في أن نستيقظ لاحقًا، حتى نتابع حياتنا الواعية مرة أخرى. فإن النموذج العظيم للنعيم المسيحي لا يشبه قصة ريب فان وينكل (Rip Van Winkle).[١٢]

وإن اللمحات التي يقدِّمها لنا الكتاب المقدس عن الحالة الوسطيَّة تفترض بقوة وجود حالة من الوعي اليقظ. ومع أننا ينبغي ألا نستخلص من مَثَل الغني ولعازر استنتاجات تفوق طاقته، لكنه يوحي بوجود إدراك واعٍ وحاد لدى كلا الرجلين.

تضمَّن هذا المَثَل حديثًا دار بين الغني وإبراهيم. ففي خضم العذاب الذي كان الغني يقاسيه، صرخ إلى إبراهيم طالبًا الرحمة.

---

[١٢] المترجم: ريب فان وينكل هي قصة قصيرة للكاتب الأمريكي واشنطن إيرفينج، نشرت في عام ١٨١٩. وهي تدور حول شخصيَّة ريب فان وينكل، قروي من أصل هولندي، نام ذات يوم، واستيقظ وإذ عشرون عامًا قد مرت.

فأجابه إبراهيم: «يَا ابْنِي، اذْكُرْ أَنَّكَ اسْتَوْفَيْتَ خَيْرَاتِكَ فِي حَيَاتِكَ، وَكَذَلِكَ لِعَازَرُ الْبَلَايَا. وَالْآنَ هُوَ يَتَعَزَّى وَأَنْتَ تَتَعَذَّبُ. وَفَوْقَ هَذَا كُلِّهِ، بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ هُوَّةٌ عَظِيمَةٌ قَدْ أُثْبِتَتْ، حَتَّى إِنَّ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْعُبُورَ مِنْ هَهُنَا إِلَيْكُمْ لَا يَقْدِرُونَ، وَلَا الَّذِينَ مِنْ هُنَاكَ يَجْتَازُونَ إِلَيْنَا» (لوقا ١٦: ٢٥-٢٦). وحينئذٍ، التمس الغني أن تُبعَث رسالة إلى إخوته الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة، لتحذيرهم من موضع العذاب هذا (الآيتان ٢٧-٢٨)، لكن، قوبل التماسه هذا أيضًا بالرفض. وفي هذا المثَل، رسم لنا يسوع صورة عن «حضن إبراهيم»، باعتباره مكانًا وسطيًّا من الهناء والنعيم الواعي، وعن «الجحيم» باعتباره موضعًا من العذاب الواعي.

وتتضمن رؤيا يوحنا المدوَّنة في سفر الرؤيا مشهد لقديسين راحلين ينتظرون حالة المجد الأخيرة:

> وَلَمَّا فَتَحَ الْخَتْمَ الْخَامِسَ، رَأَيْتُ تَحْتَ الْمَذْبَحِ نُفُوسَ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنْ أَجْلِ كَلِمَةِ اللهِ، وَمِنْ أَجْلِ الشَّهَادَةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهُمْ، وَصَرَخُوا بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلِينَ: «حَتَّى مَتَى أَيُّهَا السَّيِّدُ الْقُدُّوسُ وَالْحَقُّ، لَا تَقْضِي وَتَنْتَقِمُ لِدِمَائِنَا مِنَ السَّاكِنِينَ عَلَى الْأَرْضِ؟» فَأُعْطُوا كُلُّ وَاحِدٍ ثِيَابًا بِيضًا، وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ يَسْتَرِيحُوا زَمَانًا يَسِيرًا أَيْضًا حَتَّى يَكْمَلَ الْعَبِيدُ رُفَقَاؤُهُمْ، وَإِخْوَتُهُمْ أَيْضًا، الْعَتِيدُونَ أَنْ يُقْتَلُوا مِثْلَهُمْ. (رؤيا ٦: ٩-١١)

في هذا النص، يبدو واضحًا أن نفوس الشهداء كانت تستريح في حالتها الوسطيَّة. لكن، ليست هذه الراحة هي حالة من النوم غير الواعي، لكنها راحة واعية، فيها يستطيعون تبادل الأحاديث.

وجود فوري في السماء؟

يتناول نص محوري آخر من العهد الجديد مسألة الحالة الوسطيَّة، وهو لوقا ٢٣: ٤٣. في هذا النص، خاطب يسوع اللص الذي كان مصلوبًا بجواره قائلًا: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِي فِي الْفِرْدَوْسِ».

لا توجد في النص الأصلي اليوناني لتصريح يسوع هذا أيَّة علامات ترقيم، وبالتحديد، لا توجد فاصلة. فقد أضيفت الفواصل في الترجمات الحديثة للكتاب المقدس، التي جعلت معنى كلمات يسوع كالتالي: «اليوم سوف تكون معي». يعني ذلك أن الوعد الذي قُطِع للِّص هو أنه سيتمتع بالشركة مع المسيح في الفردوس، وتلك الشركة ستبدأ في ذلك اليوم نفسه.

لكن، يستخدم أنصار مبدأ «رقاد الروح» ترقيمًا مختلفًا لهذا النص، ناقلين الفاصلة إلى مكان آخر، وجاعلين معنى التصريح كالتالي: «أقول لك اليوم، إنك تكون معي في الفردوس». وفقًا لهذه الصياغة، لا تشير كلمة «اليوم» إلى الوقت الذي سيصبح فيه اللص مع يسوع في الفردوس، بل إلى الوقت الذي قطع فيه يسوع وعدًا باجتماع شملهما في وقت ما غير محدَّد في المستقبل.

ومع أن هذا التركيب محتمَل لغويًّا، لكنه ليس مُفضَّلًا سواء من حيث السياق، أو من حيث الدقة الأدبيَّة. فمن شأن تكبُّد يسوع العناء كي يشير إلى الوقت الذي فيه يتكلَّم إلى اللص أن يُعتَبَر توضيحًا لما هو بديهي. فلا جدوى من إخبار اللص بأن «اليوم» كان هو اليوم الذي يتبادلان فيه الحديث. فلو كانا قد تحدثَّا مسبقًا، ثم قال له يسوع: «يومًا ما، سأخبرك بأمر شديد الأهميَّة، لكن، ليس اليوم هو الوقت المناسب»، لكان من الملائم، إذن، حين جاء وقت

الكشف عن هذا الأمر الهام أن يقول يسوع: «حسنًا، اليوم سأخبرك فيه بما رفضت أن أعلنه لك سابقًا. اليوم أقول لك إنك يومًا ما في المستقبل ستكون معي في الفردوس». لكن، لا يوجد أي دليل على وقوع مثل هذا الحديث بين يسوع واللص في وقت سابق.

تتفاقم إشكاليَّة هذا التفسير أكثر فأكثر إن وضعنا في اعتبارنا حالة يسوع الجسديَّة حين نطق بهذه الكلمات. فقد كان في خضم عذابات الصلب، ومن ثَمَّ، تطلَّبت منه كلُّ كلمة جهدًا شاقًا. يبدو إذن إهدار يسوع لأنفاسه الأخيرة كي يخبر اللص بأنه يتحدث إليه «اليوم» أمرًا مُستبعَدًا.

فإن الانطباع الأول عن النص يدعونا إلى أن نفترض صحة الترقيم القديم. فإن كلمة «اليوم» تتَّخذ معنى حقيقيًّا إن فهمنا أن يسوع يقول: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِي فِي الْفِرْدَوْسِ». وحينئذٍ، يكون معنى الكلمات كالتالي: «هذا اليوم عينه الذي تموت فيه، والذي فيه تكون لديك كلُّ الأسباب الوجيهة التي تدعو إلى التخلي عن الرجاء - ذلك اليوم الأخير من حياتك الأرضيَّة - هو الذي سيشهد دخولك إلى حالة أفضل كثيرًا من التي تقاسيها الآن. هذا هو اليوم الذي فيه ستدخل إلى الفردوس».

هذه هي الترجمة المفضَّلة للنص ما لم يكن هناك دليل كتابي مقنع يفيد نقيض ذلك. لا وجود لمثل هذا الدليل. بل في حقيقة الأمر، يُعَد دخول المؤمنين إلى الحالة الوسطيَّة المبارَكة في الحال هو المنظور المتسق والمتناغم لبقيَّة الكتاب المقدَّس.

أفضل من الحياة على الأرض

لا يترك لنا العهد الجديد أدنى شك في أن الحالة الوسطيَّة أفضل من الحياة على الأرض. قال الرسول بولس:

لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا يَؤُولُ لِي إِلَى خَلَاصٍ بِطَلْبَتِكُمْ وَمُؤَازَرَةِ رُوحِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، حَسَبَ انْتِظَارِي وَرَجَائِي أَنِّي لَا أُخْزَى فِي شَيْءٍ، بَلْ بِكُلِّ مُجَاهَرَةٍ كَمَا فِي كُلِّ حِينٍ، كَذَلِكَ الْآنَ، يَتَعَظَّمُ الْمَسِيحُ فِي جَسَدِي، سَوَاءٌ كَانَ بِحَيَاةٍ أَمْ بِمَوْتٍ. لِأَنَّ لِيَ الْحَيَاةَ هِيَ الْمَسِيحُ وَالْمَوْتُ هُوَ رِبْحٌ. وَلَكِنْ إِنْ كَانَتِ الْحَيَاةُ فِي الْجَسَدِ هِيَ لِي ثَمَرُ عَمَلِي، فَمَاذَا أَخْتَارُ؟ لَسْتُ أَدْرِي! فَإِنِّي مَحْصُورٌ مِنْ الِاثْنَيْنِ: لِيَ اشْتِهَاءٌ أَنْ أَنْطَلِقَ وَأَكُونَ مَعَ الْمَسِيحِ، ذَاكَ أَفْضَلُ جِدًّا. وَلَكِنْ أَنْ أَبْقَى فِي الْجَسَدِ أَلْزَمُ مِنْ أَجْلِكُمْ. (فيلبي ١: ١٩-٢٤)

وصف بولس الموت بأنه ربحٌ. نميل إلى الاعتقاد بأن الموت خسارة. من المؤكَّد أن موت أحد الأحباء يُمثِّل خسارة لأولئك الذين خلَّفهم وراءه. لكنه، لمَن ينتقل من هذا العالم، ربحٌ.

لم يحتقر بولس حياة هذا العالم، بل كان يقول إنه «مَحْصُورٌ» بين رغبته في البقاء، ورغبته في الرحيل. لم يكن الفارق الذي أشار إليه بين هذه الحياة والسماء هو الفارق بين شيء سيء وشيء جيد؛ بل كانت المقارنة هنا بين شيء جيد وشيء أفضل منه. فإن هذه الحياة في المسيح جيِّدة، لكن الحياة في السماء أفضل منها. لكن، تمادى بولس أيضًا قائلًا إن انطلاقه ليكون مع المسيح «أَفْضَلُ جِدًّا» (الآية ٢٣). يُمثِّل الانتقال إلى السماء أكثر من مجرد تحسُّن طفيف أو هامشي، بل إن الربح عظيم. فالسماء أفضل جدًا من الحياة في هذا العالم.

يردِّد هذا صدى المقارنة التي عقدها بولس في رسالته إلى أهل كورنثوس، حين قال:

لِأَنَّ خِفَّةَ ضِيقَتِنَا الْوَقْتِيَّةَ تُنْشِئُ لَنَا أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ ثِقَلَ مَجْدٍ

أَبَدِيًّا. وَنَحْنُ غَيْرُ نَاظِرِينَ إِلَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُرَى، بَلْ إِلَى الَّتِي لَا تُرَى. لِأَنَّ الَّتِي تُرَى وَقْتِيَّةٌ، وَأَمَّا الَّتِي لَا تُرَى فَأَبَدِيَّةٌ.

لِأَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ نُقِضَ بَيْتُ خَيْمَتِنَا الْأَرْضِيُّ، فَلَنَا فِي السَّمَاوَاتِ بِنَاءٌ مِنَ اللهِ، بَيْتٌ غَيْرُ مَصْنُوعٍ بِيَدٍ، أَبَدِيٌّ. فَإِنَّنَا فِي هَذِهِ أَيْضًا نَئِنُّ مُشْتَاقِينَ إِلَى أَنْ نَلْبَسَ فَوْقَهَا مَسْكَنَنَا الَّذِي مِنَ السَّمَاءِ. وَإِنْ كُنَّا لَابِسِينَ لَا نُوجَدُ عُرَاةً. فَإِنَّنَا نَحْنُ الَّذِينَ فِي الْخَيْمَةِ نَئِنُّ مُثْقَلِينَ، إِذْ لَسْنَا نُرِيدُ أَنْ نَخْلَعَهَا بَلْ أَنْ نَلْبَسَ فَوْقَهَا، لِكَيْ يُبْتَلَعَ الْمَائِتُ مِنَ الْحَيَاةِ. وَلَكِنَّ الَّذِي صَنَعَنَا لِهَذَا عَيْنِهِ هُوَ اللهُ، الَّذِي أَعْطَانَا أَيْضًا عَرْبُونَ الرُّوحِ. (٢ كورنثوس ٤: ١٧-٥: ٥)

كانت هذه المقارنة التي عقدها بولس هنا بين ما هو وقتيٌّ وما هو دائم، أو بين ما هو زمني وما هو أبدي.

قيامة الجسد

تطلَّع بولس أيضًا إلى الرجاء الأخير للنعيم المستقبلي، الذي يعقب الحالة الوسطيَّة، أي إلى المرحلة الثالثة من الحياة البشريَّة، التي تتمثَّل في قيامة أجسادنا. يتضمن قانون إيمان الرسل التصريح التالي: «أؤمن ... بقيامة الجسد». لا يركِّز هذا الإقرار الإيماني على قيامة جسد المسيح، بل على قيامة أجسادنا نحن. فإن قيامة المسيح هي السابقة لقيامتنا نحن. فهو باكورة جميع الذين سيكون لهم نصيبٌ في القيامة (١ كورنثوس ١٥: ٢٠-٢٣).

استفاض بولس في شرح فكرة قيامة أجسادنا في خاتمته الرنَّانة للأصحاح الخامس عشر من رسالة كورنثوس الأولى: «لَكِنْ يَقُولُ قَائِلٌ: «كَيْفَ يُقَامُ الْأَمْوَاتُ؟ وَبِأَيِّ جِسْمٍ يَأْتُونَ؟». يَا غَبِيُّ! الَّذِي تَزْرَعُهُ لَا يُحْيَا إِنْ لَمْ يَمُتْ. وَالَّذِي تَزْرَعُهُ، لَسْتَ تَزْرَعُ الْجِسْمَ الَّذِي سَوْفَ

يَصِيرُ، بَلْ حَبَّةً مُجَرَّدَةً، رُبَّمَا مِنْ حِنْطَةٍ أَوْ أَحَدِ الْبَوَاقِي. وَلَكِنَّ اللهَ يُعْطِيهَا جِسْمًا كَمَا أَرَادَ. وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْبُزُورِ جِسْمَهُ» (١ كورنثوس ١٥: ٣٥-٣٨).

عرض بولس هنا تشبيهًا مستمَدًّا من مجال الزراعة. فإن الانتقال الذي سنجتازه من هذه الحياة إلى حياة القيامة يشبه إنبات بزرة. فكي تحيا بزرة ما، ينبغي أن تُدفَن أولًا، أي ينبغي أن تتحلَّل. وينبغي أن تتعفَّن هذه البزرة حتى يزهر العشب. وإن ما يبرز فوق الأرض يفوق في المجد كثيراً ما غُرِس أولًا في شكل بزرة.

ثم تابع الرسول تشبيهه مشيراً إلى التنوُّع الشديد في الأجسام والأشكال التي تظهر عليها الحياة في هذا العالم:

> لَيْسَ كُلُّ جَسَدٍ جَسَدًا وَاحِدًا، بَلْ لِلنَّاسِ جَسَدٌ وَاحِدٌ، وَلِلْبَهَائِمِ جَسَدٌ آخَرُ، وَلِلسَّمَكِ آخَرُ، وَلِلطَّيْرِ آخَرُ. وَأَجْسَامٌ سَمَاوِيَّةٌ، وَأَجْسَامٌ أَرْضِيَّةٌ. لَكِنَّ مَجْدَ السَّمَاوِيَّاتِ شَيْءٌ، وَمَجْدَ الْأَرْضِيَّاتِ آخَرُ. مَجْدُ الشَّمْسِ شَيْءٌ، وَمَجْدُ الْقَمَرِ آخَرُ، وَمَجْدُ النُّجُومِ آخَرُ. لِأَنَّ نَجْمًا يَمْتَازُ عَنْ نَجْمٍ فِي الْمَجْدِ. (١ كورنثوس ١٥: ٣٩-٤١)

سرد بولس سلسلة من مستويات من المجد نجدها في العالم المخلوق، وألمح إلى وجود مجدٍ يظل غير مرئي في العصر الحاضر. ويفترض منطقه شيئًا من هذا القبيل: بحسب نظرتنا المحدودة عن كلِّ الواقع الحالي، لسنا نَلمَح سوى جزءًا بسيطًا ممَّا هو موجود بالفعل. فإننا نعاني من قصر نظر روحي. وسيكون من قبيل الغطرسة الشديدة أن نفترض أننا قادرون، بحسب نطاق رؤيتنا المحدودة، على الإلمام بالحياة في كامل أبعادها. وإن فكَّرنا، ولو للحظة، في مدى معرفتنا عن الكون الشاسع الذي نحيا فيه، سندرك أن حدود خبراتنا

متناهية الصغر. فإن خبراتنا عن النظام الطبيعي أصغر من قطرة ماء ضئيلة في محيط شاسع. بل وحتى إن تمكّنا من استيعاب القدر الكامل من النظام الطبيعي، لن يساعدنا هذا على سبر أغوار العالم فوق الطبيعي. ومن ثَمَّ، فإن الدرس الذي نتعلمه من هذا هو: أن القدر الذي ندركه بالفعل من الحياة كافٍ ليصرخ في آذاننا منبِّهًا إيانا إلى وجود تنوُّع يتجاوز كثيراً جدًا ما نراه وندركه بالفعل.

ثم، انتقل بولس إلى تقديم أوجه مقارنة، قائلًا: «هَكَذَا أَيْضًا قِيَامَةُ الْأَمْوَاتِ: يُزْرَعُ فِي فَسَادٍ وَيُقَامُ فِي عَدَمِ فَسَادٍ. يُزْرَعُ فِي هَوَانٍ وَيُقَامُ فِي مَجْدٍ. يُزْرَعُ فِي ضَعْفٍ وَيُقَامُ فِي قُوَّةٍ. يُزْرَعُ جِسْمًا حَيَوَانِيًّا وَيُقَامُ جِسْمًا رُوحَانِيًّا. يُوجَدُ جِسْمٌ حَيَوَانِيٌّ وَيُوجَدُ جِسْمٌ رُوحَانِيٌّ» (١ كورنثوس ١٥: ٤٢-٤٤).

هذه المقارنة بين الجسد الأرضي والجسد القائم من الأموات مؤثرة، ونابضة بالحياة. وهي تشمل العناصر التالية:

الجسد الطبيعي	الجسد المقام
فساد	عدم فساد
هوان	مجد
ضعف	قوة
حيواني	روحاني

إن سمات الفساد، والهوان، والضعف جميعها مألوفة لدينا جميعًا. فهي جزء طبيعي وعادي من حياتنا اليوميَّة. وهي سمات تخص أجسادنا الحيوانيَّة الطبيعيَّة. لكنَّ هذه السمات ستفسح المجال في القيامة إلى نقيضها. فإن عدم الفساد، والمجد، والقوة هي سمات الجسد الروحاني.

كيف يبدو الجسد الروحاني؟

يبدو مصطلح «جسد روحاني» شاذًّا وغريبًا على آذاننا. فإننا نميل إلى اعتبار أن الروح والجسد طرفا نقيض. لكن، لم يلجأ بولس هنا إلى التناقضات لتوضيح فكرته، بل كان يشير إلى جسد صار روحانيًّا، أي تغيرت محدوديَّاته الطبيعيَّة. فهو جسد مُمجَّد، أي جسد قام إلى بُعدٍ جديدٍ.

وإن المفتاح الحقيقي الوحيد الذي يتيح لنا فهم طبيعة هذا الجسد الروحاني هو تلك النظرة العامة والبسيطة التي لدينا عن جسد يسوع المُقام. فإننا نعلم جيدًا أن جسد يسوع عقب قيامته كان مختلفًا عن الجسد الذي دُفِن. وقد أظهرت قيامته بالجسد كلًّا من عناصر استمراريَّة وعناصر عدم استمراريَّة. فإننا نقرأ عن أناس واجهوا صعوبة في التعرُّف عليه، لكنهم، في النهاية تعرَّفوا عليه بالفعل. وقد تناول يسوع الإفطار مع تلاميذه، وأظهر لتوما ندوب جراح الصلب، قائلًا له: «هَاتِ إِصْبِعَكَ إِلَى هُنَا وَأَبْصِرْ يَدَيَّ، وَهَاتِ يَدَكَ وَضَعْهَا فِي جَنْبِي، وَلَا تَكُنْ غَيْرَ مُؤْمِنٍ بَلْ مُؤْمِنًا» (يوحنا ٢٠: ٢٧). لم يخبرنا الإنجيل ما إن كان توما قد لمسه بالفعل كما طُلِب منه أم لا، لكن، من الواضح أن الفرصة لفعل هذا كانت سانحة.

كذلك، دوَّن يوحنا عبارة غامضة عن يسوع، أثارت الكثير من التكهُّنات حول جسد قيامته: «وَبَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ كَانَ تَلَامِيذُهُ أَيْضًا دَاخِلًا وَتُومَا مَعَهُمْ. فَجَاءَ يَسُوعُ وَالْأَبْوَابُ مُغَلَّقَةٌ، وَوَقَفَ فِي الْوَسْطِ وَقَالَ: «سَلَامٌ لَكُمْ!»» (يوحنا ٢٠: ٢٦).

لماذا ذكر يوحنا عبارة «وَالْأَبْوَابُ مُغَلَّقَةٌ»؟ هل أُدرِجت هذه العبارة لتخبرنا بشيءٍ ما عن التلاميذ أم عن جسد يسوع القائم من الأموات؟ بالنظرة السطحيَّة، تبدو هذه تفصيلة عديمة الأهميَّة. فربما كان كلُّ

ما أراده يوحنا هو تسليط الضوء على حالة الخوف التي تملّكت من التلاميذ بعد الصلب. فيبدو أنهم قضوا الكثير من الوقت مختبئين. ففي الآية ١٩ قال يوحنا: «وَكَانَتِ الْأَبْوَابُ مُغَلَّقَةً حَيْثُ كَانَ التَّلَامِيذُ مُجْتَمِعِينَ لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ، جَاءَ يَسُوعُ وَوَقَفَ فِي الْوَسْطِ».

ربما يمكننا تخيل المشهد كالتالي: التلاميذ مكوَّمون بجوار بعضهم البعض، في حالة من الرعب الشديد، والأبواب مغلقة. وبينما كانوا منشغلين بخوفهم وذعرهم، جاء يسوع إلى حيث كانوا موجودين، وفتح الباب في هدوء، ودخل، وتحدَّث إليهم. وفقًا لهذا السيناريو، لا تخبرنا الإشارة إلى الأبواب المغلقة بشيء عن جسد يسوع المُقام، عدا أن هذا الجسد كان قادرًا على التجوُّل وفتح الأبواب.

من ناحية أخرى، ربما كان يوحنا يلمِّح إلى أن يسوع ظهر في وسط الغرفة دون أن يفتح الأبواب. من شأن هذا أن يعني أن جسده المقام كان يمتلك القدرة على اختراق العناصر الصلبة دون عائق. صحيح أن النص لم يقل هذا بشكل صريح، لكن يمكن استنباط ذلك من النص، لكن ليس عن يقين بأي حال من الأحوال. بل يظل هذا مجرد تخمين.

لكن الشيء المؤكَّد لدينا هو أن بولس اعتبر جسد يسوع نموذجًا لما ستكون عليه أجسادنا المُقامة، إذ قال:

> هَكَذَا مَكْتُوبٌ أَيْضًا: «صَارَ آدَمُ، الْإِنْسَانُ الْأَوَّلُ، نَفْسًا حَيَّةً»، وَآدَمُ الْأَخِيرُ رُوحًا مُحْيِيًا. لَكِنْ لَيْسَ الرُّوحَانِيُّ أَوَّلًا بَلِ الْحَيَوَانِيُّ، وَبَعْدَ ذَلِكَ الرُّوحَانِيُّ. الْإِنْسَانُ الْأَوَّلُ مِنَ الْأَرْضِ تُرَابِيٌّ. الْإِنْسَانُ الثَّانِي الرَّبُّ مِنَ السَّمَاءِ. كَمَا هُوَ التُّرَابِيُّ هَكَذَا التُّرَابِيُّونَ أَيْضًا، وَكَمَا هُوَ السَّمَاوِيُّ هَكَذَا السَّمَاوِيُّونَ أَيْضًا. وَكَمَا لَبِسْنَا صُورَةَ التُّرَابِيِّ، سَنَلْبَسُ أَيْضًا صُورَةَ السَّمَاوِيِّ. (١ كورنثوس ١٥: ٤٥-٤٩)

نشترك نحن البشر جميعًا في طبيعة آدم الأرضيَّة. فإننا أبناء التراب. وتعاني أجسادنا من كافة ضعفات وأوهان الذين هم من الأرض. لكن أجسادنا المقامة ستكون خيامًا مصنوعة في السماء. ففي الجسد السماوي، لن يكون هناك أدنى مجال لمرض السرطان أو لأمراض القلب. فإن لعنة السقوط ستُرفَع عنا، وسنلبس على صورة وشبه آدم الجديد، السماوي. أجل، ستظل هناك عناصر استمراريَّة. فإننا سنظل رجالًا ونساء، وستظل هوياتنا الشخصيَّة كما هي، وسيكون التعرُّف علينا ممكنًا، لأننا سنكون الأشخاص عينهم الذين كانوا في هذه الحياة. لكن سيكون هناك أيضًا عنصر عدم استمراريَّة، لأن الصورة السماويَّة ستحطِّم أغلال التراب.

استمراريَّة وعدم استمراريَّة

إحدى المشكلات المزعجة التي نواجهها بينما نفكِّر في السماء هي مسألة التعرُّف على الأشخاص. فإننا نتعرَّف على الناس من سماتهم الجسديَّة، التي من أبرزها العُمر والوزن. فهل من يموت طفلًا ستظل هيئته كطفلٍ إلى الأبد؟ وهل ستظل التجاعيد تملأ وجه المتقدِّمين في العمر؟ هل سأكون سمينًا أم نحيفًا، طويلًا أم قصيرًا؟

يشبه طرح هذا النوع من الأسئلة (التي لا يسعنا أن نقاوم طرحها) الركض لمحاولة اختراق حدود إدراكنا لعناصر عدم الاستمراريَّة. وإنني أفترض (مجرد افتراض) أن أهميَّة هذه الأسئلة ستندثر بطريقة أو بأخرى بمجرد تجاوُزنا مجال عالم التراب، ودخولنا إلى حالتنا الممجَّدة.

أصرَّ بولس على أنه بالرغم من أننا سنحتفظ بالتأكيد باستمراريَّة في هوياتنا الشخصيَّة الحالية، لكننا مع ذلك سنخضع لتغيير، إذ قال:

فَأَقُـولُ هَـذَا أَيُّهَـا الْإِخْـوَةُ: إِنَّ لَحْـمًا وَدَمًـا لَا يَقْـدِرَانِ أَنْ يَرِثَـا مَلَكُـوتَ اللـهِ، وَلَا يَـرِثُ الْفَسَـادُ عَـدَمَ الْفَسَـادِ. هُـوَذَا سِرٌّ أَقُولُـهُ لَكُـمْ: لَا نَرْقُـدُ كُلُّنَـا، وَلَكِنَّنَـا كُلَّنَـا نَتَغَـيَّرُ، فِي لَحْظَـةٍ فِي طَرْفَـةِ عَـيْنٍ، عِنْـدَ الْبُـوقِ الْأَخِـيرِ. فَإِنَّـهُ سَـيُبَوَّقُ، فَيُقَـامُ الْأَمْـوَاتُ عَدِيمِـي فَسَـادٍ، وَنَحْـنُ نَتَغَـيَّرُ. لِأَنَّ هَـذَا الْفَاسِـدَ لَابُـدَّ أَنْ يَلْبَـسَ عَـدَمَ فَسَـادٍ، وَهَـذَا الْمَائِـتَ يَلْبَـسُ عَـدَمَ مَـوْتٍ. وَمَتَـى لَبِـسَ هَـذَا الْفَاسِـدُ عَـدَمَ فَسَـادٍ، وَلَبِـسَ هَـذَا الْمَائِـتُ عَـدَمَ مَـوْتٍ، فَحِينَئِـذٍ تَصِـيرُ الْكَلِمَـةُ الْمَكْتُوبَـةُ: «ابْتُلِـعَ الْمَـوْتُ إِلَى غَلَبَـةٍ». (١ كورنثـوس ١٥: ٥٠-٥٤).

يشـير تعبـير الفسـاد هنـا إلى عمليَّـة المـوت، أي إلى عمليَّـة التحلـل المـادي، وليـس إلى الانحـلال الأخلاقـي. لا تـسري عمليَّـة التحلُّـل عـلى مـا هـو عديـم الفسـاد. فـإن مـا هـو حـرٌّ مـن الفسـاد المـادي حتـمًا سـيفلت مـن كافـة أشـكال التحلُّـل أو الفسـاد. وهـذا معنـاه أن التقـدم في العمـر، والتجاعيـد، والبثـور، والأمـراض لـن يكـون لهـا مـكان فيـما هـو عديـم الفسـاد. لـن تقهـر قيامـة الجسـد المـوت وحـده، بـل كل مـا هـو مصاحـب لـه أيضًـا.

الفصل العاشر

رؤيا لما هو عتيد أن يكون

ترد الأوصاف الأشد إثارة ونبضًا بالحياة للحياة ما بعد الموت في الكتاب المقدس في ختام سفر رؤيا يوحنا. حصل يوحنا على امتياز أن يرى، في الروح، رؤيا مُذهلة عن المستقبل. وتصل رؤيته المُثيرة هذه إلى ذروتها بهذا الإعلان عن السماء الجديدة والأرض الجديدة: «ثُمَّ رَأَيْتُ سَمَاءً جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً، لِأَنَّ السَّمَاءَ الْأُولَى وَالْأَرْضَ الْأُولَى مَضَتَا، وَالْبَحْرُ لَا يُوجَدُ فِي مَا بَعْدُ» (رؤيا ٢١: ١).

هنا نرى في إيجاز الغاية النهائيَّة للكنيسة المُتألمة، وذروة خطة الله الكاملة للفداء. فإن مستقبل الخليقة يَكمُن في ظهور السماء الجديدة والأرض الجديدة.

في هذا النص، نقرأ أن السَّمَاءَ الْأُولَى وَالْأَرْضَ الْأُولَى مَضَتَا. ما معنى ذلك؟ انقسم المفسِّرون فيما بينهم حول إجابة هذا السؤال. يعتبر البعض هذا «المضي» للخليقة الأولى فعل دينونة إلهيَّة على العالم

الساقط. فهم يعتقدون أن العالم القديم سيخرب ويباد بغضب الله، ثم يحل محله فعل خلق جديد، أي أن الله سيخلق العالم الجديد من العدم.

تقول وجهة نظر أخرى، وهي التي أفضِّلها، إن هذا العالم الجديد لن يُخلَق من العدم، بل سيحدث تجديد للعالم القديم، بفعل فداء الله. يتحدث الكتاب المقدس كثيراً عن أن الخليقة برمتها تنتظر فعل الفداء الأخير. لكن تدمير شيء كُليًّا، واستبداله بشيء آخر جديد تمامًا ليس فعل فداء؛ لأن الفداء هو إنقاذ ما هو في خطر وشيك من أن يضيع أو يُفقَد. ربما يكون التجديد جذريًّا، وربما يتضمَّن نيران تطهير عنيفة، لكن في النهاية، هذا التطهير سوف يفتدي، لا يفني. ستُطهَّر السماء الجديدة والأرض الجديدة، ولن توجد في العالم الجديد أيَّة مساحة للشر.

غياب البحر الفوضوي

نجد تلميحًا حول طبيعة السماء الجديدة والأرض الجديدة في الكلمات التالية التي تتَّسم إلى حدٍّ ما بالغموض: «وَالْبَحْرُ لَا يُوجَدُ فِي مَا بَعْدُ». قد يبدو تخيل أرض جديدة دون بحر أمرًا غريبًا بالنسبة للذين يحبون شاطئ البحر وكل ما يُمثِّله من حيث الجمال والترفيه. لكن بالنسبة لليهود القدماء، كان الأمر مختلفًا. ففي الأدب اليهودي، عادةً ما كان البحر يُستخدَم كرمزٍ لكلِّ ما هو مشؤوم، أو شرير، أو لكلِّ ما يشكِّل تهديدًا. ففي أصحاحات سابقة من سفر الرؤيا، نرى الوحش خارجًا من البحر (رؤيا ١٣). هكذا أيضًا، في الأساطير الساميَّة القديمة، تكرَّرت الإشارة إلى وحش البحار القديم الذي يُمثِّل الفوضى الوهميَّة. وتُعَد الإلهة تيامات (Tiamat) البابليَّة مثالًا على ذلك.

في المقابل، كان النهر، أو الجدول، أو النبع، بحسب الفكر اليهودي، رموزًا إيجابيَّة إلى الخير. هذا أمرٌ طبيعيٌّ في بيئة صحراويَّة فيها يُعَد جدول المياه بمثابة مصدر الحياة. وإذا نظرنا إلى خريطة تضاريس فلسطين، سنرى مدى أهميَّة نهر الأردن لحياة هذه الأرض. فقد كان يشبه خطًّا يشق قلب أرض جافة وظمآنة، رابطًا بحر الجليل في الشمال بالبحر الميت في الجنوب.

كان ساحل البحر الأبيض المتوسط في غرب فلسطين يحتوي على مناطق من المياه الضحلة الصخريَّة، ومن الجبال الناتئة. ولهذا السبب، لم يعمل العبرانيون القدماء بالتجارة عبر البحار، لأن المنطقة لم تكن ملائمة للإبحار. كان البحر، إذن، يُمثِّل أزمة. ومن البحر المتوسط كانت العواصف العنيفة تهبُّ.

نرى هذا الوصف المتضارب في المزمور السادس والأربعين، حيث يقول المُرنِّم: «اللهُ لَنَا مَلْجَأٌ وَقُوَّةٌ. عَوْنًا فِي الضِّيْقَاتِ وُجِدَ شَدِيدًا. لِذَلِكَ لَا نَخْشَى وَلَوْ تَزَحْزَحَتِ الْأَرْضُ، وَلَوِ انْقَلَبَتِ الْجِبَالُ إِلَى قَلْبِ الْبِحَارِ. تَعِجُّ وَتَجِيشُ مِيَاهُهَا. تَتَزَعْزَعُ الْجِبَالُ بِطُمُوِّهَا» (الآيات ١-٣)، ثم يضيف: «نَهْرٌ سَوَاقِيهِ تُفَرِّحُ مَدِينَةَ اللهِ» (الآية ٤).

أعيش في وسط ولاية فلوريدا. وفي بعض الأحيان، توصَف منطقتنا بأنها «عاصمة البرق الأمريكيَّة». تجلب أشهُر الصيف عواصف كهربائيَّة عنيفة. ويرتعب أحفادي عادةً ممَّا يسمونه «الانفجار». فهم لم يتصوَّروا قبلًا أن يصدر مثل هذا القصف الرعدي الصاخب من السماء.

لكن، إلى جانب العواصف العاتية، كان اليهود يخشون من مشكلات أخرى تأتيهم من البحر. فعادةً ما كان غرماؤهم وناهبوهم الذين حاصروهم مرات لا تُحصَى أممًا ساحليَّة. فقد كان الفلسطينيُّون يأتون إليهم من عند البحر.

ولهـذا، تـاق اليهـودي إلى عـالم جديـد تغيـب عنـه جميـع تلـك الـشرور التـي يرمـز إليهـا البحـر. سـتكون هنـاك ميـاه في الأرض الجديـدة، إذ سـيكون بهـا نهـر، وجـداول أنهـار محييـة. لكـن لـن يوجـد بحـر.

المدينة المفديَّة

ثـم اسـتطرد يوحنـا قائـلًا: «وَأَنَـا يُوحَنَّا رَأَيْـتُ الْمَدِينَـةَ الْمُقَدَّسَـةَ أُورُشَـلِيمَ الْجَدِيـدَةَ نَازِلَـةً مِـنَ السَّـمَاءِ مِـنْ عِنْـدِ اللـهِ مُهَيَّـأَةً كَعَـرُوسٍ مُزَيَّنَـةٍ لِرَجُلِهَـا» (رؤيـا ٢١: ٢). يتمثَّـل أوج العـالم الجديـد في مجـيء مدينـة اللـه، صهيـون المفديَّـة، أورشـليم النازلـة مـن السـماء.

هنـاك تضـارُب في دلالـة المدينـة في الأدب اليهـودي. فهـو يتأرجـح مـا بـين الدلالـة الإيجابيَّـة والدلالـة السـلبيَّة. فمـن ناحيـة، وبحسـب التاريـخ، كان الشـعب اليهـودي شـعبًا شـبه بـدوي. فقـد كانـوا يرتحلـون مـن أراضٍ مخصَّصـة للرعـي إلى أخـرى مخصَّصـة للرعـي أيضًـا. وكانـوا شـعبًا يسـكن الخيـام. وقـد عبـدوا إلـه إسرائيـل أولًا في خيمـة، هـي خيمـة الاجتـماع.

لكـن، كان هـذا الشـعب يتـوق إلى الاسـتقرار، وإلى الشـعور بالـدوام والثبـات. وقـد تهلَّلـوا حـين تحولـت خيمـة الاجتـماع إلى هيـكل عظيـم في عهـدي داود وسُـليمان. فقـد كانـوا نظـير أبينـا إبراهيـم الـذي قيـل عنـه: «بِالْإِيمَـانِ تَغَـرَّبَ [إبراهيـم] فِي أَرْضِ الْمَوْعِـدِ كَأَنَّهَـا غَرِيبَـةٌ، سَـاكِنًا فِي خِيَـامٍ مَـعَ إِسْـحَاقَ وَيَعْقُـوبَ الْوَارِثَـيْنِ مَعَـهُ لِهَـذَا الْمَوْعِـدِ عَيْنِـهِ. **لِأَنَّـهُ كَانَ يَنْتَظِـرُ الْمَدِينَـةَ الَّتِـي لَهَـا الْأَسَاسَـاتُ**، الَّتِـي صَانِعُهَـا وَبَارِئُهَـا اللـهُ» (عبرانيـين ١١: ٩-١٠).

وفي العهـد الجديـد، يُعظِّـم المسـيح بصفتـه رئيـس الكهنـة الأعظـم للخـيرات العتيـدة، «فَبِالْمَسْـكَنِ الْأَعْظَـمِ وَالْأَكْمَـلِ، غَـيْرِ الْمَصْنُـوعِ بِيَـدٍ، أَيِ الَّـذِي لَيْـسَ مِـنْ هَـذِهِ الْخَلِيقَـةِ» (عبرانيـين ٩: ١١).

لكن من ناحية أخرى، كانت صورة المدينة في الأدب اليهودي تحمل دلالة سلبيَّة، حيث أنها كانت تُمثِّل محاولة الإنسان المتغطرسة لصنع اسمًا لنفسه، وتخليد ذكراه. فمن المثير للاهتمام أن يذكر كاتب سفر التكوين ضمن أعمال قايين، القاتل الأول في التاريخ، أنه بنى مدينة: «فَخَرَجَ قَايِينُ مِنْ لَدُنِ الرَّبِّ، وَسَكَنَ فِي أَرْضِ نُودٍ شَرْقِيَّ عَدْنٍ. وَعَرَفَ قَايِينُ امْرَأَتَهُ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ حَنُوكَ. وَكَانَ يَبْنِي مَدِينَةً، فَدَعَا اسْمَ الْمَدِينَةِ كَاسْمِ ابْنِهِ حَنُوكَ» (تكوين ٤: ١٦-١٧). كانت مدينة قايين غير مقدَّسة، تمامًا مثلما كانت مدينتا سدوم وعمورة.

كانت مدينة أورشليم هي بؤرة رجاء إسرائيل. فهناك، فوق جبل صهيون، وعد الله بأن يسكن في وسط شعبه. وهناك بُنيَ الهيكل الذي إليه تُجرَى الزيارات المقدَّسة. وإلى أورشليم، كان ينبغي أن يصعد المسيَّا الملك كي يموت.

قاست إسرائيل بعض حوادث المذابح الجماعيَّة، أفظعها تلك التي وقعت في عام ٧٠ م، حين دمر الرومان المدينة المقدَّسة تمامًا، وتشتت اليهود في جميع أرجاء العالم. وطوال قرون - وحتى يومنا هذا - حين يحتفل اليهود بعيد الفصح، يهمس كل منهم في أذن الآخر بكلمات مؤثرة تعبِّر عن رجائهم، قائلين: «الفصح القادم في أورشليم».

كانت إسرائيل هي عروس يهوه، مثلما تُدعَى الكنيسة في العهد الجديد عروس المسيح. وفي رؤيا يوحنا، شُبِّه منظر أورشليم الجديدة بالمظهر المُذهل للعروس في ساعة زفافها. وحين تظهر أورشليم الجديدة، ستنتهي مدينة البشر، وتبدأ مدينة الله.

وقد صاحب موكب دخول هذه المدينة إلى حفل زفافها النداء السماوي القائل: «وَسَمِعْتُ صَوْتًا عَظِيمًا مِنَ السَّمَاءِ قَائِلًا: هُوَذَا

مَسْكَنُ اللهِ مَعَ النَّاسِ، وَهُوَ سَيَسْكُنُ مَعَهُمْ، وَهُمْ يَكُونُونَ لَهُ شَعْبًا، وَاللهُ نَفْسُهُ يَكُونُ مَعَهُمْ إِلَهًا لَهُمْ» (رؤيا ٢١: ٣).

فإن السمة الرئيسيَّة لأورشليم الجديدة ستكون **الحضور المباشر** لله. سيسكن الله في وسط شعبه، ومعهم. لن يُرى الله بعد على أنه بعيدٌ أو منفصلٌ عن الحياة اليوميَّة. لكنه سينصب خيمته في وسط شعبه.

وتعبِّر الكلمات الختاميَّة لرؤيا حزقيال في العهد القديم عن جوهر المدينة المقدسة، قائلة: «الْمُحِيطُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفًا، وَاسْمُ الْمَدِينَةِ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ: **يَهْوَهْ شَمَّهْ** [«الرب هناك»]» (حزقيال ٤٨: ٣٥).

حين كتب يوحنا مقدِّمة إنجيله، تحدث عن اللوجوس، كلمة الله، الذي كان في البدء عند الله، والذي هو نفسه الله، ثم كتب: «وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا، وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ، مَجْدًا كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ، مَمْلُوءًا نِعْمَةً وَحَقًّا» (يوحنا ١: ١٤).

ثم حين تحدث يوحنا عن التجسُّد، قال إن الكلمة «حلَّ» بيننا، حيث تعني الكلمة التي استخدمها حرفيًا: «نصب خيمته» أو «خيَّم». كذلك، دُعي يسوع عمانوئيل، الذي تفسيره «الله معنا». كانت الزيارة الأولى لله المتجسِّد إلى أورشليم مؤقتة. فقد جاء إلى أورشليم، ثم غادرها. لكنه سيكون ساكنًا مستديمًا في أورشليم الجديدة. فهو فلن يغادر المدينة المقدَّسة البتَّة. ولن توجد محطة مغادرة من ذلك المكان.

نهاية كل حزن

واستكمالًا من يوحنا لوصف السماء الجديدة والأرض الجديدة، كتب: «وَسَيَمْسَحُ اللهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ، وَالْمَوْتُ لَا يَكُونُ فِي مَا بَعْدُ، وَلَا يَكُونُ حُزْنٌ وَلَا صُرَاخٌ وَلَا وَجَعٌ فِي مَا بَعْدُ، لِأَنَّ الْأُمُورَ الْأُولَى قَدْ مَضَتْ» (رؤيا ٢١: ٤).

لا توجد الكثير من الاختبارات البشريَّة التي تفوق في حميميتها فعل مسح دموع شخص آخر. فإن هذا فعل تحنن وتعاطف تلامسي، ووسيلة تواصل غير منطوقة تخترق القلب. وهو لمسة مواساة.

في طفولتي، كانت والدتي دائمًا ما تعتني بي في حنان حين كنت أصاب بجرح. وحين كانت دموعي تنهمر، وأبكي في شهيق وتشنجات خارجة عن السيطرة، كانت والدتي تمسك بمنديلها وتمسح الدموع عن خديَّ. وكثيراً ما كانت «تمسح الدموع بقبلاتها».

جففت والدتي دموعي أكثر من مرة. وكانت مواساتها تُجدي نفعًا في تلك اللحظة، إذ كان بكائي يتوقف. لكن بعد ذلك، كنت أصاب ثانية، وتنهمر دموعي مرة أخرى. بل وحتى يومنا هذا، بعد العديد من السنوات، لا تزال قنواتي الدمعيَّة تعمل، ولا تزال لديَّ القدرة على النوح.

لكن، عندما يمسح الله الدموع، ستكون هذه نهاية كلِّ بكاء. أعلن يوحنا أن البكاء لن يكون فيما بعد في الأرض الجديدة. فحين يجفِّف الله أعيننا من كلِّ نوح وبكاء حزين، ستكون المواساة دائمة. لن يوجد بعد أي سبب يدفعنا إلى ذرف دموع الحزن. فإن الموت لا يكون فيما بعد. ولا يكون حزن ولا وجع على الإطلاق. فإن هذه الأمور المزعجة تنتمي إلى الأمور الأول التي ستمضي.

لن تحوي أورشليم الجديدة على مقابر، أو مشارح، أو قاعات عزاء، أو مستشفيات، أو أدوية مسكِّنة للألم. فهذه عناصر تابعة لمشقَّة هذا العالم، وستمضي جميعها.

ثم يقول يوحنا: «وَقَالَ الْجَالِسُ عَلَى الْعَرْشِ: «هَا أَنَا أَصْنَعُ كُلَّ شَيْءٍ جَدِيدًا!». وَقَالَ لِيَ: «اكْتُبْ: فَإِنَّ هَذِهِ الأَقْوَالَ صَادِقَةٌ وَأَمِينَةٌ»» (رؤيا ٢١: ٥).

إن الإعلان عن مكان يخلو من الوجع، والحزن، والدموع، والموت هو إعلان أروع من أن يصدَّق. يكاد القلب يغشى عليه عند التفكير في ذلك. وإننا غالبًا ما نخشى التفكير في الأمر، لئلا نعرِّض أنفسنا لخيبة أمل مريرة. لكن الصوت الآمر، الصادر من عرش الله، خاطب يوحنا في حزم، قائلًا «اكْتُبْ»، في لهجة آمرة. «فَإِنَّ هَذِهِ الْأَقْوَالَ صَادِقَةٌ وَأَمِينَةٌ».

يعني وصف هذه الأقوال بأنها «صَادِقَةٌ» أنها، ببساطة، تمت للواقع بصلة. فهي ليست وعودًا خياليَّة فارغة. وكونها «أَمِينَةٌ» يعني أنه يمكن الوثوق بها دون الخوف من الإصابة بخيبة الأمل.

ثم سمع يوحنا المزيد أيضًا: « ثُمَّ قَالَ لِي: «قَدْ تَمَّ! أَنَا هُوَ الْأَلِفُ وَالْيَاءُ، الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ. أَنَا أُعْطِي الْعَطْشَانَ مِنْ يَنْبُوعِ مَاءِ الْحَيَاةِ مَجَّانًا» (رؤيا ٢١: ٦).

تبدأ الأبجديَّة اليونانيَّة بالحرف «ألفا» وتنتهي بالحرف «أوميجا»، اللذين يقابلهما في لغتنا العربيَّة «الألف والياء». أعلن المسيح عن نفسه ليوحنا بأنه هو بداية كل شيء ونهايته. وهنا نسمع النغمة المجيدة لانتصار الخليقة. فلا وجود لأيَّة لمحة عن دورة لا نهائيَّة من التكرار الباطل. فإن للتاريخ البشري بأكمله هدفًا ومصيرًا، وسيصل به خالق كل شيء إلى نهاية ذات مغزى وهدف. فإن البُطل والعبثيَّة يختفيان أمام نور ذاك الذي هو الألف والياء.

ثم يَعِد رئيس إيماننا ومكمله جميع العطشى بانتعاش مُشبع. يظهر الرمز الرائع للعطش مرارًا في الكتاب المقدس. قال كاتب المزمور: «كَمَا يَشْتَاقُ الْإِيَّلُ إِلَى جَدَاوِلِ الْمِيَاهِ، هَكَذَا تَشْتَاقُ نَفْسِي إِلَيْكَ يَا اللهُ. عَطِشَتْ نَفْسِي إِلَى اللهِ، إِلَى الْإِلَهِ الْحَيِّ» (مزمور ٤٢: ١-٢)، حيث يشبِّه توق الإنسان إلى الله بالإيل التي تلهث مفتِّشة

عـن الميـاه. يعـبِّر ذلـك عـن عاطفـة قويَّـة، وعـن عطـش شـديد. وقـد طـوَّب يسـوع هـذا النـوع مـن الأشـخاص، الـذي لديـه تـوق وتلهـف حـماسي إلى اللـه، قائـلًا: «طُـوبَى لِلْجِيَـاعِ وَالْعِطَـاشِ إِلَى الْـبِرِّ، لِأَنَّهُـمْ يُشْـبَعُونَ» (متـى ٥: ٦).

تذكِّرنـا كلـمات يسـوع هـذه بحديثـه مـع المـرأة السـامريَّة عنـد البـئر: «لَـوْ كُنْـتِ تَعْلَمِـينَ عَطِيَّـةَ اللـهِ، وَمَـنْ هُـوَ الَّـذِي يَقُـولُ لَـكِ أَعْطِينِـي لِأَشْرَبَ، لَطَلَبْـتِ أَنْـتِ مِنْـهُ فَأَعْطَـاكِ مَـاءً حَيًّـا ... كُلُّ مَـنْ يَـشْرَبُ مِـنْ هَـذَا الْـمَاءِ يَعْطَـشُ أَيْضًـا. وَلَكِـنْ مَـنْ يَـشْرَبُ مِـنَ الْـمَاءِ الَّـذِي أُعْطِيـهِ أَنَـا فَلَـنْ يَعْطَـشَ إِلَى الْأَبَـدِ، بَـلِ الْـمَاءُ الَّـذِي أُعْطِيـهِ يَصِيرُ فِيـهِ يَنْبُـوعَ مَـاءٍ يَنْبَـعُ إِلَى حَيَـاةٍ أَبَدِيَّـةٍ» (يوحنـا ٤: ١٠-١٤).

وتبلـغ هـذه الوعـود ذروتهـا بكلـمات يسـوع عـلى الصليـب «قـد أُكمِـل». فقـد أنهـى يسـوع مهمتـه وكفـل النـصرة.

ثـم كتـب يوحنـا: «مَـنْ يَغْلِـبْ يَـرِثْ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَكُـونُ لَـهُ إِلَهًـا وَهُـوَ يَكُـونُ لِيَ ابْنًـا. وَأَمَّـا الْخَائِفُـونَ وَغَـيْرُ الْمُؤْمِنِـينَ وَالرَّجِسُـونَ وَالْقَاتِلُـونَ وَالزُّنَـاةُ وَالسَّـحَرَةُ وَعَبَـدَةُ الْأَوْثَـانِ وَجَمِيـعُ الْكَذَبَـةِ، فَنَصِيبُهُـمْ فِي الْبُحَـيْرَ الْمُتَّقِـدَةِ بِنَـارٍ وَكِبْرِيـتٍ، الَّـذِي هُـوَ الْمَـوْتُ الثَّـانِي» (رؤيـا ٢١: ٧-٨).

يحمـل هـذا المقطـع نـبرة تحذيـر مشـؤومة. وهـو يشـير إلى دينونـة المسـيح الأخـيرة. فللأمنـاء يُقطَـع وعـدٌ بالاشـتراك الكامـل في مـيراث المسـيح. فإننـا نُدعَـى ورثـة مـع المسـيح، حـين نصـير أبنـاء بالتبنـي في عائلـة اللـه. لكـن الذيـن يـصرُّون عـلى مقاومتهـم للمسـيح، ويتحالفـون مـع ضـد المسـيح، سـيُقصَون عـن نعيـم السـماء، ويُطرَحـون في بحـيرة النـار. وتُمثِّـل قائمـة الخطايـا المذكـورة (الكـذب، وعبـادة الأوثـان، وغيرهـا) موجـزًا لسـمات أتبـاع ضـد المسـيح، الذيـن سـيرفضون في عنـاد إظهـار ولاءهـم للمسـيح.

لمعان المدينة المقدسة

وبينما استطرد يوحنا في سرد رؤياه، كشف مزيدًا من التفاصيل عن أورشليم الجديدة:

ثُمَّ جَاءَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنَ السَّبْعَةِ الْمَلاَئِكَةِ الَّذِينَ مَعَهُمُ السَّبْعَةُ الْجَامَاتِ الْمَمْلُوَّةِ مِنَ السَّبْعِ الضَّرَبَاتِ الأَخِيرَةِ، وَتَكَلَّمَ مَعِي قَائِلًا: «هَلُمَّ فَأُرِيَكَ الْعَرُوسَ امْرَأَةَ الْخَرُوفِ».
وَذَهَبَ بِي بِالرُّوحِ إِلَى جَبَلٍ عَظِيمٍ عَالٍ، وَأَرَانِي الْمَدِينَةَ الْعَظِيمَةَ أُورُشَلِيمَ الْمُقَدَّسَةَ نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، لَهَا مَجْدُ اللهِ، وَلَمَعَانُهَا شِبْهُ أَكْرَمِ حَجَرٍ كَحَجَرِ يَشْبٍ بَلُّورِيٍّ. (رؤيا ٢١: ٩-١١)

ذلك الملاك نفسه الذي أظهر ليوحنا فيما سبق رؤيا الزانية العظيمة ومدينة بابل (الأصحاح ١٧) كان هو مَن ذهب به كي يريه المدينة الأخيرة، التي هي النقيض تمامًا. كانت المدينة المقدَّسة سابحة في لمعان مجد الله، تلمع ببريق يحبس الأنفاس، وشُبِّه لمعانها بالتحديد بحجر يشب بلوري.

في أصحاحات سابقة من سفر الرؤيا، وُصِف الظهور الإلهي على العرش بالكلمات التالية: «وَكَانَ الْجَالِسُ فِي الْمَنْظَرِ شِبْهَ حَجَرِ الْيَشْبِ وَالْعَقِيقِ» (رؤيا ٤: ٣). قد يتراوح لون حجر اليشب من الأصفر إلى الأحمر إلى الأخضر، وربما يكون شفافًا أيضًا. أما العقيق فهو أحمر اللون. بدا، إذن، أن هذه المدينة تعكس مجد الله (مجد الشكينة)، الشفاف والأحمر الناري، كالنور.

ثم تابع يوحنا قائلًا: «وَكَانَ لَهَا سُورٌ عَظِيمٌ وَعَالٍ، وَكَانَ لَهَا اثْنَا عَشَرَ بَابًا، وَعَلَى الأَبْوَابِ اثْنَا عَشَرَ مَلاَكًا، وَأَسْمَاءٌ مَكْتُوبَةٌ هِيَ أَسْمَاءُ

أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الاِثْنَيْ عَشَرَ. مِنَ الشَّرْقِ ثَلاَثَةُ أَبْوَابٍ، وَمِنَ الشِّمَالِ ثَلاَثَةُ أَبْوَابٍ، وَمِنَ الْجَنُوبِ ثَلاَثَةُ أَبْوَابٍ، وَمِنَ الْغَرْبِ ثَلاَثَةُ أَبْوَابٍ» (رؤيا ٢١: ١٣-١٤).

في العالم القديم، كانت قوة أيَّة مدينة وعظمتها تقاس بقوة أسوارها. لم يكن السور يُمثِّل حدود المدينة فحسب، لكنه كان عنصرًا حيويًّا في الحماية من هجمات الأعداء. وقد تضمنت الحروب القديمة بالضرورة فرض الحصار على المدن، واستخدام المنجنيق للتغلُّب على الحماية التي تشكلها أسوارها. واليوم، ينبهر زوار مدينة أورشليم القديمة بشكل السور المُحيط بها. فهو مبني من حجارة ضخمة، ويبلغ ارتفاعه قرابة ٢٣ مترًا (٧٥ قدمًا). وبقدر كون هذا مذهلًا لزائر العصر الحديث، لكن الأمر يصير مذهلًا أكثر فأكثر حين يعرف أن عوامل التعرية قد أخفت ٢٣ مترًا (٧٥ قدمًا) أخرى من هذا السور تحت الأرض.

ومع ذلك، سيبدو سور مدينة أورشليم الأرضيَّة باهتًا مقارنة بسور أورشليم الجديدة. سيكون هذا السور عظيمًا ومرتفعًا، مما يدل على الأمان التام للساكنين فيها. فهي ستُمثِّل ساترًا منيعًا ضد كلِّ من قد يحاول الدخول دون دعوة من الله. لكن، ستكون هناك مداخل إلى المدينة، عبر اثني عشر بابًا مسماة بحسب أسماء أسباط إسرائيل الاثني عشر؛ «لِأَنَّ الْخَلاَصَ هُوَ مِنَ الْيَهُودِ» (يوحنا ٤: ٢٢). فإن جذور تاريخ الفداء متأصِّلة داخل الأمة اليهوديَّة. لكن، سيدخل من أبواب أورشليم الجديدة أناس من كلِّ الأمم. ومع أن هذه المدينة ستكرم أمَّتها الأصليَّة، إسرائيل، لكنها ستكون مفتوحة لكلِّ من يرغب في السكنى مع الحمل.

لم يرَ يوحنا اثني عشر بابًا فحسب، لكنه رأى أيضًا عددًا مساويًا من الأساسات: «وَسُورُ الْمَدِينَةِ كَانَ لَهُ اثْنَا عَشَرَ أَسَاسًا، وَعَلَيْهَا أَسْمَاءُ رُسُلِ الْخَرُوفِ الِاثْنَيْ عَشَرَ» (رؤيا ٢١: ١٤).

نحن نرنِّم عن الأساس الوحيد للكنيسة، الذي هو يسوع. لكن، بحسب تشبيهات العهد الجديد، يُعَد حجر الزاوية هو الرمز الذي يُستخدَم في غالبيَّة الأحيان للتعبير عن المسيح؛ أما الأساس، فهم الرسل والأنبياء: «مَبْنِيِّينَ عَلَى أَسَاسِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ، وَيَسُوعُ الْمَسِيحُ نَفْسُهُ حَجَرُ الزَّاوِيَةِ» (أفسس ٢: ٢٠).

من اللافت للانتباه أن سور أورشليم الجديدة لن يرتكز على أساس واحد بل على اثني عشر أساسًا. يُظهِر ذلك التناظُر بين الاثني عشر بابًا والاثني عشر أساسًا كرمزٍ لأسباط إسرائيل الاثني عشر والرسل الاثني عشر الوحدة بين العهد القديم والعهد الجديد، والشمول التام لكلِّ شعب الله.

ثم استُكمِلت رؤيا يوحنا بحادثة مُثيرة للفضول: «وَالَّذِي كَانَ يَتَكَلَّمُ مَعِي كَانَ مَعَهُ قَصَبَةٌ مِنْ ذَهَبٍ لِكَيْ يَقِيسَ الْمَدِينَةَ وَأَبْوَابَهَا وَسُورَهَا. وَالْمَدِينَةُ كَانَتْ مَوْضُوعَةً مُرَبَّعَةً، طُولُهَا بِقَدْرِ الْعَرْضِ. فَقَاسَ الْمَدِينَةَ بِالْقَصَبَةِ مَسَافَةَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ غَلْوَةٍ. الطُّولُ وَالْعَرْضُ وَالِارْتِفَاعُ مُتَسَاوِيَةٌ. وَقَاسَ سُورَهَا: مِئَةً وَأَرْبَعًا وَأَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، ذِرَاعَ إِنْسَانٍ أَيِ الْمَلَاكُ» (رؤيا ٢١: ١٥-١٧).

في الرؤيا، قاس الملاك المدينة المقدسة بقصبة من ذهب. وكشفت القياسات عن التعادُل والتناسق التام للمدينة. لم تكن هناك أيَّة نتوءات شاردة، أو أي اختلال في التوازن؛ بل كانت مدينة الله مثاليَّة وخالية من أيَّة شائبة. نلاحظ أيضًا أن المدينة بدت مُكعَّبة. يعيد هذا الشكل إلى ذاكرتنا أبعاد قدس الأقداس في العهد القديم (انظر ١

ملوك ٦: ٢٠). وربما يفسِّر هذا إحدى سمات أورشليم الجديدة التي قطعًا كان من شأنها أن تصيب اليهود بالدهشة، وهي أن المدينة لن تحتوي على هيكل (رؤيا ٢١: ٢٢). فإن المدينة برمتها ستكون هيكلًا، يغمره حضور الله.

وجد الملاك أن قياس المدينة يبلغ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ غَلْوَةٍ (١٥٠٠ ميل أو ٢٤٠٠ كيلومترًا). هذا الرقم رمزي، وهو يُمثِّل اثني عشر ضعفًا من وحدة الفرلنغ.[١٣] تخيَّل معي إذن مدينة تمتد من نيويورك وحتى دِنفر.

كذلك، كانت قياسات السور مذهلة. ومرة أخرى، يُمثِّل رمز مِئَةً وَأَرْبَعًا وَأَرْبَعِينَ ذِرَاعًا مضاعف العدد ١٢. كان الذراع في الأصل هو المسافة من طرف إصبع الإنسان وحتى مرفقه. ومن ثَمَّ، قدر البعض قياس السور بأنه خمسة وستون مترًا تقريبًا (٢١٦ قدمًا).

ثم استكمل يوحنا وصفه قائلًا: «وَكَانَ بِنَاءُ سُورِهَا مِنْ يَشْبٍ، وَالْمَدِينَةُ ذَهَبٌ نَقِيٌّ شِبْهُ زُجَاجٍ نَقِيٍّ» (رؤيا ٢١: ١٨).

أعطاني أحدهم ذات مرة شريط فيديو مُسجَّل عليه الأحداث التي وقعت في العام الذي وُلدت فيه، وهو عام ١٩٣٩. ومن بين الأحداث المسجَّلة بناء قصر هيرست، الذي كان يُعد أغلى منزل شُيِّد في أمريكا، والأكثر تعقيدًا في ذلك الوقت. احتوى القصر على أكثر من مئة غرفة، وكانت تكلفته ثلاثين مليون دولار، في عام ١٩٣٩. كانت التركيبات الذهبيَّة فيه مُذهلة. لكن، لا يزيد هذا القصر عن كونه مجرد كوخ صغير إذا ما قُورن بأورشليم الجديدة.

لا يسعنا تخيُّل مدينة مبنيَّة من الذهب النقي شبه الزجاج النقي. صحيح أننا نتذكر احتواء هيكل سليمان على كمية وفيرة

---

[١٣] المترجم: الفرلنغ وحدة قياس للطُولِ في النظام الانجليزي يساوي ثُمنَ مِيل أي ٢٠١ متر.

من القشور التي من ذهب. لكن، ستُبنَى أورشليم الجديدة ليس فقط من قشور من ذهب، بل من ذهب نقي يعكس بريق جمال قداسة الله.

وبالعودة إلى أساسات المدينة، قدَّم يوحنا وصفًا نابضًا بالحياة: «وَأَسَاسَاتُ سُورِ الْمَدِينَةِ مُزَيَّنَةٌ بِكُلِّ حَجَرٍ كَرِيمٍ. الأَسَاسُ الأَوَّلُ يَشْبٌ. الثَّانِي يَاقُوتٌ أَزْرَقُ. الثَّالِثُ عَقِيقٌ أَبْيَضُ. الرَّابِعُ زُمُرُّدٌ ذُبَابِيٌّ الْخَامِسُ جَزَعٌ عَقِيقِيٌّ. السَّادِسُ عَقِيقٌ أَحْمَرُ. السَّابِعُ زَبَرْجَدٌ. الثَّامِنُ زُمُرُّدٌ سِلْقِيٌّ. التَّاسِعُ يَاقُوتٌ أَصْفَرُ. الْعَاشِرُ عَقِيقٌ أَخْضَرُ. الْحَادِي عَشَرَ أَسْمَانْجُونِيٌّ. الثَّانِي عَشَرَ جَمَشْتٌ» (رؤيا ٢١: ١٩-٢٠).

تُذَكِّرنا هذه الأحجار الكريمة الموجودة في أساسات المدينة بتلك الأحجار والجواهر التي كانت تزين صدرة رئيس كهنة إسرائيل (انظر خروج ٢٨: ١٥). وقد رأى البعض فيها رفضًا حاذقًا للديانة الوثنيَّة، إذ ذكرها يوحنا بترتيب معاكس لترتيبها المستخدم في أعمال التنجيم الفلكيَّة. يعني ذلك أن الحقيقة التي شُوِّهت في الديانة الوثنيَّة توجد في مدينة الله.

ثم وصف يوحنا أبواب المدينة وشوارعها المُدهشة، قائلًا: «وَالِاثْنَا عَشَرَ بَابًا اثْنَتَا عَشَرَةَ لُؤْلُؤَةً، كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الأَبْوَابِ كَانَ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ. وَسُوقُ الْمَدِينَةِ ذَهَبٌ نَقِيٌّ كَزُجَاجٍ شَفَّافٍ» (رؤيا ٢١: ٢١).

تعد هذه الآية هي مصدر الفكرة الشائعة بأن للسماء «أبواب لؤلؤيَّة»، و«شوارع من ذهب». تُذَكِّرنا هذه الآية بنبوة وردت في إشعياء ٥٤: ١٢. وفي بعض الأحيان، كان المعلِّمون اليهود القدماء يأخذون نبوة إشعياء على محمل حرفي، فيتوقون إلى ذلك الوقت الذي فيه ستكون لأورشليم لآلئ يبلغ عرضها ثلاثين ذراعًا وارتفاعها عشرين ذراعًا، وبداخلها فتحات يبلغ قطرها من عشرة إلى عشرين

ذراعًا (تخيَّل حجم المحار الذي قد يُنتِج مثل هذه اللآلئ).

وُلِدتُ ونشأتُ في بيتسبرج. وهي مدينة جذابة، أجمل كثيرًا من الصورة الشائعة عنها بأنها مدينة مغطاة بالأبخرة والضباب المتصاعد من مصانع الفولاذ. كانت المدينة في طليعة التجديد الحضري، ونموذجًا للنهضة الحضريَّة. لم تكن مشكلة بيتسبرج تكمُن في مداخن مصانع الفولاذ (التي معظمها متوقِّف الآن)، بل كانت المشكلة الأزليَّة التي تؤرق شيوخ المدينة هي الحُفر المُميتة التي تملأ شوارعها. فقد كان أواخر فصل الشتاء يشهد تبدُّلًا متواصلًا بين التجمُّد والذوبان، الشيء الذي سرعان ما كان يخرب الطبقة السطحيَّة من الطرق. وهناك أساطير تحكي عن سيارات فُقِدت إلى الأبد في تلك الثقوب الغائرة الموجودة على الطرق.

لكن، لن تحوي المدينة السماويَّة أيَّة حفر أو ثقوب. بل ولن تكون هناك ضرائب لأجل الصيانة المستمرة للطرق. ستكون الشوارع مرصوفة بالذهب النقي، الذي لن يحتاج البتَّة إلى تجديد أو صيانة.

هذه التشبيهات التصويريَّة هي، على الأرجح، رمزٌ للمجد الذي سيكون في السماء، مع أنني أخشى أن أجزم بهذا. فينبغي ألا نستبعد على الله أن ينشئ مدينة كالتي رآها يوحنا تمامًا.

المدينة التي بلا هيكل

كما ذكرتُ أعلاه، غاب شيء واحد بوضوح عن رؤيا يوحنا لأورشليم الجديدة. فقد كتب: «وَلَمْ أَرَ فِيهَا هَيْكَلًا، لِأَنَّ الرَّبَّ اللهَ الْقَادِرَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، هُوَ وَالْخَرُوفُ هَيْكَلُهَا» (رؤيا ٢١: ٢٢).

من شأن هذه الآية أن تكون صادمة لليهود الذين قرأوها في زمان يوحنا. كانت فكرة مجيء أورشليم جديدة بلا هيكل بالنسبة

لهم أمرًا بعيدًا تمامًا عن التصوُّر. فقد كان رجاؤهم المستقبلي متمحورًا حول العظمة الشديدة للهيكل.

وقد كان هذا الارتباط بالهيكل قويًا لدرجة أن أعداء يسوع قاموا، في أثناء محاكمته، بتحريف كلامه حتى يبدو وكأنه يشكل تهديدًا على الهيكل. قال أحد الشهود الزور: «نَحْنُ سَمِعْنَاهُ يَقُولُ: إِنِّي أَنْقُضُ هَذَا الْهَيْكَلَ الْمَصْنُوعَ بِالْأَيَادِي، وَفِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أَبْنِي آخَرَ غَيْرَ مَصْنُوعٍ بِأَيَادٍ» (مرقس ١٤: ٥٨). لكن، في حقيقة الأمر، لم يكن يسوع يتحدث هنا عن الهيكل على الإطلاق. فعندما طلب منه اليهود آية، أجابهم قائلًا:

> انْقُضُوا هَذَا الْهَيْكَلَ، وَفِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أُقِيمُهُ. فَقَالَ الْيَهُودُ: «فِي سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً بُنِيَ هَذَا الْهَيْكَلُ، أَفَأَنْتَ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ تُقِيمُهُ؟». وَأَمَّا هُوَ فَكَانَ يَقُولُ عَنْ هَيْكَلِ جَسَدِهِ. فَلَمَّا قَامَ مِنَ الْأَمْوَاتِ، تَذَكَّرَ تَلَامِيذُهُ أَنَّهُ قَالَ هَذَا، فَآمَنُوا بِالْكِتَابِ وَالْكَلَامِ الَّذِي قَالَهُ يَسُوعُ. (يوحنا ٢: ١٩-٢٢)

في أورشليم الجديدة، سيحل الحضور المباشر لله الآب والخروف، الله الابن، محل الهيكل. سيكون المسيح القائم من الأموات هو «مكان الاجتماع» بين الله والإنسان، لأنه هو الوسيط لشعبه.

وكما لم يرَ يوحنا هيكلًا، هكذا لم يرَ أيضًا أيَّ مصدر مادي للنور: «وَالْمَدِينَةُ لَا تَحْتَاجُ إِلَى الشَّمْسِ وَلَا إِلَى الْقَمَرِ لِيُضِيئَا فِيهَا، لِأَنَّ مَجْدَ اللهِ قَدْ أَنَارَهَا، وَالْخَرُوفُ سِرَاجُهَا» (رؤيا ٢١: ٢٣).

مرة أخرى، تردد كلمات سفر الرؤيا هنا صدى نبوة إشعياء في العهد القديم: «لَا تَكُونُ لَكِ بَعْدُ الشَّمْسُ نُورًا فِي النَّهَارِ، وَلَا الْقَمَرُ يُنِيرُ لَكِ مُضِيئًا، بَلِ الرَّبُّ يَكُونُ لَكِ نُورًا أَبَدِيًّا وَإِلَهُكِ زِينَتَكِ» (إشعياء ٦٠: ١٩).

أعلن المسيح أنه «نور العالم» في (يوحنا ٨: ١٢). وفي أورشليم الجديدة، سيطغي بريق قيامته، وكذلك مجد الله الساطع، على الأضواء الأدنى للشمس والقمر.

ثم استطرد يوحنا قائلًا: «وَتَمْشِي شُعُوبُ الْمُخَلَّصِينَ بِنُورِهَا، وَمُلُوكُ الْأَرْضِ يَجِيئُونَ بِمَجْدِهِمْ وَكَرَامَتِهِمْ إِلَيْهَا. وَأَبْوَابُهَا لَنْ تُغْلَقَ نَهَارًا، لِأَنَّ لَيْلًا لَا يَكُونُ هُنَاكَ. وَيَجِيئُونَ بِمَجْدِ الْأُمَمِ وَكَرَامَتِهِمْ إِلَيْهَا. وَلَنْ يَدْخُلَهَا شَيْءٌ دَنِسٌ وَلَا مَا يَصْنَعُ رَجِسًا وَكَذِبًا، إِلَّا الْمَكْتُوبِينَ فِي سِفْرِ حَيَاةِ الْخَرُوفِ» (رؤيا ٢١: ٢٤-٢٧).

ستكون المدينة المقدسة مكانًا يتدفَّق البشر من كلِّ الأمم أفواجًا إليه لتقديم الجزية للمسيَّا الملك. وسيهرع الملوك الأرضيُّون، المُحتسَبون ضمن المفديِّين لجلب مجدهم، وثرواتهم، وكرامتهم كي يضعوها عند قدمي الخروف. فقد قطع المجوس القدماء رحلة طويلة كي يقدموا هداياهم للمسيح المولود، لكن في المستقبل، ستأتي زيارات أروع وأبهى بكثير من ملوك وأمراء إلى عرش المسيح. فعندئذٍ، ستحتشد الأمم لعبادة ملك الملوك، وستظل أبواب المدينة مفتوحة دائمًا. ولن يُمثِّل حلول الليل أيَّ تهديد، لأن نور حضور الله لن يتوقف عن السطوع ولو للحظة واحدة.

ومع أن أبواب المدينة ستظل مفتوحة، لكن لا شيء يمكنه جلب الدنس سيتمكن من العبور من خلالها. فسيُحظَر الدخول على جميع الذين ليست أسماؤهم مكتوبة في سفر حياة الخروف. فإن هذه مدينة الخروف، ومن ثمَّ، لن تكون مفتوحة إلا للذين له.

وحين ظهرت مشاهد أخرى للمدينة في رؤيا يوحنا، كتب: «وَأَرَانِي نَهْرًا صَافِيًا مِنْ مَاءِ حَيَاةٍ لَامِعًا كَبَلُّورٍ، خَارِجًا مِنْ عَرْشِ اللهِ وَالْخَرُوفِ. فِي وَسَطِ سُوقِهَا وَعَلَى النَّهْرِ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ، شَجَرَةُ

حَيَاةٍ تَصْنَعُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ثَمَرَةً، وَتُعْطِي كُلَّ شَهْرٍ ثَمَرَهَا، وَوَرَقُ الشَّجَرَةِ لِشِفَاءِ الْأُمَمِ» (رؤيا ٢٢: ١-٢).

يُذَكِّرنا هذا المشهد ببعض عناصر جنة عدن. فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن السماء ستكون استردادًا للجنة التي فُقِدت بفعل السقوط؛ لكن السماء ستكون أعظم كثيرًا من مجرد استرداد للنظام القديم للخليقة. بل سيفوق الفردوس المستقبلي كثيرًا الهناء والنعيم الذي تمتع به الإنسان الأول به في جنة عدن الأولى.

كذلك، هذا المشهد مشابه لنبوة حزقيال، القائلة:

> وَقَالَ لِي: «هَذِهِ الْمِيَاهُ خَارِجَةٌ إِلَى الدَّائِرَةِ الشَّرْقِيَّةِ وَتَنْزِلُ إِلَى الْعَرَبَةِ وَتَذْهَبُ إِلَى الْبَحْرِ. إِلَى الْبَحْرِ هِيَ خَارِجَةٌ فَتُشْفَى الْمِيَاهُ. وَيَكُونُ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ حَيَّةٍ تَدِبُّ حَيْثُمَا يَأْتِي النَّهْرَانِ تَحْيَا ... وَيَحْيَا كُلُّ مَا يَأْتِي النَّهْرُ إِلَيْهِ ... وَعَلَى النَّهْرِ يَنْبُتُ عَلَى شَاطِئِهِ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ كُلُّ شَجَرٍ لِلْأَكْلِ، لَا يَذْبُلُ وَرَقُهُ وَلَا يَنْقَطِعُ ثَمَرُهُ. كُلَّ شَهْرٍ يُبَكِّرُ لِأَنَّ مِيَاهَهُ خَارِجَةٌ مِنَ الْمَقْدِسِ، وَيَكُونُ ثَمَرُهُ لِلْأَكْلِ وَوَرَقُهُ لِلدَّوَاءِ. (حزقيال ٤٧: ٨-١٢)

نقرأ في رؤيا حزقيال أن النهر كان خارجًا من الهيكل، بينما في رؤيا يوحنا، لم يكن الهيكل، بل المسيح ذاته، أي الهيكل الأبدي، هو مصدر المياه الشافية.

في رؤيا يوحنا، يصعب تحديد ما إذا كان يوحنا قد رأى شجرة حياة واحدة تمتد أغصانها على كلتا ضفتي النهر، أم كانت هناك شجرتا حياة منفصلتان. في كلتا الحالتين، تعبِّر الشجرة عن نظام الحياة الجديد الذي سيكون قائمًا. فإن الدورة السنويَّة الطبيعيَّة للفصول، حيث تنبت الزروع في الربيع وتموت في الشتاء، ستنتهي.

وستحمل الأشجار ثمارًا ناضجة كلَّ شهر؛ ولن تذبل أوراقها أو تموت البتَّة. لن توجد بعد أشواك أو حسك. ولن يُمثِّل الجفاف أي تهديد على الحصاد.

ستمتلك أوراق الشجر هذه قدرة علاجيَّة، إذ ستحوي بلسانًا لشفاء جراحات الأمم. لم يحدِّد يوحنا نوعيَّة الأمراض التي ستحتاج إلى الشفاء. فربما كان يقصد تخفيف الآلام الطبيعيَّة المعتادة، أو ربما الشفاء من الجراحات التي سبَّبها ضد المسيح.

رفع اللعنة

الشيء الذي اكتفت صورة الأشجار بالتلميح إليه قد اتضح ليوحنا بشكل صريح لاحقًا، ألا وهو أن اللعنة قد أُبطِلت. فقد كتب: «وَلَا تَكُونُ لَعْنَةٌ مَا فِي مَا بَعْدُ. وَعَرْشُ اللهِ وَالْخَرُوفِ يَكُونُ فِيهَا، وَعَبِيدُهُ يَخْدِمُونَهُ» (رؤيا ٢٢: ٣).

تعود فكرة اللعنة إلى سقوط الجنس البشري. فقد كانت اللعنة دينونة الله على العصيان. بعد السقوط، لعن الله الحيَّة التي خدعت حواء، وأصاب المرأة بأوجاع الحبل والولادة، وأصاب الرجل بأعباء ومشقات إضافيَّة. كذلك، لُعِنت الأرض بالشوك (تكوين ٣).

وظهرت فكرة اللعنة بقوة مرة أخرى حين قطع الله عهده مع إسرائيل: «اُنْظُرْ. أَنَا وَاضِعٌ أَمَامَكُمُ الْيَوْمَ بَرَكَةً وَلَعْنَةً: الْبَرَكَةُ إِذَا سَمِعْتُمْ لِوَصَايَا الرَّبِّ إِلَهِكُمُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكُمْ بِهَا الْيَوْمَ. وَاللَّعْنَةُ إِذَا لَمْ تَسْمَعُوا لِوَصَايَا الرَّبِّ إِلَهِكُمْ» (تثنية ١١: ٢٦-٢٨).

تعني اللعنة أكثر من مجرد فقدان للبركات الإيجابيَّة. فهي تنطوي، في الأساس، على القطع من محضر الله. فحين صُلب المسيح، و«تُرِك» من الآب، قُطِعَ عن الحضور الإلهي. فقد انطفأت الأنوار،

وغاص يسوع في هاوية من الظلمة. تعني اللعنة إذن أن نعجز عن رؤية وجه الله في العالم، وأن نختبر قدرًا معينًا من غيابه.

ويشير رفع اللعنة إلى الاكتمال التام للفداء الإلهي. ففي رؤيا يوحنا، عندما رُفِعت اللعنة، برز شيئان في الحال: الأول هو الحضور الواضح لله وللخروف، والثاني هو العبادة والخدمة الطوعيَّة المقدَّمة من شعبه. يُمثِّل هذا النقيض الصريح للحالة التي جلبت اللعنة من الأساس. فقد حلَّت اللعنة بسبب العصيان. وحين تمضي اللعنة، لن يكون عصيان فيما بعد. ستغيب اللعنة، وسببها، أي الخطيَّة، عن السماء.

يقودنا هذا، بدوره، إلى الرجاء الأسمى عن السماء، ألا وهو رؤية الله. كتب يوحنا: «وَهُمْ سَيَنْظُرُونَ وَجْهَهُ، وَاسْمُهُ عَلَى جِبَاهِهِمْ» (رؤيا ٢٢: ٤).

هذا هو ما يطلق عليه اللاهوتيُّون اسم «الرؤية السعيدة»، وهي رؤية الله التي تثير في التو واللحظة فرحًا شديدًا. وهذا هو النعيم والهناء اللذان خُلق من أجلهما كل إنسان. فحينئذٍ، وأخيرًا، سيُملأ الخواء الذي كان يزعج النفس البشريَّة.

ما من مشكلة تواجه حياة الإيمان أصعب من حقيقة أننا مدعوون إلى خدمة وعبادة إله غير منظور تمامًا لنا. فإننا نشعر بشدة بهذا القول المأثور، «البعيد عن العين، بعيد عن القلب»، من جهة ذلك الشخص الذي هو موضوع محبتنا، ونريد أن تشبع أعيننا بعظمة وجلال مجده، وأن يرفع علينا نور وجهه.

تنطوي روايات العهد القديم الكثيرة التي تحكي عن ظهورات الله لبشر فقط على ظهور إلهي من نوعٍ ما. الظهور الإلهي (theophany) هو ظهور منظور للإله غير المنظور. فقد رأى موسى عُليقة مشتعلة

لكنها لم تكن تحترق، ورأى بنو إسرائيل عمود السحاب. لكن، ظل وجه الله محتجبًا في هذه الظهورات الإلهيَّة.

في الرسالة الأولى للرسول يوحنا، كتب: «اُنْظُرُوا أَيَّةَ مَحَبَّةٍ أَعْطَانَا الْآبُ حَتَّى نُدْعَى أَوْلَادَ اللهِ! مِنْ أَجْلِ هَذَا لَا يَعْرِفُنَا الْعَالَمُ، لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُهُ. أَيُّهَا الْأَحِبَّاءُ، الْآنَ نَحْنُ أَوْلَادُ اللهِ، وَلَمْ يُظْهَرْ بَعْدُ مَاذَا سَنَكُونُ. وَلَكِنْ نَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا أُظْهِرَ نَكُونُ مِثْلَهُ، لِأَنَّنَا سَنَرَاهُ كَمَا هُوَ» (١ يوحنا ٣: ١-٢).

بدأ يوحنا حديثه عن الرؤية السعيدة بتعبير عن ذهول رسولي. فقد أعلن ذهوله الشديد لكوننا دُعينا «أولاد الله». فإن إغداق امتياز أن نكون أبناء بالتبني علينا يعكس «شكلًا» أو نوعًا من المحبة يتحدَّى كلَّ الأنواع العادية. فهي محبة فائقة تلك التي دفعت الآب إلى أن يدعونا أولاده. وإننا غير مستحقين تمامًا لهذا اللقب. فهو لا يستند على أي استحقاق فينا. ويكمن تفسيره الوحيد حتمًا في المحبة الفائقة التي لا يستطيع سوى الله أن يبديها.

ثم تابع يوحنا مُقِرًّا بأنه لم يُظهَر بعد ماذا سنكون. فلا تزال المرآة معتمة، ولم تنقشع بعد غيوم المستقبل. لكن، هناك بعض التلميحات الكافية كي تلهب نفوسنا بالسرور. فإننا على يقين من أمر واحد، وهناك شعاع من الضوء يخترق عتمة المرآة - وهو أننا سنكون مثله.

إنه لأمر عجيب أننا قد خُلِقنا على صورة الله. كان الغرض من خلق الله للجنس البشري هو أن نكون مرآة تعكس طبيعة الله نفسها. لكن، بسبب سقوطنا، تلطَّخت صورة الله فينا، وغدونا صورًا زائفة. لم يَعُد شيء يميزنا كبشر أكثر من كوننا خطاة. وبارتكابنا للخطيَّة، نُظهِر تمامًا ما هو ليس من الله. فلا يوجد في طبيعة الله ظلُّ شرٍّ.

لكن، حين تُرفَع عنا الخطيَّة تمامًا، حينئذٍ نصبح صورًا أصيلة وحقيقيَّة لإلهنا. فإننا سنكون مثله.

كان الشرط الأساسي لمعاينة وجه الله هو نقاوة القلب. نطق الرب يسوع بهذا الوعد في تطويباته: «طُوبَى لِلْأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ، لِأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللهَ» (متى ٥: ٨). ومن ثَمَّ، فإن الله غير منظور للبشر الزائلين لأنه ما من إنسان زائل نقي القلب تمامًا. لا تكمن المشكلة في أعيننا، بل في قلوبنا.

لم يخبرنا يوحنا بالتسلسل الدقيق للأحداث. فهل سنتنقَّى أولًا حتى نتمكَّن من رؤية الله، أم أن رؤية الله دون حاجز ستُنقِّينا في الحال؟ لكنَّ كلَّ ما نعرفه هو أننا فقط حين نتمجَّد في السماء، سنكون مؤهلين لرؤية الله. ولهذا، أعتقد أننا قبل «أن نراه كما هو»، سوف تتنقَّى بقايا النجاسة والفساد أولًا من قلوبنا تمامًا.

في النسخة الهوليوديَّة من رواية «بن هور» (*Ben-Hur*) للكاتب ليو والاس (Lew Wallace)، هناك مشهد يعبِّر عن قدرٍ من التأثير القوي لرؤية المسيح. كان بِن هور عند بِئرٍ، وكان قذرًا، ممتلئًا بالوسخ، ومغلوبًا من الظمأ الشديد. ركَّزت الكاميرا على وجه بِن هور، وكانت ملامحه مشوَّهة من شدة اليأس. ثم عبر ظلُّ رجل على وجهه. لسنا نرى هذا الرجل، إذ تظل الكاميرا مثبَّتة على وجه بِن هور. قدم له الرجل الماء ليشرب. وحين رفع بِن هور وجهه البائس ليرى هذا الغريب المُتحنِّن، سطع بريقٌ فجائيٌّ على وجهه، مغيِّرًا من ملامحه. وبسبب هذا التغيير الجذري في ملامح وجهه، استطعنا أن ندرك في الحال أنه كان ينظر مباشرة إلى وجه المسيح.

هذا هو الرجاء الأساسي والحقيقي للمؤمن. فحين ننظر إلى وجه الله، ستتبدَّد كافة ذكريات الوجع والألم، وستُشفَى أرواحنا إلى التمام.

سيكتب الله اسمه على جباهنا، التي لن تحمل رقم ضد المسيح. بل سيوضع علينا اسمٌ لا يُمحى، سوف يُحدِّد إلى الأبد هويتنا بأننا أبناء الله وبناته.

ثم ختم يوحنا سرده لرؤياه عن السماء الجديدة والأرض الجديدة بهذه الكلمات المؤثرة: «وَلَا يَكُونُ لَيْلٌ هُنَاكَ، وَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى سِرَاجٍ أَوْ نُورِ شَمْسٍ، لِأَنَّ الرَّبَّ الْإِلَهَ يُنِيرُ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ سَيَمْلِكُونَ إِلَى أَبَدِ الْآبِدِينَ. ثُمَّ قَالَ لِي: هَذِهِ الْأَقْوَالُ أَمِينَةٌ وَصَادِقَة» (رؤيا ٢٢: ٥-٦).

مرة أخرى، شدَّد يوحنا على تبدُّد الظُلمة. فإن مجد الله المشع سيغمر شعبه بالنور إلى الأبد. وسينال جميع الذين هم له ميراثهم الكامل، وسيسمعونه يقول: «تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي، رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ».

هذا الوعد، الذي يوثِّقه الإعلان الإلهي القائل إن «هَذِهِ الْأَقْوَالُ أَمِينَةٌ وَصَادِقَةٌ»، هو الذي يبدِّد كافة الشكوك حيال أوجاعنا وآلامنا الحاضرة، وهو الذي يؤكِّد صحة المقارنة التي عقدها الرسول بأن الآلام التي نقاسيها في الزمان الحاضر غير جديرة من الأساس بأن تُقارَن بالمجد الذي ذخره الله لأجلنا في السماء (رومية ٨: ١٨). فبهذا الوعد، المختوم بالقَسَم الإلهي، نتيقَّن من أن آلامنا ليست البتَّة عبثًا عديم الجدوى.

الخاتمة

في رسالة بولس إلى أهل أفسس، عبر الرسول عن مشاعر قلبه العميقة تجاه المؤمنين، قائلًا:

لِذَلِكَ أَنَا أَيْضًا إِذْ قَدْ سَمِعْتُ بِإِيمَانِكُمْ بِالرَّبِّ يَسُوعَ، وَمَحَبَّتِكُمْ نَحْوَ جَمِيعِ الْقِدِّيسِينَ، لَا أَزَالُ شَاكِرًا لِأَجْلِكُمْ، ذَاكِرًا إِيَّاكُمْ فِي صَلَوَاتِي، كَيْ يُعْطِيَكُمْ إِلَهُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَبُو الْمَجْدِ، رُوحَ الْحِكْمَةِ وَالْإِعْلَانِ فِي مَعْرِفَتِهِ، مُسْتَنِيرَةً عُيُونُ أَذْهَانِكُمْ، لِتَعْلَمُوا مَا هُوَ رَجَاءُ دَعْوَتِهِ، وَمَا هُوَ غِنَى مَجْدِ مِيرَاثِهِ فِي الْقِدِّيسِينَ، وَمَا هِيَ عَظَمَةُ قُدْرَتِهِ الْفَائِقَةُ نَحْوَنَا نَحْنُ الْمُؤْمِنِينَ، حَسَبَ عَمَلِ شِدَّةِ قُوَّتِهِ. (أفسس ١: ١٥-١٩)

في تعبير بولس هذا عن التوق الرعوي، أشار إلى الفضائل المسيحيّة الثلاثة العُظمى، وهي: الإيمان والمحبّة والرجاء. فقد فاض فرحه حين سمع بإيمان القديسين، الذي تجلّى في محبتهم. لكن، انصبَّ تركيز صلاته على أن يُنير روح الله أذهان المؤمنين بالحكمة الإلهيّة حتى يصلوا إلى حالة من التقدير التام لرجاء دعوته.

الخاتمة

في رسالة بولس إلى أهل أفسس، عبر الرسول عن مشاعر قلبه العميقة تجاه المؤمنين، قائلًا:

لِذَلِكَ أَنَا أَيْضًا إِذْ قَدْ سَمِعْتُ بِإِيمَانِكُمْ بِالرَّبِّ يَسُوعَ، وَمَحَبَّتِكُمْ نَحْوَ جَمِيعِ الْقِدِّيسِينَ، لَا أَزَالُ شَاكِرًا لِأَجْلِكُمْ، ذَاكِرًا إِيَّاكُمْ فِي صَلَوَاتِي، كَيْ يُعْطِيَكُمْ إِلَهُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَبُو الْمَجْدِ، رُوحَ الْحِكْمَةِ وَالْإِعْلَانِ فِي مَعْرِفَتِهِ، مُسْتَنِيرَةً عُيُونُ أَذْهَانِكُمْ، لِتَعْلَمُوا مَا هُوَ رَجَاءُ دَعْوَتِهِ، وَمَا هُوَ غِنَى مَجْدِ مِيرَاثِهِ فِي الْقِدِّيسِينَ، وَمَا هِيَ عَظَمَةُ قُدْرَتِهِ الْفَائِقَةُ نَحْوَنَا نَحْنُ الْمُؤْمِنِينَ، حَسَبَ عَمَلِ شِدَّةِ قُوَّتِهِ. (أفسس ١: ١٥-١٩)

في تعبير بولس هذا عن التوق الرعوي، أشار إلى الفضائل المسيحيَّة الثلاثة العُظمى، وهي: الإيمان والمحبَّة والرجاء. فقد فاض فرحه حين سمع بإيمان القديسين، الذي تجلَّى في محبتهم. لكن، انصبَّ تركيز صلاته على أن يُنير روح الله أذهان المؤمنين بالحكمة الإلهيَّة حتى يصلوا إلى حالة من التقدير التام لرجاء دعوته.

فإن دعوتنا الإلهيَّة ليست في الأساس دعوة إلى الألم، بل إلى رجاءٍ يتغلَّب على الألم. وهذا الرجاء هو رجاء ميراثنا المستقبلي مع المسيح.

ليس هذا الرجاء مجرد أمنية، أو توق فارغ للنفس، لكنه رجاء متأصِّل في قدرة الله الفائقة. وهو رجاء لا يمكن أن يُخزي، أي أنه لن يتسبَّب البتَّة للذين يتحلُّون به في أي خزي أو خيبة أمل.

إن رجاء الفرح الأبدي في محضر الله، ذلك الرجاء الذي يدعمنا ويؤيِّدنا بالقوة في خضم الآلام الوقتيَّة، هو ميراث يسوع المسيح. وهو وعد الله لكلِّ من يضع ثقته فيه.

مُلحق

أسئلة وأجوبة

أود في هـذا القسـم التطـرُّق في إيجـاز إلى بضعـة قضايـا أخـرى محيطـة بمشـكلة الألم، وذلـك عـن طريـق الإجابـة عـلى بضعـة أسـئلة طُرحـت عـليَّ عـلى مـدار سـنوات.

بـمَ تنصـح أولئـك المؤمنـين الذيـن يعانـون مـن مـرضٍ مـا، أو مـن أمـراض الشـيخوخة، ويُفضِّلـون الانطـلاق إلى السـماء عـلى البقـاء في الأرض؟

أولًا، سـوف أثنـي عـلى هـؤلاء. وهـم بـكل تأكيـد ليسـوا بمفردهـم في ذلك. فكثـيرًا مـا عـبَّر أبطـال الكتـاب المقـدس، مـن رجـال ونسـاء، عـن هـذا الشـعور. نتذكَّـر سـمعان الشـيخ الـذي، بعـد مـا انتظـر سـنوات طويلـة كي يـرى المسـيَّا، أُنعِـم عليـه أخـيرًا برؤيـة المسـيح الطفـل في الهيـكل. فحمـل الطفـل يسـوع بـين ذراعيـه، ونطـق بقصيدتـه المعروفـة باسـم «الآن أطلـق» (*Nunc Dimittis*): «الْآنَ تُطْلِـقُ عَبْـدَكَ يَـا سَـيِّدُ حَسَـبَ

قَوْلِكَ بِسَلَامٍ، لِأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ أَبْصَرَتَا خَلَاصَكَ» (لوقا ٢: ٢٩-٣٠).

كذلك، توسَّل أيوب، في خضم آلامه الرهيبة، إلى الله طالبًا راحة الموت: «يَا لَيْتَ طِلْبَتِي تَأْتِي وَيُعْطِينِيَ اللهُ رَجَائِي! أَنْ يَرْضَى اللهُ بِأَنْ يَسْحَقَنِي، وَيُطْلِقَ يَدَهُ فَيَقْطَعَنِي» (أيوب ٦: ٨-٩). وهكذا أيضًا، قدَّم موسى وإرميا، وآخرون أيضًا، هذه الطلبة عينها.

ذات مرة، سمعت أحدهم يصف الآلام الشديدة الناجمة عن دوار البحر قائلًا: «في البداية، خشيتُ أن أموت، ثم بعد ذلك، خشيتُ ألا أموت». ويُمثِّل ما قاله على سبيل الدعابة الواقع الواضح لمتألمين كثيرين.

اقتُبِس عن بيلي جراهام مؤخَّرًا قوله بأنه قد سأم، وكان يشتهي الذهاب إلى موطنه ليكون مع المسيح. وردَّدت كلماته هذه صدى كلمات الرسول بولس حين كتب: «لِأَنَّ لِيَ الْحَيَاةَ هِيَ الْمَسِيحُ وَالْمَوْتُ هُوَ رِبْحٌ. وَلَكِنْ إِنْ كَانَتِ الْحَيَاةُ فِي الْجَسَدِ هِيَ لِي ثَمَرُ عَمَلِي، فَمَاذَا أَخْتَارُ؟ لَسْتُ أَدْرِي! فَإِنِّي مَحْصُورٌ مِنَ الِاثْنَيْنِ: لِيَ اشْتِهَاءٌ أَنْ أَنْطَلِقَ وَأَكُونَ مَعَ الْمَسِيحِ، ذَاكَ أَفْضَلُ جِدًّا. وَلَكِنْ أَنْ أَبْقَى فِي الْجَسَدِ أَلْزَمُ مِنْ أَجْلِكُمْ» (فيلبي ١: ٢١-٢٤).

كان بولس على استعداد أن يواصل خدمته على الأرض، مع أنه كان يفضِّل أن يموت، ويكون مع المسيح. هكذا علينا نحن أيضًا أن نصلي كي ينعم الله علينا بأن نظل مثمرين في هذا العالم، حتى وإن كنا نفضِّل أن نموت ونكون مع المسيح.

يوجد سببان رئيسيَّان وراء اشتياق المؤمنين في بعض الأحيان إلى الموت. السبب الأول هو توقنا الشديد إلى بلوغ وجهتنا الروحيَّة. فإن غربة نفوسنا لن تنقضي حتى ندخل إلى راحتنا. والسبب الثاني هو الرغبة في التخلُّص من آلامنا وبلايانا.

وكما ذكرتُ سابقًا في هذا الكتاب، إن موعد موتنا في يد الله وحده. ومن ثَمَّ، ينبغي ألا نتخذ خطوات للإسراع بمجيء لحظة رحيلنا. فالله هو مصدر حياتنا، وهو مَن لديه السلطان على كلٍّ من الحياة والموت. يمكننا أن نصلي طالبين الموت، لكن استجابة الطلبة هي فقط في يد الله.

ماذا عن الانتحار؟ وماذا يحدث للذين يتخلَّصون من حياتهم؟

عبر التاريخ، تبنَّت الكنيسة موقفًا سيئًا من الانتحار. ومع ذلك، كثيرون، في حقيقة الأمر، يقتلون أنفسهم.

سُئلتُ في أحد البرامج الحواريَّة التليفزيونيَّة هذا السؤال: «هل يمكن أن يدخل الذين ينتحرون إلى السماء؟» وعندئذٍ، أجبت بنعم بسيطة وصريحة. وقد أسفرت إجابتي هذه عن توافد الاتصالات الهاتفية بكثرة إلى البرنامج. بل وقد أصيب المُضيف نفسه بالذهول من إجابتي.

ثم أوضحتُ بعد ذلك أن فعل الانتحار لم يوصَف، في أيِّ موضع، بأنه خطية لا غفران لها. فإننا لسنا نعلم بأيَّة درجة من اليقين ما كان يدور في ذهن أحدهم عند لحظة انتحاره. فقد ينتج فعل الانتحار عن عدم إيمان بحت، وعن استسلام تام لليأس، مما يدل على غياب الإيمان بالله. لكنه، في المقابل، قد ينتج عن مرض عقلي، سواء مؤقَّت أو مزمن. أو ربما ينتج عن موجة اكتئاب فجائيَّة شديدة (وقد ينتج هذا الاكتئاب عن أسباب عضويَّة، أو عن استخدام غير متعمَّد لبعض الأدوية).

قال أحد الأطباء النفسيِّين إن الغالبيَّة العُظمى من الذين ينتحرون لم يكونوا ليُقدِموا على هذا الفعل لو انتظروا أربع وعشرين ساعة. هذه الملاحظة مجرد تخمين، لكنها مستندة على عدة مقابلات

شخصيَّة أُجريت مع أشخاص حاولوا الانتحار بجديَّة، ولم ينجحوا، ثم تعافوا فيما بعد من إحباطهم الشديد.

بيت القصيد، إذن، هو أن الناس يُقدِمون على الانتحار لعدة أسباب مختلفة. ولا يعرف أحدٌ على وجه اليقين مدى التعقيد الموجود في فكر الشخص في لحظة إقدامه على الانتحار سوى الله وحده. ومن ثَمَّ، الله وحده هو الذي يستطيع أن يُصدِر حكمًا عادلًا ودقيقًا على أي إنسان. ففي النهاية، يعتمد خلاص الإنسان على ما إن كان قد اتحد بالمسيح بالإيمان أم لا. وتظل حقيقة كون المؤمنين الحقيقيين عرضة للاستسلام لموجة عارمة من الاكتئاب قائمة.

ومع أننا ينبغي أن نسعى إلى إثناء الناس عن الانتحار، لكن، علينا في الآن ذاته أن نترك مصير الذي أقدموا على هذا بالفعل لرحمة الله.

هل يمكن اعتبار الألم بصفة عامة، وليس الاضطهاد من أجل اسم المسيح بصفة خاصة، اشتراكًا في آلام المسيح؟

أعتقد أن هذا ممكنٌ في بعض الحالات. فإن كنا نتألَّم في إيمان، واضعين ثقتنا في الله في وسط الألم، فنحن إذن نتمثَّل بثقة يسوع في الآب. قطعًا، هناك وعد خاص للذين يتألمون ظلمًا. وهناك جيش من المواعيد الكتابيَّة لتعزية أولئك الذين يُضطهَدون من أجل البر.

لكن، ماذا إذا كان أحدهم يعاني من مرضٍ أو مأساة ما غير ناجمة عن اضطهاد؟ في هذه الحالة، يُمثِّل وضع هذا الشخص ثقته في الله في خضم الضيقة فضيلة لن تمرَّ دون مكافأة. فلا يزال هذا ينطوي على تمثُّل من نوعٍ ما بالمسيح. فبالتأكيد، يُكرَم الله ويُسَرُّ حين يحتفظ أبناؤه بإيمانهم في خضم الألم. فإننا في ذلك نتبع خطوات المسيح.

لكننا قد نتألم أيضًا كعاقبة عادلة على خطايانا. وفي هذه الحالة، نحن، بكل تأكيد، لسنا نتمثَّل بالمسيح. فهو لم يتألم قط بسبب خطيَّة، لأنه كامل وبلا عيب. لكن حتى في هذه الحالة أيضًا، إكرام الله ممكنٌ. فقد تمجَّد الله حين أقر اللص على الصليب بأنه كان يستحق العقوبة التي تم جزاءه بها (لوقا ٢٣: ٤١). فهو لم يضف إلى الخطايا التي كان مذنبًا بالفعل بارتكابها تجديفًا أو افتراءً على الله.

ماذا يحدث للحيوانات التي تموت؟

ليس هذا بالسؤال التافه. نعلم جيدًا أن البشر يتعلَّقون بشدة بالحيوانات، ولا سيما حيواناتهم الأليفة. وتُظهِر صورة الطفلة الصغيرة مع قطتها، أو الرجل مع كلبه، قوة المشاعر الموجودة بين البشر والحيوانات.

تبنَّى كثيرون، في المعتاد، قناعة بعدم وجود حياة مستقبليَّة للحيوانات. لم يعلِّم الكتاب المقدس بوضوح بأن الحيوانات ستذهب إلى السماء. وتُمثِّل القناعة بأن الحيوانات بلا أرواح واحدةً من أهم الحجج التي تدحض فكرة وجود حياة للحيوانات بعد القبر. فإن كثيرين على قناعة بأن ما يُميِّز البشر عن الحيوانات هو أن البشر لديهم أرواح، على عكس الحيوانات. ويقول البعض إن صورة الله في الإنسان تكمُن في الروح.

كذلك، يُفترض أن الحيوانات لا تستطيع أن تفكِّر مثلنا؛ وتُفسَّر ردود أفعالهم على أنها غريزيَّة، وليست نوعًا أدنى من الإدراك. غير أن مصطلح «غريزة» هذا يشوبه الغموض. فمتى تصير الغريزة فكرًا؟ فإن بوسع الحيوانات إظهار ما نسميه نحن بالمشاعر. وهي بكل تأكيد تستجيب للمحفزات الخارجية.

لم يقل الكتاب المقدس إن الحيوانات تُفكِّر، ولم يقل إن لها أرواحًا، لكنه أيضًا لم ينفِ ذلك. ولتحرِّي الدقة، يقول الكتاب المقدس إن «الحمار يعرف معلف صاحبه» (إشعياء ١: ٣). فقد نُسِبت المعرفة هنا إلى حيوان. لكن، يمكن تفسير هذا النص مجازيًّا أو بطريقة شعرية. ولهذا، فإننا نظل غير متيقنين.

لكننا متيقِّنون من أمر واحد، وهو أن الكتاب المقدس يعبِّر عن الفداء بمفردات كونيَّة شاملة. فمثلما غاصت الخليقة برمتها في الخراب والدمار بسبب سقوط الإنسان، هكذا أيضًا الخليقة بأكملها تئن معًا، متوقِّعة الفداء: «لِأَنَّ انْتِظَارَ الْخَلِيقَةِ يَتَوَقَّعُ اسْتِعْلَانَ أَبْنَاءِ اللهِ. إِذْ أُخْضِعَتِ الْخَلِيقَةُ لِلْبُطْلِ -لَيْسَ طَوْعًا، بَلْ مِنْ أَجْلِ الَّذِي أَخْضَعَهَا- عَلَى الرَّجَاءِ، لِأَنَّ الْخَلِيقَةَ نَفْسَهَا أَيْضًا سَتُعْتَقُ مِنْ عُبُودِيَّةِ الْفَسَادِ إِلَى حُرِّيَّةِ مَجْدِ أَوْلَادِ اللهِ» (رومية ٨: ١٩-٢١).

كذلك، تضمَّنت أوصاف السماء والفداء المستقبلي حيوانات، حيث ذُكِر كلٌّ من الحمل والأسد والذئب. مرة أخرى، ربما تكون هذه الأوصاف مجرد تشبيهات مجازيَّة؛ لكنها، مصحوبة بوعد الفداء الكوني، تمدُّنا بقدرٍ من الرجاء الحقيقي في الفداء المستقبلي للحيوانات صديقة الإنسان.

هل من الخطأ أن نحاول تجنُّب الألم؟

كان الألم، في بعض الفترات من تاريخ الكنيسة، يُحسَب فضيلة، لدرجة أن الناس اجتهدوا بشدة كي يتألَّموا. وقد كان للهرطقة المانَوية القديمة، التي كانت تركِّز على عتق الروح من الجسد الشرير، تأثير شديد وممتد على الكنيسة. وكان يُنظَر إلى الأفعال النسكيَّة العنيفة، التي تتضمن أنواعًا غريبة من جلد الذات، على أنها وسائل لنيل الاستحقاق أمام الله.

إلا أن التألُّم فقط لأجل التألُّم ليس فضيلة. فقد يدل السعي وراء الألم على وجود خلل نفسي، كالاضطراب المازوخي. وكذلك، قد يشير هذا إلى رغبة في تبرير النفس، بدافع الكبرياء، من أجل التكفير عن الخطايا، بدلًا من قبول نعمة الغفران.

ما من سبب يدعو إلى السعي وراء الألم؛ كذلك، لا بأس من محاولة تجنُّبه، ما لم يكن تجنبه ينطوي عمدًا على خيانة للمسيح. كان بمقدور الشهداء الأوائل تجنُّب الأسود، فقط لو أنكروا المسيح، لكن مثل هذا التجنب للألم كان سيُعَد بمثابة خطيَّة. ليست هذه الأمثلة قاصرة على الكنيسة الأولى؛ ففي الكثير من المواقف في العالم الحاضر، ولا سيما في الدول الدكتاتوريَّة، يختار المؤمنون - وفي بعض الأحيان لا يختارون - أن يتألَّموا لأجل المسيح.

لكننا نسعى إلى تجنب الألم حين نبتاع طعامًا لنأكل، ونتناول أدوية لعلاج أمراضنا. ليس هذا خطيَّة بل تعقُّل. فإن الله يدعونا إلى أن نعتني بأنفسنا كوكلاء على كلٍّ من أجسادنا وأرواحنا.

لذا، ربما يُعَد تجنب الألم فضيلة أو خطيَّة، وذلك بحسب الظروف المُحيطة بالأمر.

إلى أين تذهب روح الطفل الذي يموت أو يُجهَض؟

توحي صياغة هذا السؤال ببعض الغموض في العلاقة بين الإجهاض والموت. فإذا كانت الحياة تبدأ عند الحبل، فإن الإجهاض إذن يصير نوعًا من الموت. وإذا لم تكن الحياة تبدأ إلا بالولادة، فقطعًا، لن يُمثِّل الإجهاض موتًا. يقول الرأي التقليدي إن الحياة تبدأ عند الحبل. إن كان كذلك، يصير للسؤال المتعلِّق بموت طفل رضيع أو بموت جنين قبل ولادته إجابة واحدة.

حين يموت إنسان قبل بلوغ سن المُساءلة (الذي يختلف بحسب القدرة الذهنيَّة)، يجعلنا هذا نلجأ إلى إمدادات أو تدبيرات خاصة من رحمة الله. تؤمن غالبيَّة الكنائس بوجود تدبير خاص في رحمة الله. لا يفترض هذا الرأي إن الأطفال الرُضَّع أبرياء من الخطيَّة. فقد قال داود إنه وُلِد في الخطيَّة، وحُبِل به في الخطيَّة (مزمور ٥١: ٥). وكان من الواضح أنه يشير بهذا إلى المفهوم الكتابي عن الخطيَّة الأصليَّة. لا تشير الخطيَّة الأصليَّة إلى الخطيَّة الأولى التي ارتكبها آدم وحواء، بل إلى نتيجة هذا التعدِّي الأول، أي إلى حالتنا الساقطة، التي تؤثر في جميع البشر. فنحن لسنا خطاة لأننا نخطئ، بل نحن نخطئ لأننا خطاة. يعني ذلك أننا نخطئ لأننا نولَد بطبيعة خاطئة.

ومع أن الأطفال الرُضَّع لا يذنبون بارتكاب خطيَّة فعليَّة، لكنهم، مع ذلك، موسومون بالخطيَّة الأصليَّة. ولهذا السبب نُصر على أن خلاص الأطفال الرُضَّع لا يعتمد على براءتهم المزعومة، بل على تدبير نعمة الله.

تؤمن كنيستي بصفة خاصة أن أبناء المؤمنين الذين يموتون في طفولتهم يذهبون إلى السماء بفضل نعمة خاصة من الله. لكن، يظل ما يحدث لأبناء غير المؤمنين محاطًا بالغموض. ربما يكون هناك تدبير خاص من نعمة الله لهم أيضًا. ويمكننا بالتأكيد أن نرجو ذلك.

ومع أننا نرجو مثل هذه النعمة، لكن لا يوجد الكثير من التعليم الكتابي المحدَّد بشأن هذه المسألة. تمدُّنا كلمات يسوع - «دَعُوا الْأَوْلَادَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلَا تَمْنَعُوهُمْ لِأَنَّ لِمِثْلِ هَؤُلَاءِ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ» (متى ١٩: ١٤) - ببعض التعزية، لكنها، مع ذلك، لا تقطع أيَّ وعد جازم وقاطع بخلاص الأطفال.

عندما أخذ الله ابن داود وبشبع، ناح داود قائلًا: «لَمَّا كَانَ الْوَلَدُ حَيًّا صُمْتُ وَبَكَيْتُ لِأَنِّي قُلْتُ: مَنْ يَعْلَمُ؟ رُبَّمَا يَرْحَمُنِي الرَّبُّ وَيَحْيَا الْوَلَدُ. وَالْآنَ قَدْ مَاتَ، فَلِمَاذَا أَصُومُ؟ هَلْ أَقْدِرُ أَنْ أَرُدَّهُ بَعْدُ؟ أَنَا ذَاهِبٌ إِلَيْهِ وَأَمَّا هُوَ فَلَا يَرْجِعُ إِلَيَّ» (٢ صموئيل ١٢: ٢٢-٢٣).

أعرب داود هنا عن ثقته بأنه «ذَاهِبٌ إِلَيْهِ». ومع أن هذا ربما يشير فقط إلى أن داود سيموت في النهاية، لكنه على الأرجح إشارة ضمنيَّة إلى رجائه في لمِّ شمله مع ابنه في المستقبل. هذا الرجاء في لم الشمل في المستقبل هو رجاء مجيد، يؤيِّده تعليم العهد الجديد عن القيامة.

هل تلعب حريَّة الإرادة دورًا في الألم؟ على سبيل المثال، إذا دخَّن أحدهم ثم مات من جرَّاء السرطان، فهل يُعَد ألمه هذا دعوة من الله؟ أم دينونة إلهيَّة؟ أم أن هذا الرجل قاسى الألم بمحض الصدفة؟

يطرح هذا السؤال ثلاثة تفسيرات مُحتَمَلة لنوع الألم الموصوف. لكننا نستطيع من البداية استبعاد أحدها تمامًا. فإذا كان الله ضابطًا لكلِّ شيء بسيادته، فما من شيء إذن يقع بمحض الصدفة. فإن حدثًا من قبيل الصدفة سيكون خارجًا تمامًا عن نطاق مشيئة الله السياديَّة. ولو وقع أي حدث خارج مشيئة الله السياديَّة، فسيكون من قبيل التناقض إذن أن نقول إن الله متحكِّم في كل شيء. وكما كتبتُ في موضع آخر، لو تجوَّلت ذرة واحدة في الكون في حريَّة من سيادة الله، فما من ضمان، إذن، على تحقُّق أي وعد قطعه الله. فربما تكون هذه الذرة الواحدة هي الشيء الذي يعطِّل خطة الله الأزليَّة. وحينئذٍ، لن تفشل فقط أفضل خطط الإنسان، بل خطط الخالق ذاته أيضًا.

إن كان الله غير متحكِّم، فهو ليس الله. فإن إلهًا دون سيادة ليس إلهًا على الإطلاق. وإله بلا سيادة يشبه ملكًا اسميًّا، يملك لكنه لا

يَحكُم. بالتأكيد، لدى البشر حريَّة إرادة، لكن حريَّة إرادتنا محدودة. وهي محدودة دائمًا بحريَّة إرادة الله. وإن حريَّة إرادة الله هي حريَّة إرادة سياديَّة، بينما حريَّة إرادتنا هي حريَّة إرادة خاضعة.

حين أصف الألم بأنه دعوة، فإنني أقصد بهذا أن الله متحكِّم في كلِّ ما يحدث لنا. وهذا لا يلغي حريَّة إرادتنا ومسؤوليتنا.

لكن، يبقى هذا السؤال: هل الألم المذكور أعلاه هو نتاج دعوة أم دينونة من الله؟ هنا نجد أنفسنا أمام مغالطة المأزق المفتعل. لا يلزم أن يكون الجواب إما هذا أو ذاك. فربما تكون دعوة الله إلى الألم هي فعل دينونة في الآن ذاته.

نتذكَّر بالتأكيد دعوة الله التي جاءت ليلًا إلى صموئيل، حين كان يخدم تحت قيادة عالي الكاهن. وفي ذلك اليوم، كشف الله لصموئيل أنه عتيدٌ أن يوقع دينونته المقدَّسة على بيت عالي. وحين ألح عالي الكاهن على صموئيل كي يخبره بما أعلنه الله له، قائلًا: «مَا الْكَلَامُ الَّذِي كَلَّمَكَ بِهِ؟ لَا تُخْفِ عَنِّي. هَكَذَا يَعْمَلُ لَكَ اللهُ وَهَكَذَا يَزِيدُ إِنْ أَخْفَيْتَ عَنِّي كَلِمَةً مِنْ كُلِّ الْكَلَامِ الَّذِي كَلَّمَكَ بِهِ. فَأَخْبَرَهُ صَمُوئِيلُ بِجَمِيعِ الْكَلَامِ وَلَمْ يُخْفِ عَنْهُ. فَقَالَ: هُوَ الرَّبُّ. مَا يَحْسُنُ فِي عَيْنَيْهِ يَعْمَلُ» (١ صموئيل ٣: ١٧-١٨).

أقر عالي الكاهن بدينونة الله، وأقر بعدلها، وأعلن خضوعه لها. وفي هذه الحالة، يكون عالي قد قبل دعوة الله إلى احتمال تأديب ينطوي على ألم.

هكذا أيضًا، حين واجه ناثان داودَ بخطاياه، قدَّم داود توبة، أدَّت إلى الإبقاء على حياة داود، لكن ليس على حياة ابنه: «فَقَالَ دَاوُدُ لِنَاثَانَ: «قَدْ أَخْطَأْتُ إِلَى الرَّبِّ». فَقَالَ نَاثَانُ لِدَاوُدَ: «الرَّبُّ أَيْضًا قَدْ نَقَلَ عَنْكَ خَطِيَّتَكَ. لَا تَمُوتُ. غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ بِهَذَا الْأَمْرِ أَعْدَاءَ

الـرَّبِّ يَشْـمَتُونَ، فَالِابْـنُ الْمَوْلُـودُ لَـكَ يَمُـوتُ»» (٢ صموئيـل ١٢: ١٣-١٤).

تخبرنـا القصـة الكتابيَّـة بـأن داود تـضرَّع إلى اللـه بعـد ذلـك مـن أجـل الطفـل، وصـام، وصـلَّى. لكـن اللـه أجابـه بـلا. وفي اليـوم السـابع، مـات الطفـل. مـاذا كان رد فعـل داود؟ «فَقَـامَ دَاوُدُ عَـنِ الْأَرْضِ وَاغْتَسَـلَ وَادَّهَـنَ وَبَـدَّلَ ثِيَابَـهُ وَدَخَـلَ بَيْـتَ الـرَّبِّ وَسَـجَدَ» (٢ صموئيـل ١٢: ٢٠).

سـجد داود للـه في خضـم ألمـه. فقـد كان يعلـم بالحقيقـة أنـه يتألَّـم بسـبب دينونـة اللـه التأديبيَّـة والتقويميَّـة التـي وقعـت عليـه. وكانـت اسـتجابته لدعـوة اللـه سـليمة.

وتـردِّد اسـتجابة داود هـذه صـدى رد فعـل أيـوب حـين قـال: «عُرْيَانًـا خَرَجْـتُ مِـنْ بَطْـنِ أُمِّـي، وَعُرْيَانًـا أَعُـودُ إِلَى هُنَـاكَ. الـرَّبُّ أَعْطَـى وَالـرَّبُّ أَخَـذَ، فَلْيَكُـنِ اسْـمُ الـرَّبِّ مُبَـارَكًا» (أيـوب ١: ٢١).

مـا تفسـيرك لخـبرات الخـروج مـن الجسـد، أو تلـك مـن قبيـل «النفق بـين الحيـاة والمـوت»، التـي ذكـر كثـيرون بعـد إنعاشـهم مـن المـوت أنهـم مـرُّوا بها؟

لا أسـتطيع تقديـم تفسـير وافٍ لهـذه الظاهـرة. أجرَيـتُ أبحـاث كثـيرة في هـذا الموضـوع؛ لكـن النتائـج، في أفضـل الأحـوال، تظـل تخمينيَّـة. سـمعتُ تقاريـر تدَّعـي أن قرابـة الخمسـين بالمائـة مـن الذيـن مـروا بتجربـة المـوت الإكلينيـكي، وأُسـعِفوا عـن طريـق الإنعـاش القلبـي الرئوي، أو وسـائل أخـرى، يـروون مرورهـم بتجربـة غريبـة مـن نـوعٍ مـا. ذكـر بعضهـم أنهـم شـعروا كـما لـو أنهـم ينظـرون مـن سـقف الغرفـة إلى الأسـفل حيـث رأوا جسـدهم ممـدَّدًا عـلى الفـراش، بينـما يحـاول الأطبـاء أو الممرضـات إسـعافه. وذكـر آخـرون أنهـم وجـدوا أنفسـهم يسـيرون عـبر نفـق واسـع يغمـره ضـوء سـاطع.

كانـت غالبيَّـة هـذه التقاريـر ذات طابـع إيجـابي. لكـن، روى آخـرون

أيضًا خبرات مخيفة ومشؤومة جعلتهم يأخذون وقفة للتفكير في المصير الذي قد ينتظرهم وراء هذا الستار.

وتُعَد التفسيرات الدينيَّة لهذه الخبرات مُعقَّدة لأن مؤمنين وغير مؤمنين على حدٍّ سواء يروون مرورهم بالخبرات الإيجابيَّة عينها.

وقد قُدِّمت تفسيرات عديدة لهذه الظواهر، يتعلق أحدها بنوعٍ من الهلوسة تسبِّبه أدوية معينة، أو بعض الموجات الكهربائيَّة الزائدة في المخ، نظير التفسير الذي يقدِّم عادةً لحالة شعور المرء وكأنه رأى شيئًا أو حدثًا ما من قبل (*déjà vu*). بُني تفسير آخر على التصريح الكتابي بوجود حياة بعد الموت. وكمؤمنين، نحن نؤمن بأن الروح لا تموت، أي بأن هناك استمراريَّة للوجود الشخصي عقب توقف حياة الجسد المادي. وسواء كنا صالحين أو أشرارًا، مُخَلَّصين أو غير مُخَلَّصين، فإن حياة الروح تظل مستمرة.

تذهلني هذه التقارير، وأتشوَّق إلى ظهور تحليل علمي لها في المستقبل. لكنني مع كل هذا أُبقي أمامي ذلك التحذير الذي جاء في مَثَل الغني ولعازر، والذي يقول: «إِنْ كَانُوا لَا يَسْمَعُونَ مِنْ مُوسَى وَالْأَنْبِيَاءِ، وَلَا إِنْ قَامَ وَاحِدٌ مِنَ الْأَمْوَاتِ يُصَدِّقُونَ» (لوقا ١٦: ٣١).

لماذا يحاول البشر التواصل مع الأموات عبر وسطاء روحيِّين؟ وهل مثل هذه المحاولات تنجح حقًّا؟

نحن نتوق إلى دليل مادي وملموس على استمراريَّة الحياة بعد الموت، ونريد تأكيدًا على أن أحدهم ذهب بالفعل إلى هناك، وعاد ثانية، أو على الأقل بعث لنا رسالة من العالم الآخر. لكن محاولات الوصول لمثل هذا التأكيد عبر وسائل غير مشروعة هي محاولات محفوفة بالمخاطر.

تُظهِر ممارسة تحضير الأرواح، التي يُطلق عليها عادة اسم «المذهب الروحاني»، رغبة الجنس البشري الشديدة في الحصول على

معلومات مباشرة من العالم الآخر. وتَعِد جلسات تحضير الأرواح التي يجريها الوسيط الروحاني بتقديم مثل هذه المعلومات، عن طريق التواصل من خلال وسيط روحاني، أو ممارسات النقر والطرق على الطاولة، أو عن طريق ظهور أشكال أشباح في إفرازات الإكتوبلازم.[١٤]

يقول العهد القديم إن هذه الممارسات مكرهة لله. كذلك، كانت هذه جريمة في أمَّة إسرائيل تستوجب عقوبة الإعدام. أيضًا، يبدي العهد الجديد القدر نفسه من المعارضة التي يبديها العهد القديم لأعمال السحر، كما نرى في مواجهة الرسل، في سفر أعمال الرسل، لهذه الممارسات.

من المثير للاهتمام أن الكتاب المقدس يروي لنا قصة فيها تم بالفعل استحضار عرافة عين دور لروح صموئيل النبي بأمر من شاول الملك (١ صموئيل ٢٨). تبدو لنا هذه القصة بالتأكيد كما لو كان هذا تواصلًا حقيقيًّا مع شخص ميت. لكن هل ذلك صحيح؟

أرى ثلاث طرق محتمَلة لفهم هذه القصة. أولًا، قد تكون هذه إشارة إلى حدوث معجزة شيطانيَّة. بمعنى آخر، ربما تكون العرافة قد استحضرت روح صموئيل بقوة الشيطان. يعزو الكتاب المقدس إلى الشيطان القدرة على إجراء «آيَاتٍ وَعَجَائِبَ كَاذِبَةٍ» (٢ تسالونيكي ٢: ٩). لم يكن التركيز هنا على كلمة «**عجائب**» بل على الصفة «**كاذبة**». فإن الشيطان لا يصنع معجزات حقيقة، بل زائفة. وفي كلِّ الأحوال، الله، وليس الشيطان، هو الممسك بمفاتيح الموت. وحتى وإن كان

---

[١٤] المترجم: يُقَال إن الإكتوبلازم هو مادة لزجة تتكوَّن من خلال وساطة روحيَّة عندما يكون الوسيط في حالة من الغياب عن الوعي. يُفرز الإكتوبلازم على شكل مادة تشبه الشاش من فتحات جسد الوسيط، ويُقال إن الكيانات الروحيَّة تغطي جسدها غير المادي بمادة الإكتوبلازم المُفرزة، ما يمكنها من التفاعل في الكون المادي الحقيقي.

إبليس يمتلك القدرة على صنع معجزات حقيقيَّة، لكنه لن يستطيع ممارسة تلك القدرة لو لم يسمح له الله.

ثانيًا، ربما تكون القصة مجرد سرد أمين للحادثة كما بدت. يستخدم الكتاب المقدس كثيرًا ما نسميه لغة «الظاهر»، وهي اللغة التي تصف الأحداث **كما تبدو للعين المُجرَّدة**. وفقًا لهذا السيناريو، ربما يكون الاستحضار الظاهري لصموئيل مجرد حيلة بارعة ظنَّها شاول حقيقيَّة.

ثالثًا، ربما تُمثِّل القصة هنا وصفًا لعمليَّة تحضير أرواح حقيقيَّة أُجرِيت عن طريق وسيط. لم يجزم الكتاب المقدس بشكل قاطع بأن صموئيل استُدعيَ بالفعل من الموت، لكنه أيضًا لم ينكر ذلك. لكن، حتى لو كانت العرافة قد استحضرت روح صموئيل بالفعل، فإن نجاحها في ذلك لا يؤيِّد ممارسة العِرَافَة وتحضير الأرواح. فقد أذنبت عرافة عين دور بممارستها أمرًا كان يُمثِّل جريمة عقوبتها الإعدام في إسرائيل، سواء كان الأمر زائفًا أو حقيقيًّا.

في اعتقادي الشخصي، لم يحدث بالفعل استحضارٌ لروح صموئيل، بل كانت هذه حيلة بارعة. فإنني أرى أن عرافة عين دور كانت مُحتالة. وأعتقد أن الأمر ذاته ينطبق على جميع مثل هؤلاء الوسطاء الروحيين. فلا جدال على أن كثيرين من الوسطاء الروحيين قد افتُضِح أمرهم بكونهم محتالين، في حين لم يثبت صدق أي منهم.

إذا كنا نتوق إلى يقين بشأن الحياة ما بعد الموت، يمكننا اللجوء إلى مكان أفضل من عالم السحر أو المجهول. يمكننا تخطِّي تكهنات الفلاسفة، وهراء المنجمين، وشعوذات المُضلِّلين، واللجوء إلى العهد الجديد، إلى أقوال يسوع وأعماله. فإن أقواله تسمو فوق الزيف، وتقتادنا إلى عالم الحق الأصيل والحكيم، كما أن أعماله (معجزاته) تصادق على أقواله، وتبرهن على صحتها.

خدمات ليجونير

تُكرِّس هيئة خدمات ليجونير جهودها لمساعدة المؤمنين على معرفة ما يؤمنون به، ولماذا يؤمنون به، وكيف يعيشونه، وكيف يشاركونه مع الأخرين. نُقدِّم موارد كتابيَّة ولاهوتيَّة موثوق بها على موقعنا الإلكتروني بهدف إعلان قداسة الله وشرحها والدفاع عنها في كل ملئها لأكبر عدد ممكن من الناس.

الموقع الإلكتروني لخدمات ليجونير:
https://ar.ligonier.org

ندعوكم للانضمام إلينا عبر وسائل التواصل الاجتماعي التالية:
facebook.com/LigonierAR
twitter.com/LigonierAR
t.me/Ligonier_Arabic

للتواصل معنا:
info@ar.ligonier.org

الحق يحرركم

من أجل كنائس تنعم بالصحة
ومؤمنين دافعهم هو رسالة الإنجيل
لمجد الله وامتداد ملكوته

«وَتَعْرِفُونَ الْحَقَّ، وَالْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ» (يوحنا ٨:٣٢).

إيمانًا منا بأن الكتاب المقدس هو كلام الله النَافِعٌ لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّوْبِيخِ، لِلتَّقْوِيمِ وَالتَّأْدِيبِ الَّذِي فِي الْبِرِّ (٢تي ٣:١٦). فإن **خدمة الحق يحرركم** تهدف إلى توفير تعليم مبني على كلمة الله للمؤمنين كأفراد والكنيسة كجماعة، لإعلان الحق القادر أن يحرر القلوب من الخطية، والشك، والخوف، والإحباط، والخداع. وذلك من خلال عقد مؤتمرات وترجمة مقالات وعظات وكتب.

نصلي أن تكون خدمتنا سبب بركة لك عزيزنا القارئ في مسيرة إيمانك.

للتواصل معنا

Website: www.tsfministry.com

Email: TSF.Ministry@gmail.com

Facebook: tsfministry2016/خدمة الحق يحرركم

WhatsApp: +2 01015231730

مكانة الألم

كثيرًا ما يفاجئنا الألم. فإننا في أحد الأيام نكون بصحة جيدة، وهانئين، وسعداء. وفي اليوم التالي نجد أنفسنا مرضى، أو مصابين، أو مضطربين، أو في صراع. وقد يأتينا هذا الوجع الذي يجتاح حياتنا إما بسبب آلامنا الشخصيَّة، أو بسبب آلام أحد أحبائنا. لكن بغض النظر عن المصدر، نحن لم نكن نتوقَّعه. وفي غالبيَّة الأحيان، يدفعنا ارتباكنا وحيرتنا إلى اتهام الله بارتكاب خطأ.

في هذا الكتاب الكلاسيكي [illegible] نشره في طبعة منقَّحة [illegible]عة، يقول د. أر. سي. سبرول إن الألم ينبغي ألا يصيبنا [illegible] بل في المقابل، علينا أن نتو[illegible] الوجع والحزن في هذه الحياة. وفي حقيقة الأمر، يتلقَّ[illegible] «دعوة» إلى الألم. وفي النهاية [illegible]نا مدعوون إلى الخضوع لألم الموت. يَعِد الله في كلمته [illegible]ات الضيق ستأتي علينا، لكن [illegible] أيضًا بأنه يسمح بالألم لخيرنا ولمجده، وبمعونته لن يسمح البتة بأن نجتاز فيما يفوق احتمالنا.

يقدم د. سبرول هنا مشورة كتابيَّة سليمة ومتينة، وتعزية سواء للذين يتعرَّضون للألم، أو للذين يخدمون مُتألِّمين؛ وهي مشورة من شأنها أن تعين المؤمنين على الوقوف راسخين في أوقات الضيق، في إيمانٍ بإلهٍ مُحب وكذلك صالح أيضًا.

الدكتور أر. سي. سبرول هو مُؤَسِّسُ هيئَة خَدَمات لِيجُونِير، وكان أحدَ رُعاةِ كنيسة القدِّيس أنْدْرو (St. Andrews Chapel) في مدينَةِ سانفورد بولايةِ فلُورِيدا، كما كانَ أوَّلَ رئيسٍ لكُلِّيَّةِ الكتاب المُقَدَّس للإصْلاح (Reformation Bible College). وهو ألَّفَ أكْثَرَ من مائَةِ كِتابٍ، بِمَا في ذَلِكَ "**كلُّنا لاهوتيُّون**" (*Everyone's A Theologian*).

ISBN 978-977-90-8591-3
9 789779 085913

الحق يحرركم

كتابات ليجونير